السميولوجيا

الجذور، المفاهيم، الامتدادات

السميولوجيا

الجذور، المفاهيم، الامتدادات

د.عبد الرحمن بن إبراهيم المهوس

٢٠١٦م

ⓗ عبدالرحمن بن إبراهيم المهوس ، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المهوس، عبدالرحمن بن إبراهيم
السميولوجيا الجذور المفاهيم الامتدادات./ عبدالرحمن بن إبراهيم المهوس ، الخبر ١٤٣٦هـ
.. ص ؛.. سم
ردمك : ٣ - ٩٣٢٣ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- علم اللغة أ. العنوان
ديوي ٤٠٤ ١٤٣٦/٨٩٤٦
رقم الإيداع: ١٤٣٦/٨٩٤٦
ردمك : ٣ - ٩٣٢٣ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٧ /٢٠١٦ م

ص ب ٣٦٩١ الخبر ٣١٩٥٢
الجوال ٠٠٩٦٦٥٠٥٨٦٧٣٦٣
aesm555@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده:
لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

القاضي
عبد الرحيم البيساني

المحتويات

مقدمة

برزت السميولوجيا -Semiology- في عصر ما بعد الحداثة- The postmodernism، وإن كانت انطلاقتها سابقة ذلك بكثير، ولقيت إقبالًا كبيرًا من الدارسين، سواء في الدراسات الغربية أو العربية، وتكرَّست أهميتها بوصفها ردة فعل على المناهج الحداثية المحايثة، وخصوصا البنيوية، التي اعتمدت مبدأ المحايثة، واتسمت بالانغلاق، فأقصت كل ما هو خارج العلامة.

وهذا ما ترفضه السميولوجيا التي تنفتح على ماوراء العلامة، فالسميولوجيا ككثير من نظريات ما بعد الحداثة، تنطلق من دراسة الشفرات والأوساط، وتهتم بالأيديولوجيا والبنى الاجتماعية والاقتصادية والتحليل النفسي والشعرية ونظرية الخطاب.

وكان فردينان دو سوسير- Ferdinand de Saussure، قد تنبأ بظهورها منذ أوائل القرن العشرين، وصاغ تشارلز بورس-Charles.S. Peirce لها نظرية فلسفية في الوقت نفسه.

بيد أن الفضل في تبلورها نظرية يعود إلى مجموعة من الباحثين من بعدهما، أمثال لويس هيلمسليف-Louis Hjelmslev وكلود ليفي ستراوس-C.Levy Strauss، وإميل بنفنيست-E.Benveniste ورولان بارت-Roland Barthes وجوليا كرستيفا-Julia Kristeva، وألجيرداس غريماس-Algirdas Greimas، وأمبرتو إيكو-Umberto Eco. وغيرهم.

(١) شولز، روبرت: السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١و ١٩٩٤.. ص ١٥.

ومثلما أفاد هؤلاء المتأخرون من النظرية اللسانية السوسيرية، والنظرية المنطقية البورسية، أفادوا أيضا من الدرس اللغوي التراثي، والفكر الفلسفي، سواء كان إغريقيًا أو حديثًا، فالفكر القديم غذّى القرون الوسطى بأفكار ذات حمول سميولوجية، أثَّرت أثرًا كبيرا في النظرية المعاصرة.

إن القراءة الفاحصة لمنجزنا السميولوجي، تكشف حاجة المكتبة العربية للتعريف بالنظرية السميولوجية، واستثمار منهجها؛ لذا جاء هذا الكتاب معرفا بالسيميولوجيا، ومسهما في نقل النظرية والتعريف بها، كما هي عند الغرب، في محاولة للإسهام في سدِّ النقص في الثقافة العربية.

وكانت الغاية أن نعتمد بعض المصادر الحديثة التي تناولت النظرية، إلا أننا لم نجد، فيما وقفنا عليه من دراسات، كلَّ ما ابتغيناه، فكان لزاما علينا العودة في بعض الأحيان إلى المصادر.

وكلما تقدمنا في تتبع النظرية في الغرب، بدا لنا سعة الهوة بين ما أنجز غربا وما أنجز عربيا، ووجدنا أنفسنا ندخل في متاهة لا حدود لها؛ لذا حاولنا حصر الدراسة بفصول أربعة، إضافة إلى المقدمة والخاتمة.

عني الفصل الأول بالتأريخ للسميولوجيا، فناقش إشكالية التأريخ للنظريات عامة، والسميولوجيا خاصة، ثم تناول المصطلح متتبعا رحلته عبر الحقول المختلفة، انطلاقا من التراث، وخاصة الإغريقي، مرورا بالعصور الوسطى، ليصل إلى العصر الحديث.

وتناول الفصل الثاني الأعلام الذين كان لهم الفضل في بلورة النظرية، فناقش مفاهيمهم الرئيسة، انطلاقا من أبوي السميولوجيا سوسير وبورس، ثم السميولوجيين البنيويين، ليصل إلى سميولوجيي ما بعد الحداثة.

ولارتباط السميولوجيا بجذور لا يمكن إغفالها، فقد خصص الفصل الثالث لإضاءة هذه الجذور، مع التركيز على الأصول القريبة، التي انطلقت منها النظرية الحديثة.

أما علاقة السميولوجيا بالحقول الأخرى، فقد خصص لها الفصل الرابع، حيث ناقش التداخل الذي كان له أثر كبير في إثراء النظرية المتسمة بالانفتاح والتداخل، ومن أبرز الحقول المداخلة اللسانيات والبنيوية والتأويل والتحليل النفسي والطب.

بيد أنها لم تقدم كلَّ ما تطمح إليه، وإن كانت لا تدعي قدرتها على ذلك، فالسميولوجيا بلغت من الاتساع والتشعب ما يجعل محاصرتها أمرا مستحيلا، ويكفي أن ننظر إلى الكم الهائل من الدراسات السميولوجية من منطلقات مختلفة، وباتجاهات لا حصر لها، متخطية الحقل اللساني والفلسفي، حتى كادت تداخل الحقول العلمية كلها.

وبعد، فهذا جهد مجتهد مقل، لعله يسهم في إضاءة هذه النظرية، ويكون حافزا لمزيد من الدراسات حول السميولوجيا وتطبيقاتها، فإن اعتراه قصور فمرده إلي وحدي، وإن حالفه التوفيق فمرده إلى الله، راجياً منه -سبحانه- التوفيق والسداد.

الفصل الأول

تاريخ السميولوجيا

١-١- إشكالية التأريخ:

تعد مسألة التأريخ لأي نظرية شرطا للولوج فيها، وتحديد مصطلحاتها، واستيعاب مفاهيمها، فالتأريخ يساعد على تتبع التحولات، والتلاقح مع العلوم الأخرى، والإفادة منها. والنظريات ليست مبتورة من سياقها الزمني ولا التزامني، بل هي نتاج نظريات سابقة وتلاقح علوم عدة.

وعندما نتعامل مع النظرية منجزة، دون تتبع مسيرتها العلمية، فإن ذلك، في واقع الأمر، مدعاة للفهم المنقوص أو الخطأ، فلكل نظرية شروطها الفكرية والثقافية والاجتماعية التي لا يمكن أن تنفصل عنها، كما أن لكل نظرية تاريخها الذي بلورها من خلال تراكمه.

إن فهم مسائل النظرية مرتبط بسياق ظهورها، ولكي نفهم المسائل التي تحيرنا فهما أفضل ينبغي، كما يقول أمبرتو إيكو،"أن نعود إلى السياقات التي ظهرت فيها مقولة ما لأول مرة"[١].

وهذه الأهمية للتأريخ تنسحب أكبر وأكثر جلاء على السميولوجيا، كونها من العلوم التي تتسم بالشمولية والانفتاح على كثير من الحقول الأخرى، سواء على مستوى منطلقاتها أو موضوعاتها أو أدواتها أو تصنيفاتها.

وهذا ما دعا بعض النقاد إلى القول: إن "تغييب السميولوجيين للبعد التأريخي جعلهم يقعون في مغالطات وأخطاء"[٢]، كان بالإمكان تلافيها لو استدعي التراث لمناقشتها، لكن "ابتسار التأريخ بإرجاع الثنائية والرباعية إلى القرن التاسع عشر وخصوصا القرن العشرين إفقار للفكر الإنساني وقتل لذاكرته العظمى"[٣].

---

(١) إيكو، أمبرتو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥. ص. ٣٢.
(٢) مفتاح، محمد: حول مبادئ سيميائية، مجلة علامات، المغرب، العدد ١٦، ٢٠٠٤. ص.٥٤.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

ويبرز في هذا المقام عدد من التساؤلات الملحة: هل يوجد تاريخ قديم للسميولوجيا، وهي علم أجمع النقاد على حداثته في موطنه الأصلي؟ وإن وجد، فإلى أي مدى يرتد؟ وهل يمكن ضبط حدوده؟

إن النظريات الحديثة في نظر كثير من الدارسين الغربيين شديدة الصلة بتراثهم الفلسفي واللغوي، بل ربما جعلها بعضهم منتمية إلى هذا التراث، فحينما تحدث أمبرتو إيكو[١] عن هذه القضية أصرّ على ربط ما بعد الحداثة بالماضي البعيد، يقول: "سآخذكم معي في رحلة أركيولوجية[٢] ستقودنا بعيدا عن النظريات المعاصرة للتأويل النصي. وستدركون بعد ذلك، عكس ما تعتقدون، أن الفكر الذي نطلق عليه (ما بعد الحداثة) سيبدو في مجمله وكأنه فكر ينتمي إلى الماضي البعيد".

والحقيقة أن هذه الرؤية ليست فريدة في التقليد الغربي، فكثير من الدارسين يربطون بين النظريات الحديثة والتراث عموما، والفكر اليوناني على وجه الخصوص؛ لذا نجد المصطلحات والمفاهيم وثيقة الصلة بمثيلاتها التراثية. وكثير من النظريات الحديثة -ومنها السميولوجيا- عبارة عن تراكم أو سلسلة من الإنجازات المتوالية، وما يقوم عمل اللسانيين في أي عصر -وفق تودوروف[٣] Tzvetan Todorov- إلا على "دمج اكتشافات القدماء في نظام تصوري جديد"، وسنرى في تتبعنا للسميولوجيا ما يعزز هذا الرأي.

بيد أنه على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت السميولوجيا،

(١) إيكو، أمبرتو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠. ص. ٢٤.

(٢) أركيولوجيا مصطلح اجترحه ميشيل فوكو في البحث. ولا تعني مجرد المعنى الحرفي المألوف للمصطلح الذي يعني «علم الآثار» أو «دراسة الحفريات»، كما ترجمها بعض الدارسين العرب، وإنما يقصد المعنى المجازي الأبعد الذي يرتبط بالحفر: البحث عن الشفرات المعرفية الفاعلة، أو « الأبنية الكامنة» وراء «الممارسات الخطابية» والمتحكمة فيها، ولذلك تختلف «أركيولوجيا المعرفة» عن «التاريخ التقليدي للمعرفة « فالأولى كشف عن القواعد الفاعلة داخل ثقافة من الثقافات»، والثاني مجرد سرد يحشد الوقائع والأحداث والمعاني. انظر: كريزويل، أديث: عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط١، ١٩٩٣. ص.٣٧١.

(3) Todorov، Tzvetan & Oswald Ducrot: Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، translated by، Catherine Porter، The johns Hopkins University Press، Baltimore & London، 1979. p. 4

وبسطت القول حول مصطلحاتها ومفاهيمها ومدارسها، إلا أن الجانب التأريخي لم يحظ بنصيبه من هذه الدراسات، وبرز جدل حاد في الغرب حول ضرورة التأريخ للسميولوجيا، على أساس أنها لما يؤرخ لها بعد.

وممن ناقش تأريخ السميولوجيا سانكدو كيم[١] الذي رأى أن "تاريخا كهذا لم ينجز إلى حد اليوم، باستثناء مجموعة من المقالات وبعض العروض السريعة"، ويقترح لحل إشكالية تأريخ السميولوجيا ثلاث خطوات: الأولى حصر الافتراضات الفلسفية والتأويلية المتعلقة بغائية السميولوجيا، والثانية بناء موضوعها؛ أي رصد الواقعة السميولوجية أدوات: مذاهب، نظريات، ممارسات... الخ، أما الخطوة الثالثة فهي تشييد منهجية تاريخ السميولوجيا ووضع نموذجها الوصفي والتفسيري[٢].

غير أن هناك من يرى صعوبة هذا التأريخ؛ إذ ليس من السهل -وفق برنار توسان Bernard Toussaint[٣]- رصد "تاريخ السيميولوجيا[٤] بكيفية دقيقة، ونفهم ببساطة أنها تتمازج مع ما سميناه لاحقا باللسانيات وتجاوزا بالفلسفة الكلاسيكية"؛ لذا يشير توسان في تأريخه الموجز للسميولوجيا إلى بعض الأصول التراثية، وخصوصا ما يتصل منها بالفلسفة الكلاسيكية.

ولا يقف الحد عند صعوبة الرصد الدقيق، بل إن هناك من رأى أن هذا التأريخ سابق لأوانه أصلا، مثل آن إينو Anne Henault[٥] في كتابها (تاريخ السميولوجيا) التي تساءلت في بداية مناقشتها لهذه القضية إن كانت "هذه السنوات القليلة التي شهدت بحوثا متفرقة من هنا وهناك وحاملة لمعرفة

(١) كيم، سانكدو: حول مشروع تاريخ السيميولوجيا – أسئلة وقضايا أبستيمولوجية، ترجمة: محسن أعمار، مجلة علامات، ع ٢١ – ٢٠٠٤، مكناس – المغرب. ص. ١٢٨.

(٢) السابق: الصفحة ذاتها.

(٣) توسان، برنار: ما هي السيميولوجيا، ترجمة: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م. ص٣٧.

(٤) السيميولوجيا من الترجمات العربية الشهيرة، وقد شاعت في بداية ترجمة النظرية بشكل واسع، وظهر إلى جانبها ترجمات كثيرة، كالسيميوطيقا، والسيميوتك، والعلاماتية، وعلم العلامات، وعلم الرموز، وغيرها.

(٥) بن مالك، رشيد: مقدّمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠م. ص. ٦.

هشة لازالت في بدايتها جديرة بكل هذا الاهتمام"[١].

وإذا كان البحث السميولوجي عرف تطورا على أيدي عدد كبير من النقاد، فإنه ما زال "في تحول مستمر لا يسمح بتقديم حوصلة تاريخية حول النظرية السيميائية"[٢]. فهو –وفق مارسيلو داسكال– " علم حديث النشأة"[٣]، وإن كان يرى أن له تراثا مديدا، لم يعرض إلا عرضًا جزئيًا.

والملاحظ أن هذه الآراء تأثرت بآراء مشتغلين مبكرين بالسميولوجيا، فنحن نلفيها كثيرا في الستينيات من القرن الماضي، مثل السابقين وغيرهم، حيث تتكرر الإشارة إلى أن السميولوجيا "ما تزال في مرحلة ما قبل الأنموذج من تطورها كعلم" (كاهن ١٩٦٢)[٤]، وأنها "ما تزال حقلا معرفيا غير مكتمل" (رولان بارت ١٩٦٧)[٥]، وأنها علميا "ما تزال في طفولتها" (توماس سيبيوك– Thomas Sebeok ١٩٦٨)[٦]، وأنها "لا تزال في خطواتها الأولى، وهي تبحث عن نفسها كعلم" (جوليا كريستيفا ١٩٦٩)[٧]، وهذا ما يؤكده تودوروف[٨]وأوزوالد ديكرو –Oswald Ducrot من أن السميولوجيا مجرد "مقترحات وليست بناء معرفيا مستقلا".

بيد أن هذا، وإن كان مقبولا في تلك المرحلة، ليس مقبولا بعد مضي أكثر من أربعة عقود، وخصوصا أن كثيرا من النظريات تبلورت وأفل نجمها في فترات أقل من ذلك بكثير . إضافة إلى أن تاريخ السميولوجيا ممتد في عمق التراث الإنساني.

(١) السابق، الصفحة ذاتها.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة: حميد لحميداني وآخرين، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٧. ص. ١٥.
(٤) السابق. ص. ١٨.
(5) Barthes, Roland: Elements of Semiology, translated by Annette Lavers & Colin Smith, Hill & Wang, New York, 1977. p. 9.
(٦) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ص. ١٧.
(٧) كريستيفا، جوليا: علم النص. ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٧. ص. ١٩.
(8) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language, p. 92.
(٩) من هذه على سبيل المثال الشكلانية والبنيوية، فعلى الرغم من انتشارهما الكبير الذي طغى على العالم، إلا أنهما ما لبثتا أن انحسرتا بسرعة.

يناقش رشيد بن مالك[١] ما طرحته آن إينو في كتابها سالف الذكر، فيخالفها في مسألة التأريخ، وإن اتفق معها في أن السميولوجيا مشروع بحث في طور الإنجاز. فالتأريخ للسميولوجيا «ضروري لموضعتها في سياقها التاريخي، وضبط معالمها الأساسية والكشف عن النظريات التي مهدت لظهورها»[٢]، كما أنه ضروري للقارئ أيضا، فبدون التأريخ سيجد «مشقة كبيرة في استساغة هذه النصوص السميولوجية التي تكاد تكون معقدة في قراءتها حتى على المتخصصين»[٣]. وهذا ما يؤكده واقع الدرس السميولوجي في النقد العربي خاصة، حيث نجد شكوى من غموض الكتابات السميولوجية من القراء المتخصصين فضلا عن عامة القراء.

وتجدر الإشارة بدءا، إلى أن هذه الدراسة لن تنصرف إلى رصد شامل للتأريخ السميولوجي، ولا إلى تتبع تفصيلاته، وهو مشروع لا تدعي قدرتها عليه، لكنها ستنصرف إلى تتبع أبرز محطاته، وخصوصا ما كانت حاضرة في الفكر السميولوجي الحديث صراحة أو ضمنا؛ لأن الاشتغالات السميولوجية ممتدة تاريخيا إلى مدى بعيد، وواسعة المادة متشعبة البحث، حتى إنه لا يمكن الإحاطة بها أو بمعظمها في دراسة، والدخول في هذا الحقل قد يجر إلى متاهة ليست وطيدة الصلة بدراستنا.

والباحث حينما يقبل على التأريخ لأي نظرية حديثة، يواجه صعوبات جمة، ذلك أن النظريات الحديثة ليست مبتورة عن تاريخ الفكر الإنساني، مما يبرز عمقا تاريخيا للتأملات والاشتغالات ذات الصلة بالنظرية، والتي تقترب من النظرية الحديثة في كثير من الأحيان، كما يظهر تداخلا مع كثير

(١) مقدّمة في السيميائية السردية. م.س. ص. ٦.
(٢) السابق الصفحة ذاتها.
(٣) السابق الصفحة ذاتها.

من الحقول العلمية المتنوعة. مما يجعل تتبع هذه الاشتغالات والتأملات من الصعوبة بمكان.

أما عندما يقبل الباحث على التأريخ للسميولوجيا خاصة، فإن الصعوبات تتضاعف، ومرد ذلك -إضافة إلى ما ذكر- قلة المصادر المؤرخة لها، وتشابه الأطروحات واختزالها إلا ما ندر، فضلا عن التداخل الكبير للسميولوجيا مع كثير من العلوم في منطلقاتها وموضوعاتها وأدواتها واتجاهاتها، هذا إضافة إلى حداثة النظرية.

وإذا كانت المصادر المؤرخة للسميولوجيا قليلة جدا، فإن الدراسات التي تناولت السميولوجيا لم تُغفِل -في كثير منها- التأريخ لها، وإن كان هناك تباين واضح في تناولها. ففي حين ركزت معظم الدراسات على المفاهيم السميولوجية، التفتت بعض الدراسات إلى التأريخ، وتنوعت في طُرقه وكمّه، وإن اختزلت في غالبها هذه المسألة اختزالاً كبيراً، حتى إنها تأتي على شكل إشارات في مداخل الدراسات ومقدماتها.

لكننا مع ذلك يمكن أن نبني موجزا تاريخيا للسميولوجيا، يتتبع تطورها التاريخي، بالاعتماد على هذه المراجع وتركيبها، بحيث تقدم لنا صورة شبه مكتملة لهذه النظرية.

وقد نهج المشتغلون بالسميولوجيا منهجين في تأريخهم لها، الأول يؤرخ للنظرية، وهو في الأعم ينطلق من أواخر القرن التاسع عشر، والثاني يؤرخ لأصولها وإرهاصاتها. ويعود بعضهم إلى العصور الوسطى، في حين يذهب آخرون إلى أبعد من ذلك مرتدين إلى الفكر اليوناني.

عليه سوف نتناول تاريخ السميولوجيا عبر مسارين: الأول يتتبع تاريخ المصطلح منذ ظهوره أول مرة، وعبر ترحاله بين الحقول المختلفة، على امتداد

تاريخ الفكر الإنساني. والثاني يتتبع النظرية عبر تاريخها وحقولها.

والتأريخ للسميولوجيا يمكن أن يقسم إلى قسمين: الأول يرتد إلى التراث بحثا عن التأملات والاشتغالات السميولوجية في الفكر الإنساني. والثاني يتتبع تاريخ النظرية منذ تبلورها على يدي أبويها المؤسسين، تشارلز سندرس بورس وفردينان دو سوسير.

ومع هذا فإننا سنتناول في هذا المبحث الشق الأول من التأريخ للسميولوجيا، مرجئين الحديث عن الشق الثاني إلى مباحث لاحقة، وذلك تجنبا للتكرار.

١-٢- رحلة المصطلح:

يتجاذب السميولوجيا مصطلحان، الأول السميولوجيا (semiology)، وقد شاع في الثقافة الفرانكفونية، اقتداء برائد السميولوجيا اللسانية، السويسري فردينان دو سوسير، والثاني السيميوطيقا (semiotic)، وقد شاع في الثقافة الإنجلوسكسونية اقتداء برائد السميولوجيا الفلسفية، الأمريكي تشارلز سندرس بورس.

وهما مصطلحان يشتركان في السابقة (semio) ويختلفان، وإن تشابها، في اللاحقة، فالأولى من (tique) الدالة على المعرفة، والثانية من (Logos) الدالة على العلم.

١-٢-١- في التراث:

ليس هذان المصطلحان اللذان ينتميان إلى القرن الماضي، حديثي الولادة مع سوسير وبورس، فهما يرتدان إلى تراث ممتد عبر العصور، وأقصى ما وقفنا عليه من إشارات تاريخية تعود إلى التفكير اليوناني، وعند

أفلاطون خاصة، وإن كان هناك من يتجاوزه إلى السفسطائيين.

ثم ظل هذا المصطلح في تاريخ الفكر منذ ذلك الحين، مترحلا بين العصور والثقافات، إلى أن اجترح منه سوسير وبورس مصطلحيهما في بداية القرن الماضي، وقد ظلَّا جنبا إلى جنب حتَّى وقتنا هذا، على الرغم من المحاولات الكثيرة لفرض أحدهما.

ومصطلح سوسير مجترح من الجذر اليوناني (semion)[١]، كما أشار إلى ذلك بنفسه عندما تنبأ بالسميولوجيا، إلا أنه لم يتجاوز هذه الإشارة في ربطه المصطلح باليونان، دون التفات إلى الحقل الذي بزغ فيه لأول مرة، أو تحديد مفهومه أو مفهوماته التراثية. بل انصرف إلى الحديث عن مفهومه -هو- الخاص، وتقديم تصور لهذا العلم المستقبلي.

غير أن ارتباط هذا المصطلح بالتراث اليوناني لا يقتصر على الجذر اللغوي فقط، وإنما يتعداه إلى الارتباط بعلوم عدة، ولمدة ممتدة، وهذا حمّله حمولة ثريِّة من المفاهيم التي استقاها من تلك الحقول المتنوعة، والعصور المتعاقبة، سواء كانت تراثية أو حديثة.

كل ما ذكر أعلاه، يجعل تتبعنا رحلة المصطلح عبر الزمن والحقول ذا فائدة في الإسهام في استجلاء النظرية الحديثة، محتذين في ذلك نهج أمبرتو إيكو[٢]الذي يرى- كما مر- أن فهمنا المسائل المحيرة فهما أفضل، يستدعي العودة "إلى السياقات التي ظهرت فيها مقولة لأول مرة"، وما يحدث أنه خلال هذه الرحلة في تاريخ هذه المفاهيم، يعترضنا دارسون في

(١) درج كثير من المحدثين في التقليد الغربي على اجتراح المصطلحات من التراث مثلما يستقون مفاهيمهم، وهذا غدا تقنية بحثية عندهم. وفي موضوعنا هذا ينهج بورس هذا النهج، وهو يصرح بذلك عند حديثه عن الفرع الثالث من العلوم السيميوطيقية، إذ يحتذي «بأسلوب كانط- Kant الذي يحتفظ بالإيحاءات القديمة للكلمات حينما يصوغ مصطلحات لمفاهيم جديدة» (بورس، تشارلز: تصنيف العلامات، ترجمة فريال جبوري غزول، ضمن أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة. م. س. ص ١٣٩)، كما يؤكد تأثره بسكوت، وقد دعا نفسه «سكوتيا». انظر: يوسف، أحمد: الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٥. ص. ٣٠.

(٢) السيميائية وفلسفة اللغة. م.س. ص. ٣٢

حقول عدة، في الطب، وفي الرياضيات، وفي العلوم الطبيعية، كما يعترضنا علماء في البلاغة، وخبراء في التنجيم، ومختصون في الرموز والقبالة، ومنظرون في الفنون المرئية، "إلا أن أكثر هؤلاء اعتراضا هم الفلاسفة"[١]؛ لذا يربط رباطًا وثيقًا بين فلسفة اللغة والسميولوجيا، "فقد نظرت فلسفة اللغة- من الرواقيين[٢] إلى كاسيرير، ومن علماء القرون الوسطى إلى فيكو-jamba tisita fikou[٣] من أغسطين- Augustine إلى فيتغنشتاين، في جميع أنظمة العلامات، وبهذا المعنى فقد طرحت مسألة سيميائية في الأصل"[٣]. وهذا يجعل تتبع المصطلح والمفهوم، في التاريخ الفلسفي خاصة، ضرورة لا مناص منها.

هكذا، نجد مصطلح السميولوجيا- ككثير من المصطلحات- ينتمي إلى حقول عدة، ارتحل عبرها قبل أن يصل إلى النظريَّة السميولوجيَّة الحديثة. وقد ظهر بداية عند الإغريق، واشتهر في الحقل الطبي خاصة، ففي "التفكير الإغريقي قد يدل على عرَض(symptome) من الأعراض المرضية ويقال له حينئذ semion"[٥]، وهو الذي يتوصل من خلاله الطبيب إلى تشخيص المرض[٦].

ويشير أمبرتو ايكو إلى أن مصطلح "سيميون" اليوناني ارتبط ارتباطا وثيقا بـ"تيكمريون"[٧]على الرغم من أنه ليس بداية الاشتغال بالعلامة، فهو

(١) السابق، الصفحة ذاتها.

(٢) الرواقيون: أتباع الفيلسوف زينون، ينسبون إلى الرواق مكان اجتماعهم، ومحور فلسفتهم أن كل شيء في الطبيعة يقع بالعقل الكلي، ويقبل مفاعيل القدر طوعا.

(٣) فيلسوف إيطالي ولد وعاش في نابولي، يعد المؤسس الحقيقي لفلسفة التاريخ في الفكر الفلسفي الغربي. عانى الفقر وتجاهل معاصريه، ولم يبدأ الاهتمام به إلا عندما تُرجم إلى اللغة الألمانية لأول مرة عام ١٨٢٢، لكن الذي أحيا فكره في النصف الأول من القرن العشرين هو الفيلسوف الإيطالي بندتو كروتشه الذي أفرد له كتاباً مستقلاً. ثم توالت الدراسات الدقيقة التي سلطت الأضواء على جوانب فكره المختلفة. للمزيد انظر: فلسفة التاريخ عند جامبا تيسيتا فيكو لعطيات محمد أبو السعد، دار الفارابي، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٦.

(٤) السابق. ص ص. ٣٣-٣٤.

(٥) الدلالات المفتوحة، م. س. ص. ٢٠.

(٦) تجدر الإشارة إلى أن مترجمي كتاب سوسير (دروس في اللسانيات العامة) يوسف غازي ومجيد النصر ترجما سيميولوجيا بالإعراضية.

(٧) تترجم بـ(عرضي).

في عهد اليونان يستعمل مصطلحا تقنيا في مدرسة أبيقراط -Ippocrate وفي التفكير "البرمنيدي"[١].

إذن، المصطلح ظهر بدءًا في الحقل الطبيّ، وظلَّ فيه لفترة طويلة، تصل إلى العصر الحديث، خلافًا لبرنار توسان[٢] الذي يرى أنَّ المصطلح اختفى بعد أفلاطون طويلا "ليظهر مجددًا في دراسة جون لوك -John Locke الفيلسوف الإنجليزي الذي عاش بين (١٦٣٢-١٧٠٤)". فقد صنف الفيلسوف الطبيب سِكتوس إمبريكوس -Sektus Emmpiricus في القرن الثاني الميلادي العلامات المستترة. كما ميز الطبيب كلاوديوس جالينوس -Galenos Claudio[٣] في القرن نفسه، بين العلامات العامة التي تدل على أكثر من شيء والعلامات الخاصة التي تدل على شيء محدد[٤]. فهو من أوائل من استعمل مصطلح "سيميوطيقي"[٥]، وذلك في مساهمته ضمن جهود الرواقيين الرائدة في إنشاء مذهب خاص بالعلامات.

وفي نصوص القرن التاسع عشر[٦] يظهر المصطلح -وفق رولان بارت- عند إمبرواز- Amboroise Pare، مثلما يرد «في كتب الطب لبداية القرن التاسع عشر» ، مما يعني أن المصطلح لم يفارق الحقل الطبي طوال تاريخه، وهذا ما دعا ميشيل فوكو- Foucault Michel[٧]، وبارت إلى مناقشة السميولوجيا الطبية من خلال مقارنتها بالسميولوجيا العامة.

(١) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س. ص. ٤٣. و برمنيدي نسبة إلى برمنيدس (Parmenide) فيلسوف يوناني عاش بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وكان لفكره تأثير كبير في الفلسفة اليونانية في عصره.

(٢) ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٣٧. والحقيقة أن تتبع توسان تاريخ المصطلح كان مختزلا وانتقائيا دون مبرر. حيث انطلق من المصطلحية الأفلاطونية (Semiotik)، ورأى أن السميولوجيا اليونانية «لم يكن هدفها إلا تصنيف علامات الفكر لتوجيهها في منطق فلسفي شامل». ثم قفز كما أشرنا إلى جون لوك، قبل أن ينتقل إلى بورس.

(٣) طبيب وفيلسوف يوناني (١٢٩-٢٠٠) عرف بأعماله في التشريح وترجمت إلى لغات عدة، وكانت تدرس إلى عصر النهضة في أوروبا.

(٤) غزول، فريال: علم العلامات (السيميوطيقا)، ضمن: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، ج١ إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦. ص ١٥.

(٥) السيميائية وفلسفة اللغة. ص. ٤٣.

(٦) بارت، رولان: المغامرة السيميولوجية، ترجمة: عبد الرحمن حزل، دار تينمل، مراكش، ط١، ١٩٩٣. ص. ٦٦.

(٧) تناول ميشيل فوكو الدليل الطبي في كتابه (مولد العيادة – Clinic The Birth of the ١٩٦٥)، وتناوله بارت في (المغامرة السيميولوجية ١٩٧٢). وسنتناولهما عند حديثنا عن علاقة السميولوجيا بالطب.

ومع هذا الامتداد التاريخي للمصطلح في الحقل الطبي، إلا أن ذلك لم يمنع بروزه في الحقل الفلسفي واللغوي، في مراحل مختلفة، نجده في مراحله المبكرة عند أفلاطون نفسه الذي اصطنع "المصطلح السابق (semion) ليرادف لديه العلامة اللسانية"[١]، استنادا إلى تشابه العلامات في الحقلين.

وإذا كان أفلاطون يرى تشابها بين النظريتين، فإن أرسطو- وفق سيلفيان أورو- Sylvain Auroux - يفرق بين نظرية العلامة اللسانية ونظرية السيميون، فالعلامة اللسانية تفتقر في نظره إلى القدرة على الاستدلال؛ ولهذا لا حضور لها في القياس من حيث هي: "قول يتضمن بعض الأشياء المعطاة، وينتج من ذلك بالضرورة شيء آخر غير هذه المعطيات انطلاقا من هذه المعطيات نفسها"[٢]، بينما تمتلك السيميون "القدرة التي تؤهلها للانخراط في العمليات الاستدلالية"، وهي وحدها التي تضطلع بدور منطقي، على خلاف العلامة اللسانية التي كثيرا ما شابها الغموض منذ القدم[٣].

ثم يظهر المصطلح مجددا -كما أشار توسان[٤]- في دراسة جون لوك[٥] "باللفظ نفسه الذي ورد عند أفلاطون، وبدلالة مشابهة لما قدمه"، وقد حدده بوصفه "معرفة العلامات"، ومتضمنا في الوقت نفسه "للأفكار الذهنية" وعلامات التواصل "المابين إنساني"[٦].

وفي القرن الثامن عشر يستعمل الفيلسوف الألماني لامبيرت "semiotique"

(١) الدلالات المفتوحة. م.س. ص. ٢٠.

(٢) السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

(٤) ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٣٧.

(٥) يشير تودوروف إلى أن المصطلح لم يظهر إلا مع لوك، انظر: Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 85.

(٦) سشايفر، جان: العلاماتية، ضمن العلاماتية وعلم النص. ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٤. ص. ١٥. وهكذا أوردها المترجم.

بوصفها مرادفة لكلمة "(Logique) منطق"[١]. وربما كان لهذا الاستعمال أثره عند بورس (١٨٧٤-١٩١٤) الذي أكد التطابق بين السميولوجيا والمنطق، فهذا الأخير "بمعناه العام مجرد تسمية أخرى للسيميوطيقا"[٢]. وفي العصر نفسه يجترحه سوسير (١٨٥٧-١٩٢٣)، بوصفه علما مستقبليا سيعتمد على اللسانيات في تحديد مفهومه وموضوعه[٣].

أما بعد سوسير، فإن المصطلح شهد نقاشا واسعا وممتدا إلى وقتنا هذا، وخصوصا فيما يتصل بتوحيد المصطلحين تحت مصطلح واحد، وسوف نتناول فيما يلي أبرز النقاشات التي دارت حوله.

١-٢-٢- المصطلح في النظرية الحديثة:

ترتد السميولوجيا الحديثة- كما ألمعنا سابقا- إلى أصلين رئيسين، هما بورس وسوسير، ولكونهما، وفق كثير من الدارسين، أسسا نظريتيهما كل بمعزل عن الآخر[٤]، فمن الطبيعي ظهور مصطلحين مختلفين، وإن كانا متشابهين، الأول (السميولوجيا)، وهو مرتبط بالتقليد السوسيري، والثاني (السيميوطيقا)، وهو مرتبط بالتقليدِ البورسي[٥]. وما زالا يترددان في الحقل السميولوجي المعاصر، دون أن يقصي أحدهما الآخر.

ومنذ بروز السميولوجيا[٦] في العصر الحديث، بدأ ومازال، نقاش واسع حول هذين المصطلحين، وأسباب اختلافهما، والعلاقة بينهما من حيث

(١) زويست، آرت: التأويل والعلاماتية، ضمن العلاماتية وعلم النص. المرجع السابق. ص.٣٣.
(٢) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٣٥. وانظر تصنيف العلامات لتشارلز بيرس، ترجمة فريال غزول، م. س. ص. ١٣٧.
(٣) ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٣٨.
(٤) هناك من يرى خلاف ذلك، مثل جيرار دولودال الذي يرى أنه من الممكن ومن السهل «أن نجد في سيميائية سوسير بعض المفاهيم الأساسية المرتبطة بسيميوطيقا بورس، هذا على الرغم من اختلاف سياقي السيميائيتين». انظر: دولودال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمن بو علي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١ ٢٠٠٤م. ص.٣٩.
(5) Nöth, W: Handbook of Semiotics, Ed. Indiana University Press, Indiana, 1990. p. 14.
(٦) بعد نبوءة سوسير بمولد السميولوجيا مضى زمن –بحد علمي– خفت فيه صوت المنظرين السميولوجيينحتى جاء رولان بارت الذي يعد باعث هذا العلم. واللافت في النقاشات السميولوجية التشابه الكبير الذي يطرحه المتأخرون حول القضايا المطروحة، وفي الغالب نجد بارت مصدرا أساسيا في هذه النقاشات، سواء كانت الطروحات تسير وفق مفاهيمه أو خلافها.

المنطلق والموضوع والاتجاه، ومن النادر أن نجد دراسة تطرقت للمصطلح إلا أشارت إلى هذا الاختلاف.

وعلى الرغم من كثرة تناول هذا الموضوع، إلا أن جل الطروحات تتشابه فيه. ومرد تشابه المناقشة يعود -فيما يبدو من الإحالات- إلى وحدة المصدر، بحيث يكون موجِّها لكثير من الدارسين، وهذا ينسحب على كثير من المفاهيم السميولوجية. ولعل رولان بارت كان الموجِه الأظهر للرأي الأشهر في هذه المسألة، فتفريقه بين المصطلحين كان حاضرا بقوة عند المشتغلين في السميولوجيا، إما تأييدا أواعتراضا.

و كان بارت قد أشار إلى أن الفرق بين المصطلحين لا يعدو الشكل، والجغرافيا، كما يورد بيير جيرو[١]-Pierre Guiraud محيلا إلى بارت ومقتفيا أثره -أن كلمتي السميولوجيا والسيميوطيقا- "تغطيان نفس الحقل، فالأوروبيون يستخدمون الأولى، والإنجلوسكسونيون يستخدمون الأخيرة". ذلك أن سوسير هو المرجع السميولوجي لمعظم الأوروبيين، بينما بورس هو مرجع السميولوجيا الإنجلوسكسونية.

هذا الرأي نجده عند كثير من السميولوجيين، مثل تودوروف[٢] الذي يورد مصطلحِي "السيميوطيقا" و"السميولوجيا" على سبيل الترادف. وترنس هوكز -Terence Hawkes[٣] الذي نفى أي فرق خارج اللفظ، حيث "تستعمل كلتا اللفظتين (semiotic) و (semiolojy)[٤] للإشارة إلى هذا العلم. والفرق الوحيد بين هاتين اللفظتين أن (semiolojy) مفضلة عند الأوربيين تقديرا لصياغة سوسير لهذه اللفظة بينما يبدو أن الناطقين

(1) Guiraud، Pierr: Semiology، Boston: Routledge & Kegan Paul، 1975، p.2.
ويتبنى جيرو مصطلح السميولوجيا الذي عنون به الكتاب.
(2) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 84.
(٣) هوكز، ترنس: البنيوية وعلم الإشارة، ترجمة مجيد الماشطة، بغداد، ط١، ١٩٩٦، ص. ١١٤
(٤) هكذا يوردها مجيد الماشطة في ترجمته للكتاب انظر. ص. ١١٤.

بالإنجليزية يميلون إلى تفضيل semiotic احتراما للعالم الأمريكي بيرس". وتبعه كثير من الدارسين في أنه "لا يوجد إذن اختلاف جوهري بين الكلمتين"[١]، وإن كان آآرت زويست يرى الاختلاف في التوجه.

ويخص روبرت شولز[٢] Robert Schols مدرسة باريس بمصطلح (السميولوجيا) الذي يراه "طريقة مفيدة لتمييز عملهم عن (السيميوطيقا) العالمية المتبعة في أوروبا الشرقية وإيطاليا والولايات المتحدة".

والحقيقة أن الفرق بين السميولوجيا والسيميوطيقا ليس- كما يذهب كثير من الدارسين- فرقًا لفظيًا أو جغرافيًا محضًا، ولكنه أعمق من ذلك بكثير، إنه فرق بين نموذجين سميولوجيين، نستطيع بدءا أن نفترض أنه مفّصل الفروق الجوهرية بين النظرية السوسيرية والبورسية في أصولهما، وموضوعاتهما، وامتداداتهما.

إن القول بترادف اللفظتين لم يكن هو السائد، وإن كان أكثر انتشارا، فهناك من الدراسين من لاحظ وناقش هذه الفروق في وقت مبكر، ومنهم هيلمسليف Hjelmslev Louis الذي يحدد السيميوطيقا بـ"دراسة الإشارات التي تناظر اللغة وتدرس بوصفها (ما وراء السميولوجيا)، وهي الدراسة التي تهتم بالمصطلحية السميولوجية". ويُميّزُ هيلمسليف أيضاً بين السميولوجيا العلمية وغير العلمية، ويحدد السميولوجيا بالدراسة غير العلمية. وبالتالي فإن ما وراء السيميوطيقية العلمية تدرس المصطلحية السميولوجية[٣].

وهذا ما نبه إليه بعض السميولوجيين، حيث ظهرت آراء تؤكد ضمنا أو صراحة وجود فوارق جوهرية بينهما. والملفت أن من أوائل من ميز بين هذين

(١) زويست، آآرت: التأويل والعلاماتية، مرجع سابق. ص. ٣٤.
(٢) شولز، روبرت: السيمياء والتأويل. ص. ٢٤٧.
(3) Hjelmslev، Louis: Prolegomena to a Theory of Language، Madison، University of Wisconsin Press، 1963، p. 120.

المصطلحين رولان بارت نفسه، صاحب الرأي السابق، وإن كان تمييزه بعيدا عن النقاشات التي سادت من بعده، ولم يلق ما لقيه رأيه السابق من النقاش فيما بعد، حيث أرجع في كتابه (المغامرة السيميولوجية) سبب ظهور هذين المصطلحين إلى "تلاقي الخلط بين السيميولوجيات ذات الأصل اللغوي، والسيميولوجيا الطبية؛ لذلك التُمس تعيين السيميولوجيا غير الطبية بمصطلح سيميوطيقا"[١]. لكنه يخالف هذا الرأي الذي يرجع إلى خوف وحيطة لا مبرر لهما فكلمة "سيميولوجيا" بالمعنى ما بعد اللغوي قد رسخت جيدا، في القاموس الثقافي، ومن المجازفة دائما، وعدم الجدوى التراجع عن تداول بعض الكلمات، بعد أن تكون فد دخلت مجال الاستعمال.

والواقع أننا نلمس تنافسا عميقا بين المصطلحين، في وقت مبكر من ظهور السميولوجيا، وربما كان للتنافس الريادي بين الثقافتين دوره في هذا المجال، فالمنطلقات والمفاهيم مختلفة، وإن كانت تدور في حقل واحد. ويبدو أن ذلك كان مطروحا في أثناء وقبل مؤتمر (الجمعية الدولية للسيميوطيقا) بباريس في سنة ١٩٦٩م، ولحل هذه الإشكالية أقرت الجمعية في هذا المؤتمر تسمية (سيميوطيقا) بصفة نهائية، بحيث يغطي جميع المجالات المتاحة للمصطلحين المتنافسين، لكن هذا الإقرار لم يقص استعمال (السميولوجيا).

وعلى الرغم من إقرار لفظة (سيميوطيقا) في هذا المؤتمر لتسمية هذا العلم، وفضلا عن إشارة إيكو إلى عدم إقصاء (السميولوجيا)، فقد ظهرت نقاشات واسعة عقب هذا الإقرار. أبرزها ما ألمح إليه الجيرداس غريماس،

(١) زويست، آآرت: التأويل والعلاماتية، مرجع سابق. ص. ٣٤.
(٢) شولز، روبرت: السيمياء والتأويل. ص. ٢٤٧.
(3) Hjelmslev، Louis: Prolegomena to a Theory of Language، Madison، University of Wisconsin Press، 1963، p. 120.
(٤) المغامرة السيميولوجية. م.س. ص. ٦٥.

من رغبة في إبقاء المصطلح الفرنسي، في حوار[١] أجري معه في صحيفة (Le Monde) عام ١٩٧٤م حين قال: "أعتقد أنه لا يجب أن نولي أهمية للنزاعات حول الكلمات في الوقت الذي تنتظرنا فيه أشياء كثيرة. عندما تعلق الأمر منذ ست سنوات (في ١٩٦٨) بإنشاء جمعية دولية، كان ينبغي أن نختار بين المصطلحين. تحت تأثير رومان جاكبسون، وبالاتفاق مع ليفي شتراوس، بنفينست بارث وأنا شخصيا وقع الاختيار على (السيميوطيقا)"[٢].

لكنه وإن وافق- مرغما فيما يبدو- على اختيار هذا المصطلح، ظل ميالا إلى الآخر؛ لذا لم يغفل الإشارة إلى أن لمصطلح السميولوجيا" جذورا عميقة في فرنسا"[٣]. وبالتالي تم الأخذ بتسمية مزدوجة، نافيا أن يكون هناك اختلاف بينهما، مما يشير إلى عدم رغبته في إجابة قاطعة، وإن كان يميل إلى وجود فارق بينهما لا يخرجهما عن حقل واحد شامل. وهذا فيما يبدو ما دفعه -في الحوار نفسه- إلى اقتراح اتباع نصيحة لويس هيلمسليف في التفريق بينهما.

ثم إن غريماس يميز بينهما من خلال تعريف كل واحد على حدة، فـ"السيميوطيقا" تحيل على الفروع؛ أي على دراسة أنظمة العلامات المختلفة. أما "السميولوجيا" فتحيل على الأصول؛ أي على الهيكل النظري للعلم[٤].

ويميز توسان[٥] بين المصطلحين تمييزا منهجيا -مستندا إلى كريستيان ميتز Christian Metz- الذي أوضح أن المصطلحين ظلا لمدة طويلة مترادفين، إلى أن وُضع تمييز منهجي بينهما، لتمثل كل سيميوطيقا بالنسبة

(١) حوار أجراه روجيه بول دروا (Roger-Pol-droit) مع غريماس في الصحيفة الفرنسية (Le Monde) بتاريخ ٧ يونيو ١٩٧٤م.
(٢) أريفيه، ميشيل: السيميائية الأدبية، ضمن: السيميائية، أصولها وقواعدها، ترجمة: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، ٢٠٠٢م. ص. ٦٧.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.
(٤) أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة. م. س. ص. ١٧٣-١٧٤.
(٥) ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٣٨.

إلى الميدان السميولوجي ما يمثله كل لسان بالنسبة إلى لغة. وعليه يطلق (سيميوطيقا) على الدراسات السميولوجية المتخصصة، أي دراسة متن ما، ويعني بمتن وفق التقاليد اللسانية "أرضية التحليل"[١].

لكن هناك من عكس هذا التقسيم ليحدد "مصطلح السيميوطيقا بوصفه مصطلحا عاما للدلالة على الحقل السميولوجي عموما"[٢]. وهذا يتردد كثيرًا عند المتأخرين.

وفرق آخرون بين المصطلحين انطلاقا من موضوعيهما، فالسميولوجيا تدرس الموضوعات اللسانية، بينما تدرس السيميوطيقا الموضوعات غير اللسانية[٣].

ونتيجة هذه النقاشات الواسعة والاختلافات الكبيرة، بقي كلا المصطلحين إلى يومنا هذا في الحقل السميولوجي، بل إن وجود الاثنين في ثقافة واحدة أضحى أمرا مقبولا، كما هوالحال في فرنسا التي أخلصت للمصطلح السوسيري، منذ رولان بارت وتلاميذه، ولكنها أبقت مصطلح السيميوطيقا حاضرا بقوة في ثقافتها[٤].

إن الإشكال المصطلحي على الرغم من بقاء هذين المصطلحين يسيران بخطين متوازيين دون الاتفاق على أحدهما يظل أقل بكثير مما هو عليه في الدرس السميولوجي العربي الذي ترجم المصطلح إلى مصطلحات كثيرة، لا يسندها مثل ما سند هذين المصطلحين من مسوغات، مما أوجد إشكالا كبيرا في التلقي العربي، كما سنرى في فصل لاحق.

(١) السابق. ص. ٥٣.
(2) Handbook of Semiotics. p. 14
(٣) السيميائية الأدبية. م.س. ص. ٧٠.
(٤) نجد مصطلح سيميوطيقا هوالمعتمد في (مدرسة باريس) الشهيرة التي تضم أعلاما من أمثال غريماس وكوكيه وأريفيه.

١-٣- ما وراء النظرية:

ثمة تشابه كبير فيما طرحه النقاد في التأريخ للسميولوجيا، وهو طرح مختزل في أغلب الأحيان، و مع أن صياغة حدود النظرية السميولوجية لم تبدأ إلا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. إلا أننا لا نعدم دارسين حاولوا الغوص فيما وراء النظرية، ولم يكتفوا بالانطلاق من أبوي السميولوجيا، فارتدُّوا إلى التراث ينقِّبون عن التأملات حول العلامة، ويتتبَّعون الاشتغالات السميولوجية، فبرزت أسماء سميولوجية في القرون الوسطى، وأخرى ترجع إلى بدايات القرن الأول، في حين يرجع بعضها وهو أبرزها إلى الفكر اليوناني. على أساس أن "التأمل اللغوي يغطي كل تاريخ الإنسانية"[(١)]، كما يقول تودوروف.

إن التأملات السميولوجية لم تنقطع طوال تاريخ الفكر، ولو قمنا بإعادة قراءة جيدة -كما يقول إيكو-[(٢)] "لأدركنا أن كلا من الفلاسفة الكبار في الماضي (وفي الحاضر) قد قام -على نحو ما- بصياغة سيميائية معينة"، مما يعني أن مسألة العلامة كانت مركزية في اشتغال الفلسفة طوال تاريخها.

إذن، بناء النظرية السميولوجية قديم جدًا، وإن تبلور في هذا العصر، فهو يرتد إلى عصور سحيقة، وبالتالي يتخلل "مشروع بناء علم للسيميائية العصور"[(٣)]. وعليه، يمكننا أن نؤكد بدءًا أنَّ أصول السميولوجيا تعود إلى بداية الفلسفة، وتستمر إلى عصرنا الراهن، لأن جل المذاهب الفكرية قد تناولت هذه المسألة بشكل أو بآخر.

(1) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language. p. 45.

(٢) السيميائية وفلسفة اللغة. م.س. ص. ٣٣

(٣) السابق. ص ص. ٤٤ –٤٥

ولما لم يكن المشروع السميولوجي وليد العصر الحديث، بل قديمًا قدم التأمل اللغوي، فإنه ينبغي ألا يقتصر التأريخ للسميولوجيا على العصر الحديث، وإنما لا بد من العودة إلى بدايات هذا البناء الذي يشكل تراكما مترابطًا، تفضي كلُّ حلقة منه إلى الأخرى.

وإذا كنا ننظر إليه بوصفه تراكمًا، فثمَّة من يذهب إلى أكثر من مجرد التراكم المعرفي، ويؤكد وجود تطابقات "بين المفاهيم المنطقية العتيقة وبين المفاهيم السميولوجية والإناسية واللسانية المعاصرة"[(١)]، محتذيا إيكو[(٢)] في رأيه السابق الذي يرى "أن الفكر الذي نطلق عليه (ما بعد الحداثة) سيبدو في مجمله وكأنه فكر ينتمي إلى الماضي البعيد".

والمتتبع للدراسات المؤصلة للسميولوجيا يلحظ تنوعا واضحًا في مستويات تناول العلامة في التراث، فجاء حينًا على "صورة مجموعة من التلميحات المتناثرة هنا وهناك في خضم نقاشات ذات طابع أشمل"، و"في أحيان أخرى يرد في صورة إشارات صريحة آملين في القيام بدراسة، كما لو أن العمل الذي أنجز إلى حدود تلك الفترة يستدعي إعادة التفكير فيه من زاوية سيميائية"[(٣)].

وكما تنوعت مستويات تناول العلامة عبر العصور، تنوع وصف هذه المستويات بين مجرد إشارات وتلميحات، إلى "نظرية علاماتية ضمنية في التأملات اللسانية التقليدية"[(٤)] كما يصفها سشايفر، أو نظرية سميولوجيا كما يراها إيكو[(٥)] عند الرواقيين[(٦)]، أو عند الإغريق[(٧)] عموما.

(١) حول مبادئ سيميائية. م.س ص. ٥٩.

(٢) التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. م. س. ص. ٢٤.

(٣) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ٤٥.

(٤) سشايفر، جان: العلاماتية، ضمن العلاماتية وعلم النص م. س. ص ١٤

(٥) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س. ص. ٧٦.

(٦) سنتناول الرواقيين بشيء من التفصيل لاحقا..

(٧) السابق. ص. ١٢٠.

و يظهر فيما يتصل بربط النظرية بالأصول التراثية في الحضارات المتنوعة، تباينٌ بيّنٌ في الدراسات الحديثة؛ ففي حين قصرها بعضُهم على التراث اليوناني، ربطها آخرون بحضارات عدة "في الصين كما الهند، وفي اليونان وفي روما"[١]، ورأى آخرون أنه "من العبث" البحث عن الأصل التاريخي للسميولوجيا عند مؤلف بعينه[٢].

ومع انتشار هذه الرؤية الشمولية في التأريخ للسميولوجيا، إلا أننا لا نقف على إشارات للمنجز العربي إلا نادرا[٣]، من ذلك ما قدمه أوزوالد ديكرو في القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان المشترك مع سشايفر[٤]، حيث تتبع في كتابه الاشتغالات حول العلامات عبر التاريخ من العصر اليوناني مرورا بالعربي حتى عصرنا هذا.

(1) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 84

(٢) العلاماتية. م. س. ص. ١٤.

(٣) هذا على الرغم من أن دور العرب الذين تأثروا بمنطق أرسطو من ناحية وبالمدرسة اللغوية السكندرية من ناحية أخرى، غير خفي في نقل المنجز اليوناني. يشير ر. هـ. روبنز إلى الدور الكبير الذي لعبه العرب قائلا: «ومع القرن الرابع عشر كانت اليونانية تدرس بانتظام في عدد من الجامعات الأوروبية، وقد دخل إلى بقية أوروبا الغربية من إسبانيا مقدار كبير من الكتابات الفلسفية اليونانية عن طريق ترجمات وشروح عربية ويهودية. وفي أثناء الاحتلال العربي لإسبانيا كانت طليطلة بوجه خاص مركزا لنقل= الترجمات العربية لأرسطوالى اللغة اللاتينية، وقد عرف الكثير من الفلاسفة السكولاستيين الفلسفة الأرسطية ودرسوها من خلال الترجمات اللاتينية، وليس من خلال لغتها اليونانية الأصلية، وقد ساعدت الشروح التي قام بها العلماء العرب، ساعدت السكولاستيين على فهم فلسفة أرسطو، وابن رشد وابن سينا هما أكثر العلماء العرب شهرة في هذا المجال». (روبنز، روبرت: موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ترجمه أحمد عوض، عالم المعرفة، ٢٢٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٧. ص.١١٩).

كما يشير في موقع آخر إلى أنه في «أثناء العصور الوسطى المتأخرة كانت العربية والعبرية تدرسان في أوروبا، واعتُرف باللغتين كلتيهما رسميا في جامعة باريس في القرن الرابع عشر. وكانت اللغة العربية قد دخلت بقوة مجال اهتمام شعوب البحر المتوسط منذ عدة قرون سابقة، كنتيجة للتوسع السريع للقوة العربية وانتشار الدين الإسلامي في معظم أراضي الشرق الأدنى وشاطئ شمال أفريقيا، وشبه الجزيرة الأيبيرية في القرنين السابع والثامن. وقد كتب روجر بيكون (R. Bacon) قواعد اللغة العبرية وعرف العربية». (السابق. ص. ١٤٩).

وعن تأثر العرب باليونان وبأرسطو خاصة يقول روبنز: «نشأ تنافس مهم بين المدارس الفللجية المختلفة في العالم العربي، ونلمس التأثير الأرسطي خاصة في مدرسة البصرة بوصفه جزءا من التأثير الأوسع للفلسفة اليونانية والعلم اليوناني على المعرفة العربية. وقد شددت مدرسة البصرة على الاطراد الصارم وعلى الطبيعة النظامية للغة بوصفها وسيلة الحديث المنطقي عن عالم الظواهر. وهنا يمكن القول إن أفكار أرسطو عن القياس قد تركت أثرها، وقد أعطت مجموعة من العلماء اللغويين في الكوفة أهمية أكبر للاختلاف في اللغة كما هو موجود بالفعل (...) ولكن من المؤكد أن اللغويين العرب قد طوروا وجهات نظر خاصة بهم في دراستهم النظامية للغتهم، ولم يفرضوا عليها بأي حال النماذج اليونانية مثلما فعل علماء القواعد اللاتين» (السابق. ص ١٥١).

هذه رؤية روبنز المركزة للدور العربي، لكننا لا نجد في كثير من الدراسات المؤرخة للسانية فضلا عن الدراسات السميولوجية ما يشير إلى المنجز العربي، وقد لفت هذا الإغفال انتباه بعض الدارسين العرب مثل عبد السلام المسدي(التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، ط٢، ١٩٨٦). فقد ناقش هذه القضية مبديا استغرابه من تجاهل «ذكر العرب عند التأريخ للتفكير اللساني البشري بما يحدث القطيعة في تسلسل التاريخ الإنساني» (ص ٢٢)، ويشير إلى أن هذه ثغرة في تاريخ اللسانيات، والنتيجة « حصول قطيعة في تسلسل التفكير اللساني عبر الحضارات الإنسانية» ويرى أن «أهل الغرب لوانتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات العامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة لكانت اللسانيات المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم. بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلا بعد أمد» (٢٣) مؤكدا أن هذه الغفلة عن الدور العربي «لا يمكن أن تكون عفوية «، رافضا حجة «جهل المؤرخين للغة العربية « لأنهم لم يغفلوا عن حضارات أخرى لا يعرفون لغاتها، بل وقفوا بالحدس والتخمين على عصور انقرضت لغة الأمم التي عاشت فيها، ويلمح إلى تعصب بعض الدارسين في الغرب مثل جورج مونان –Georges Mounin الذي يشير عند حديثه عن العصر الوسيط في كتابه (تاريخ اللسانيات من مبدئها إلى القرن العشرين) إلى «أن النحاة العرب قد اعتبروا أن لغتهم هي أم كل اللغات الأخرى، لأنها «الجنة على الأرض» ولأنها» لغة الله». (ص ٢٢)

(٤) ترجمة منذر عياشي، جامعة البحرين، ٢٠٠٣.

و بما أن غاية دراستنا لا تتجاوز حدود التعرف إلى المعالم الرئيسة لهذه الأصول والإرهاصات فإننا سنقتصر حديثنا على أبرز المحطات التي كان لها أثر، فيما يبدو، في بناء النظرية عند المحدثين.

١-٣-١ الفكر اليوناني:

إن تأثير الفكر اليوناني كبير جدا في بناء السميولوجيا، وخصوصا عند سوسير وبورس، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، حتى إن هناك من عد «الفلسفة الإغريقية وكيفيات قراءاتها هي حجر الزاوية في البناء السيميائي»[١].

تتعلق المسألة الرئيسة التي أثارها الإغريق بطبيعة اللغة ونشأتها، وقد تركت بصماتها على الدراسات اللغوية اللاحقة حتى عصرنا الحاضر، فأفلاطون ومن تبعه يرون اللغة ظاهرة طبيعية، وأن الكلمات وأصواتها أجزاء من المعاني، بينما يرى أرسطو ومن تبعه أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأن أصواتها رموز عرفية، ليس لها علاقة طبيعية بالمعاني، وقد أفرزت هاتان الرؤيتان نظريتين شهيرتين أطلق على الأولى التوقيفية، وأطلق على الثانية التوفيقية، وقد بقيتا جنبا إلى جنب حتى هذا الوقت.

ومع أن أفلاطون وأرسطو يمثلان الصوتين الرئيسين في ذلك، إلا أن هناك أصواتا أخرى، كان لها أثر بشكل أو بآخر في بناء علم العلامات عند اليونان بمستويات متفاوتة، كالسفسطائيين[٢] والرواقيين والشكيين، إضافة إلى سقراط وتلاميذه.

غير أنه لم يصلنا منجز هؤلاء جميعا بصورة مكتملة، فإذا كانت نظريات

(١) حول مبادئ سيميائية. م.س. ص. ٥٢

(٢) السفسطائية مذهب فكري–فلسفي نشأ في اليونان بداية القرن الخامس وقد ظهر السفسطائيون بوصفهم ممثلين للشعب وحاملين لفكره و حرية منطقه ومذهبه العقلي والتوجه المذكور هذا هو الذي كلفهم كل ما تعرضوا له من هجوم وصل حد التنكيل والنفي والقتل، فقتل أغلب قادتهم وشرد الباقون.

أفلاطون وأرسطو والرواقيين لقيت من العناية- إضافة إلى تأخرها نسبيا- ما أوصلها إلينا شبه مكتملة، فإننا لا نجد رؤى المتقدمين كالسفسطائيين وسقراط إلا من خلال كتابات المتأخرين.

١-٣-١-١ السفسطائيون (٤٦٠ - ٣٩٥ قبل الميلاد):

يُعدُّ السفسطائيون، عند عدد من المؤرخين للسميولوجيا في التقليد الغربي، الانطلاقة الأولى للتأملات اللسانية المنتظمة، فقد أولوا من قبل أهمية عظمى لقضايا العلامة [١].

بيد أن الحديث عن السفسطائيين، في المنجز السميولوجي الحديث، لا يتجاوز -في الغالب- هذه الإشارة، ولم نقف على دراسة تفصل دورهم في بناء السميولوجيا، أو تأثيرهم وتعليماتهم في سميولوجيا العصر الحديث.

لكن حضورهم كان واضحا في محاورة كراتيليوس[٢] Cratylus فقد كانوا الصوت الآخر في المحاورة، ومن خلالها يتبين موقفهم من علاقة الأسماء بالأشياء، وهي محور المحاورة.

ويتضح من خلال المحاورة أنهم يؤمنون بالاصطلاح، وأنهم خلف ظهور هذه المحاورة أصلا. وبما أننا سنتناول هذه المحاورة بشيء من التحليل، فلعل ذلك يقدم الرؤية السفسطائية تقديما مقبولا.

١-٣-١-٢- أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ قبل الميلاد)

يعد أفلاطون سباقا في دراسة العلامة، وقد أعطاه الفلاسفة الأوائل أهمية أكبر مما أعطوا لأرسطو؛ لأن النظرية الأفلاطونية -وفق روبرت

(١) العلاماتية. م. س. ص. ١٤.

(٢) هذه المحاورة كتبت عام ٣٦٠ قبل الميلاد. و تدور حول علاقة الكلمات بالأشياء، بين سقراط الذي يمثل فيما يبدو صوت أفلاطون وهيرموجين، حيث يرى هذا الأخير أنها علاقة اتفاق واصطلاح، بينما يرى سقراط أنها علاقة طبيعية. وقد ترجم المحاورة إلى الإنجليزية وقدم لها وحللها بنيامين جويت (Jowett Benjamin) عام ١٨٧١م، وضمت مع أعمال أفلاطون الكاملة في مجلد واحد، تحت عنوان (The dialogues of Plato Jowett :، Benjamin)، وتحتل المحاورة الصفحات من ١-١٠٦. وستعتمد دراستنا هذه الترجمة في طبعتها ١٩٦٨ المطبوعة في أكسفورد.

روبنز -Robert Henry Robins-[١]"كانت إلى حد ما متاحة بسهولة أكبر من خلال كتابات الأفلاطونيين الجدد في القرن الثالث وما بعده، بخلاف أعمال أرسطو التي لم تكن لتقبل دون كفاح في كل المراكز العلمية" آنذاك.

وإذا كان أفلاطون لقي اهتماما أكثر من أرسطو عند الفلاسفة الأوائل، فإن الأمر انعكس مع الفلاسفة والسميولوجيين الأواخر؛ لذا نجد من السهل الاتصال بمنجز أرسطو من خلال الرؤى المعاصرة بخلاف أفلاطون الذي لا يتجاوز الحديث عن منجزه السميولوجي مجرد الإشارات.

والحقيقة أن هذه الإشارات، على الرغم من محدوديتها، ذات أهمية كبرى، وقد أدَّت دورًا مهما في الدراسات حول العلامة، ويمكن حقا أن نؤكد مع إيكو[٢] أن ما يمكن أن نسميه المثلث السميولوجي نتاج أفلاطوني في الأساس، ويقصد بالمثلث السميولوجي: العبارة والشيء والمدلول التي كانت عناصر أساسية في كل سميولوجيا.

وعلى الرغم من التشابه الظاهر والتأثر الواضح في عناصر هذا المثلث، إلا أنَّ تعريف هذه العناصر يختلف باختلاف السياق الفلسفي، فعند أفلاطون يمثل الشيء "تجربة دنيوية لكنها سريعة الزوال وهي خادعة ولا تستمد "واقعيتها "إلا من تقليدها لواقع موجود ما وراء السموات"[٣]. وهذا -كما هو واضح- مرتبط بفلسفة أفلاطون المثالية.

أولى أفلاطون ضمن فلسفته اهتماما بالغا بالعلامة، وشدد على أن الكلمات تعبر عن الحقائق، وأن للأشياء جواهر ثابتة، ومن ثمّ فإن الصلة بين الدال والمدلول صلة طبيعية.

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. م. س. ص. ١١٩.

(٢) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س. ص. ١١٩.

(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

ومع ذلك لم نقف على دراسة سميولوجية معاصرة تلتفت إلى أفلاطون، وتُجمل منجزه السميولوجي، وهذا دفعنا إلى العودة إلى المصدر الذي تناول فيه أفلاطون هذه المسألة، ونعني به محاورة كراتيليوس، ولا سيما أن "التأملات اللسانية في كراتيليوس تشكل جزءًا لا يتجزأ من هذا التراث[١]" السميولوجي.

لم تلق العلامات عناية خاصة عند أفلاطون إلا في هذه المحاورة، حيث فصّل في مناقشتها من خلال موضوعها الأساسي الأسماء والأشياء، ما يشير إلى أن موضوع العلامات في نظره بغاية الأهمية، وقد عبر عن هذه الأهمية على لسان سقراط في البداية حين قال: "ومعرفة الأسماء هي قسم عظيم من المعرفة"[٢] ثم على لسان كراتيليوس في المحاورة حين قال: "ربما يكون من أهم الموضوعات قاطبة"[٣].

إذن، أفلاطون من أوائل الذين أدركوا أهمية موضوع العلامات، وعالجوها بدقة متناهية، وهذه المحاورة من أقدم ما وصلنا من المنجزات المتخصصة حول العلامات اللسانية وغير اللسانية.

ونحن نحترز بالقول: إنها من أقدم الأعمال التي وصلت إلينا، لأن هناك أعمالًا سابقة لم تصل إلينا، وفي المحاورة نفسها ما يثبت أن هذه القضية كانت مطروحة من قبله، ولعل إسناد أفلاطون المحاورة إلى أستاذه سقراط وآخرين يخالفونه الرأي، أمثال السوفسطائيين بروتوجوراس- Protagoras وإيثيديموس[٤]- Euthydemus أكبر دليل على ذلك.

سعى أفلاطون من خلال هذه المحاورة إلى "دراسة الأسماء والألفاظ

(١) داسكال، مارسيلو: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحميداني وآخرين، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٧و ص. ١٥.
(2) CRATYLUS، p. 41.
(٣) السابق. ص. ٩١.
(٤) السابق. ص. ٤٤

وصواب إطلاقها على ما أطلقت عليه من أشياء أوأفعال بأسلوب علمي"[١]، وكان نتيجة ذلك نظريته في المحاكاة الطبيعية.

بدأ محاورته بالنقاش حول الأسماء إن كانت طبيعية أواصطلاحية واستمر في الحديث عن الأسماء خصوصا متناولا وظائفها وتسمياتها والعلاقة بينها ومسمياتها.

ويقرر بدءًا أن للأشياء الموجودة "ماهيتها المتأصلة والخاصة بها"[٢]، ثم إن هذه الأشياء لها "أسماؤها بالطبيعة"[٣]، أي أن لكل شيء اسما يتضمنه بطبيعته، و"هي مستقلة، وتحمي ماهيتها المتأصلة بها العلاقة التي أوجدتها الطبيعة"[٤]، وبعبارة أخرى: إن إطلاق الأسماء على الأشياء، ينبغي أن يتم وفقا لـ"لطريقة الطبيعية"، أو "الآلة الطبيعية"، لضمان نجاح التسمية.

وهذا لا يترك للعرف العام، إذ "ليس كل إنسان ماهرا في تسمية الأشياء"، ولكنه متروك للمعرفة الخاصة: الماهر، و"الماهر هو ذلك الذي يحرص على الاسم الذي يملكه كل شيء بالطبيعة، وهو الذي يستطيع أن يفصح عن الصور الحقيقية للأشياء بحروف ومقاطع"[٥]، وبما أن لكل شيء ماهية، فإن العلم بماهيته شرط لمحاكاته، إنها مسألة اكتشاف لا اصطلاح، غير أنَّ هذا الاكتشاف ليس صحيحا وصادقا دائما.

و لتوضيح العلاقة الأساسية بين الاسم والمسمى، يشير أفلاطون إلى أن الاسم محاكاة لطبيعة المسمى، والاسم الصحيح -في ضوء هذا الطرح- هو ذلك الذي "يعطي الصورة الحقيقية والصحيحة"، وهذا الرأي يدفع إلى

(١) السابق. ص. ٨٨ و ص١٠١.
(٢) السابق. ص. ٤٤.
(٣) السابق. ص. ٤٨.
(٤) السابق. ص. ٤٤.
(٥) السابق. ص. ٤٩.

طرح التالي: هل الاسم هو ذاته الشيء؟ وإذا كانت العلاقة طبيعية، فهل تؤدي معرفة الاسم إلى معرفة المسمى؟

يُجيب عن السؤال الأول، بعد مناقشة مستفيضة لهذه المسألة بالنفي، منتهيا إلى أن الاسم لا يمكن "أن يكون مطابقًا تماما للشيء"[١]. ويصف هذه الفكرة بالسخيفة، ذلك أنه لن "يكون إنسان قادرا على التمييز بين الأسماء والحقائق"[٢]، ويستند في نفيه القاطع إلى اختلاف درجة التمثيل من جهة، وإلى اختلاف المادة من جهة أخرى.

أما السؤال الثاني، المتصل بتأدية معرفة الاسم إلى معرفة المسمى، فإن أفلاطون ينفيه ويرى أن "الذي يبحث من خلال الأسماء، ويحلل معانيها، يغدو في خطر عظيم في أن يكون مخدوعا"[٣].

وفي معرض تحليله للرأي القائل باعتباطية العلامة أو عرفيتها التي يعتقد بها هرموجينس، حين قال إنه لا يوجد "هناك أي معيار لصواب الأسماء غير الاصطلاح والتوافق"[٤]- يربط أفلاطون بين الاعتباطية والكذب، ويرفض مبدأ النسبية في مجال المعرفة وفي مجال الأخلاق، ويقرر "أن الأسماء يمكن أن تكون صادقة وكاذبة"[٥]، مثلما أنَّ "القضايا صادقة وكاذبة" .

ولا يقصر حديثه على العلامة اللسانية، لكنه حين استطرد في تبيان العلاقة بين الاسم والشيء، راح يقارن بين الأسماء والصور، مشددًا على أن الصور كالأسماء محاكاة للأشياء مع اختلاف الطريقة[٦]، فالاسم الذي

(١) السابق. ص. ٩٧.
(٢) السابق. ص. ٩٧.
(٣) السابق. ص. ١٠١.
(٤) السابق. ص. ٤٢.
(٥) السابق. ص. ٤٣.
(٦) السابق. ص. ٩٤.

يحاكي خصائص مسماه يعد صائبا في إطلاقه، أما الاسم الذي ينسب إلى الشيء ما ليس فيه وما لا يخصه من صفات، فهو اسم خاطئ على إطلاقه، يقول: "المسلك الأول في التسمية، سواء الصور والأسماء، أدعوه صوابا، وعندما يجرى على الأسماء فقط، فهو صدق وصواب. والمسلك الآخر في التسمية غير المتشابهة أدعوه خطأ، وفي حالة الإطلاق على الأسماء أدعوه تزييفا وخطأ"[١].

ويبدو للمتفحص لهذه المحاورة، أن نظرية أفلاطون، فيما يتصل بالعلامة، فسرت تفسيرات غير دقيقة، خصوصا بما يتصل بالعلاقة بين الدال والمدلول، وأنها علاقة طبيعية وضعا، فهذا- فيما يبدو- لم يقل به أفلاطون الذي لا يسلم بالالتئام الطبيعي التام بين الدال والمدلول كتجل في الواقع، لأنه يؤمن بما يسمى (الاعتباط النسبي) في عصرنا الحاضر، والدليل على ذلك أنه يسند وضع الأسماء إلى مشرّعين أوائل، "فليس كلٌّ قادرا على إعطاء الأسماء، إنما يستطيع ذلك صانع الأسماء، وهو المشرع الذي يحتل مكانة نادرة بين المهرة في العالم "[٢].

وهؤلاء المشرعون اختاروا حروفا ومقاطع لتدل على الأشياء المختلفة، مراعين أن تكون طبيعة هذه الحروف والمقاطع المختارة لتسمية شيء من الأشياء محاكية لطبيعة هذا الشيء الذي تسميه ودالة على طبيعته، سعيا للوصول إلى الاسم المثالي[٣].

ثم إنه يفسر طبيعة اختلاف اللغات، وهذا راجع إلى عرف المشرعين، فعلينا أن ندرك "أن المشرعين المختلفين لن يستخدموا المقاطع نفسها،

(١) السابق. ص. ٩٤.
(٢) السابق. ص. ٤٧.
(٣) السابق. ص. ٤٩.

فالحدادون لا يصنعون آلاتهم من الحديد نفسه، وإن صنعوا آلات تؤدي الغرض نفسه"[١].

ومن جهة أخرى، قسم الأسماء إلى مثالية وغير مثالية، والاسم المثالي -بحسب هذه النظرية- هو الذي يدل على طبيعة الشيء الذي يسميه[٢]، مما يدل على أن العرف يتدخل في التسمية، ولو كانت العلاقة طبيعية تامة لأصبحت الأسماء كلها مثالية.

إن القول بأن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة تلاؤم طبيعي، يتعارض مع أساس نظرية أفلاطون، فهو يسعى من خلال هذه النظرية إلى تفردها بالعلمية[٣]، ولا يني يذكّر، من خلال المحاورة، بأن هذه النظرية هي العلمية الوحيدة الممكنة، أما التفسيرات الأخرى المحتملة، فلا يراها مندرجة تحت العلم.

وعليه اعترض على افتراض أن الآلهة "وضعت الأسماء الأولى"، أو أن "الأسماء الأولى وضعتها شعوب أخرى" سابقة لعصره، أو أن "العصور القديمة ألقت على موضوع اللغة حجاباً فلا يمكن معرفة أصلها"[٤].

كما اعترض في المقابل على أنَّ "الأسماء أطلقت عن طريق الاصطلاح الاعتباطي"، وهذا يدل على أن أفلاطون يقف موقفا وسطا بين الرؤية الطبيعية التامة، أو ما كان يطلق عليه التوقيف، ومثالها الرؤية التوقيفية عند المسلمين، المستندة إلى أن الله - سبحانه - هو واضع الأسماء، وبين الاعتباطية، أو ما كان يطلق عليه التوفيق أو الاصطلاح، ومثالها الرؤية التوفيقية عند المسلمين، والرؤية الاعتباطية المعاصرة.

(١) السابق. ص. ٤٨.
(٢) السابق. ص. ٤٨.
(٣) السابق. ص ٨٨. وص١٠١.
(٤) السابق. ص. ٨٩.

وأيا كان الخلاف حول نظرية أفلاطون فإنها كانت منطلقًا لكثير ممن جاؤوا بعده، وأبرزهم أرسطو، وإن كان سلَك مسلكًا مخالفًا تمامًا لما طرحه أفلاطون، فقد بنى عليه الكثير من الأفكار.

١-٣-١-٣- أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد):

إذا كانت أعمال أرسطو "لم تقبل دون كفاح في كل المراكز العلمية "، كما أسلفنا، فإن " مذهب القديس توماس كان حاسما في جعل أرسطو هو الفيلسوف المسيطر في التفكير المسيحي للعصور الوسطى"[١].

إن أفكار أرسطو وتأملاته السميولوجية- كما هو الشأن مع أعمال أفلاطون- يمكن أن تجمع من إشارات وأقوال متناثرة، ترد في كثير من الأحيان بشكل عرضي وفي سياقات متنوعة. ومع ذلك فإن حدود علم اللغة الأرسطي- كما يقول روبرت روبنز[٢]- حدود واضحة تماما، ويمكن النظر إلى ما قام به أرسطو على أنه تطوير متميز للافتراضات التي توصل إليها أفلاطون.

تناول أرسطو العلامات من خلال دراسته الكلام والأفكار والأشياء والاسم والفعل والقول والعبارات البسيطة والعبارات المركبة، وكان يطابق بين الفكرة والمعنى أو بين المعنى والجوهر، و"عليه فقد أحدث تحولا كبيرا في مسار التفكير الفلسفي عندما استبدل فكرة المثل العليا لأفلاطون بفكرة "المفهوم"[٣].

بسط أرسطو "فكرة ما نسميه بالمثلث السميولوجي: الصوت والرمز والشيء"[٤]، مستفيدا ممن سبقه، وإن كان تناوله أكثر عمقا وتحليلا.

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. م. س. ص. ١١٩.
(٢) السابق. ص. ٣٥.
(٣) الدلالات المفتوحة. م. س. ص. ٢١. ومن الواضح ان المؤلف يقصد العكس أي استبدال فكرة المفهوم بفكرة المثل العليا.
(٤) السابق، الصفحة ذاتها.

ويعد هذا التقسيم من التقسيمات المهمة في السميولوجيا المعاصرة؛ حيث رأى أن " الكلمات الملفوظة رموز لخبرات عقلية والكلمات المكتوبة رموز للكلمات الملفوظة وكما تختلف الكتابة بين الناس تختلف أصوات الكلام، لكن الخبرات العقلية التي تنقلها هذه الرموز متماثلة عند الجميع، ومثلها الأشياء التي تمثلها هذه الخبرات"[١].

وبناء عليه فإن تناول أرسطو للعلامة وعلاقاتها الداخلية يركز على عناصر أربعة، هي: الكتابة واللفظ والمعنى والموضوع. نتبين من خلال مناقشته إياها أن العلاقة بينها تأخذ شكلين رئيسين: الأول علاقة اعتباط، والثاني علاقة مطابقة؛ فتشمل الأولى العلاقة بين الكتابة واللفظ، والعلاقة بين اللفظ والحالة النفسية. في حين تشمل الثانية العلاقة بين حالات النفس بين البشر وكذلك الأشياء.

وإذا كان هذا التقسيم ما يزال مطروحا في السميولوجيا الحديثة مع اختلاف التسميات، فإننا نجد كثيرا من المفاهيم الأرسطية حاضرة في السميولوجيا المعاصرة، من ذلك حديثه عن تنوع الألفاظ الذي يمكن أن يعد منطلق فكرة عرفية اللغة، وبالتالي أساس مبدأ الاعتباطية في العلامة، عندما يقرر أن «الألفاظ ليست واحدة بعينها عند جميع الأمم»[٢]. وهو الرأي الذي خالف فيه أفلاطون وفتح آفاقا للدرس اللغوي.

ويؤكد أرسطو أن الكلمات والحروف «هي بلا شك وقبل كل شيء «سيمياء» أي علامات للمعاني التي في النفس»[٣]، وقد أتى على إيراد لفظ «علامة» وإن كانت تختلف عن العلامة المعاصرة، في كتاب الخطابة، حيث

(1) Todorov، Tzvetan: Theories of The symbol، translated by Catherine Porter، cornell university press، New york، 1982، p. 16.

(٢) السيميائيات وفلسفة اللغة. م. س. ص. ٧٢.

(٣) السابق. ص. ٧٣.

يقول: «وقد يؤتى بالتفكيرات من الصادقات... ومن العلامات»[١].

فرق أرسطو بين الاسم (anoma) بوصفه علامة بسيطة تدل بالمواضعة على شيء معين، والفعل (rema) الذي تكتسب به العلامة طابع الإحالة الزمنية... (logos) وهي علامة ترادف الجملة أوالخطاب وتتضمن أبعاده"[٢].

ومن جهة أخرى قسم العلامات إلى صنفين[٣]:

الصنف الأول من العلامات خصص له اسما هو "تكميريون" بمعنى "الدليل"، ويمكن أن نترجمه "بعلامة ضرورية": "من لديه حمى فهو مريض"، و"من لديها حليب فهي قد ولدت"، فالعلامة الضرورية يمكن أن تترجم في الحكم الكلي كما يلي: "جميع من لديهم حمى هم مرضى"، وهذه لا تقوم على علاقة معادلة (تشارطية)، حيث يمكن وجود شخص مريض دون أن تكون لديه حمى، مثل المريض بقرحة في المعدة.

الصنف الثاني: لم يخصصه أرسطو باسم، ويمكن أن نشير إليه على أنه "علامة ضعيفة" من قبيل: "إن كان تنفسه مضطربا فلديه إذن حمى"، وهذا الاستنتاج ظنّي؛ لأنه يمكن أن يكون نفسه مضطربا من جرّاء العدو، ومع ذلك لا يقصي أرسطو العلامات الضعيفة من المجال الخطابي، بل إنها "مقبولة خطابيا" كالعلامات الضرورية.

ويرى محمد مفتاح[٤] أن جوهر المربع السميولوجي الذي اقترحه بلانشو، موجود لدى أرسطو، فيما يدعى بـ"التقابلات" التي تنتج عنها علائق متعددة؛ هي علاقة التضاد، وعلاقة التناقض، وعلاقة التداخل في

(١) السابق. ص. ٧٤، وانظر: الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩. ص. ١٤.

(٢) الدلالات المفتوحة. م. س. ص. ٢٢.

(٣) السيميائيات وفلسفة اللغة. م. س. ص. ٧٥.

(٤) حول مبادئ سيميائية. م.س. ص. ٥٥

الإثبات، أو في النفي، وعلاقة شبه التضاد، و يحايث هذه العلائق مبدأ عدم التناقض، ومبدأ الثالث المرفوع مما يؤدي إلى مبدأ الحفاظ على الهوية وإلى منطق "إما وإما".

لقد كانت مقولات أرسطو منطلق التفكير السميولوجي لدى الإغريق، وخصوصا أنه استوحى هذه المبادئ من خصائص اللغة اليونانية، كما أشار إلى ذلك كل من إيميل بنفيست وأمبرتو إيكو[١]، بل إنها -كما سنرى لاحقا- لم تقتصر على الإغريق، وإنما امتدت عبر التاريخ السميولوجي كله، وإن كان يطرأ عليها بعض التعديلات من عصر إلى آخر.

ومع هذا الامتداد لتأثير أرسطو الا أن أكثر المتأثرين به هم الرواقيون الذين طوروا كثيرا من الأفكار الأفلاطونية والأرسطية، وكانت منطلقا لمن تلاهم.

١-٣-١-٤- الرواقيون Stoics:

تعد المدرسة الرواقية من أبرز المدارس الفلسفية التي ظهرت في أثينا بعد أرسطو، أسسها زينون- Zinon حوالي (٣٠٠ ق. م)، وعملت "في عدد من المجالات التي عمل بها أرسطو، ولكنهم في بعض نواحي الفلسفة والبلاغة كانت لهم مناهجهم وأفكارهم الخاصة"[٢].

وإذا كان هناك من يرى أن التأملات حول العلامة بدأت مع أفلاطون أو قبله، فإن إنشاء مذهب خاص حول العلامة – في رأي كثير من السميولوجيين تشكل مع الرواقيين، ويمكن القول مع بروشار "بأن المنطق الرواقي قائم على أساس نظرية العلامات ولا سيما في نظرية البرهان"[٣]، وهذا السبق

(١) يوسف، أحمد: السيميائيات الواصفة، المنطق السيميائي وجبر العلامات، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الجزائر، ط١، ٢٠٠٥م. ص. ٢٢.
(٢) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. م. س. ص. ٣٦.
(٣) السيميائيات الواصفة. م. س. ص. ٣٦.

جعلهم مرجعا لمن جاؤوا من بعدهم، "ومنذ ذلك الحين، كلما تطرق باحث في تاريخ الفكر الغربي إلى فكرة علم سيميائي مهما كان الاسم الذي وضع له إلا وعرفه على أنه نظرية العلامات"[١].

كان للرواقيين من خلال مناقشاتهم مع مخالفيهم منجز ثري في الحقل السميولوجي، إلا أن ما وصل إلينا كان من خلال خصومهم، وقد تناول إيكو[٢] منجزهم مشيرا إلى أن سكتوس إمبيريكوس "مع كثرة شهاداته عن الرواقيين كان قليل التسامح معهم حتى إنه يبدو أنه لا يفهمهم فهما صحيحا".

ويرى روبنز أن علم اللغة أحرز في ظل الرواقيين "منزلة واضحة داخل الإطار العام للفلسفة، فقد عولجت المسائل اللغوية بشكل واضح في أعمال مستقلة خصصت للجوانب اللغوية، كما عولجت بطريقة منظمة"[٣].

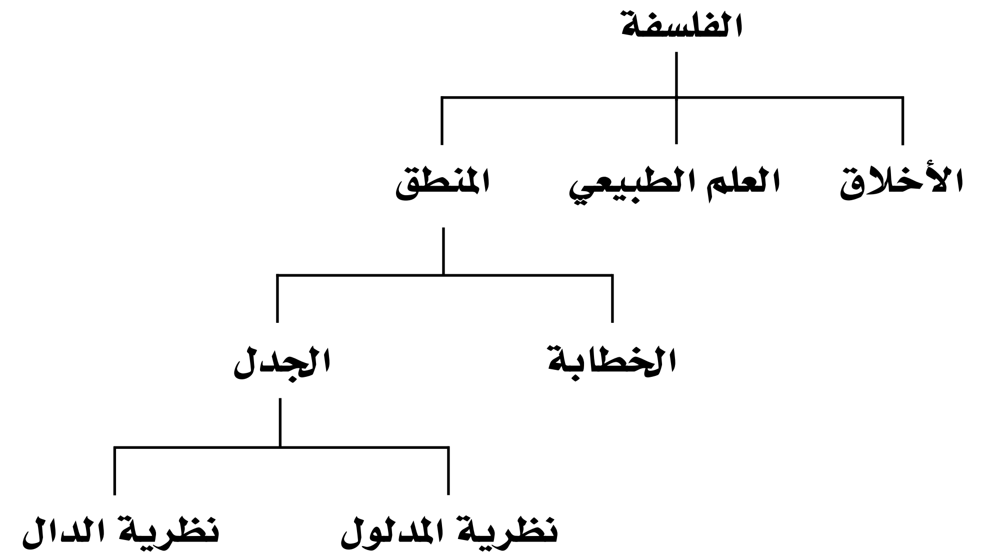
أما وضع اللغة في النظام الرواقي فيمكن إجماله في ثلاثة شواهد: في البداية يأتي الانطباع، وبعد ذلك يعبر العقل بالكلمات، مستفيدا من الكلام عن التجربة الناشئة عن الانطباع، و"كل الأشياء يمكن إدراكها من خلال الدراسة الجدلية" و"معظم الناس متفقون على أنه من الصحيح أن نبدأ دراسة الجدل من جزئه ذاك الذي يبحث في الكلام".

ولا يقتصر دور الرواقيين على الريادة فحسب، بل استمر أثرهم في توجيه البحث حول العلامة لقرون، وبفضل إسهاماتهم ظل نسق العلامات "في العالم الغربي ثلاثيا" حتى القرن السابع عشر، "واعتبارا من القرن السابع عشر، بالمقابل، فإن ترتيب الشارات سيصبح ثنائيا" أما في "عصر

(١) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ٤٣. ويحيل إيكو إلى كل من جاكبسون، وألين ري، وسيبيوك، وتودوروف.
(٢) السابق. ص. ٧٨.
(٣) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. م. س. ص. ٣٦.

النهضة فإن التنظيم مختلف وأكثر تعقيدا بكثير، إنه ثلاثي لكنه يلجأ للمجال الشكلي للعلامات"[١].

قسم الرواقيون الفلسفة إلى الأخلاق والعالم الطبيعي والمنطق، وقسموا المنطق إلى البلاغة والجدل، والجدل إلى نظريتي المدلول والدال. ويبدو المنطق الرواقي "منذ الوهلة الأولى بأنه ذو مواصفات سميولوجية، كما أنه يستقي جدته إذا سلمنا سلفا أن له بعض الجدة من كونها تربط تصوره بالتصور الفلسفي العام"[٢].



إن تميز الفلسفة الرواقية يعود في نظر بعض الدارسين[٣] إلى تفردها في ضم المنطق إلى مباحث اللغة والدلالة، ولهذا كله كانت سباقة في تاريخ الفكر السميولوجي القديم.

(١) فوكو، ميشيل: الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي وآخرين، مركز الإنماء القومي، رأس بيروت، ١٩٩٠. ص. ٥٧.
(٢) السيميائيات الواصفة. م. س. ص. ٢٦.
(٣) السابق. ص. ٢٨

ويرى بارت[١] -في معرض حديثه عن المدلول- أن "من الأفضل اقتفاء تحليل الرواقيين" لفهم الصورة النفسية للمدلول عند سوسير، بدلا من الاعتقاد بأنه الشيء، وأشار إلى أن الرواقيين يميزون بعناية بين التمثل النفسي والشيء الواقعي واللفظ.

لقد صاغ الرواقيون ثنائية الصيغة والمعنى مميزين في اللغة بين "الدالّ" و"المدلول" اللذين يذكّراننا، بشكل لافت للنظر، باصطلاحي دو سوسير "الدال signifiant والمدلول signifie". أما النصوص المرتبطة بالموضوع فيصعب تفسيرها، "ولكن يبدو أن المدلول لم يكن كله صورة ذهنية، بل كان شيئا ما في ذهن المتكلم والمستمع يقابل نطقا معينا في اللغة، وهذا يشبه إلى حد ما توحيد سوسير للصوت والفكرة عن طريق اللغة"[٢].

يتناول إيكو[٣] الرواقيين بكثير من الإعجاب، ويطلق على منجزهم "السميولوجيا الرواقية"، واصفا إياها بالمفصلة جدا، وأنها درست الثلاثية الأفلاطونية "بدقة نظرية قلّما وجدت لدى تلاميذهم المعاصرين".

وقد ناقش مفهومهم للعلامة، وربط في كثير من الأحيان بين نظريتهم -كما يصفها- وكثير من المفاهيم السميولوجية المعاصرة، عند أبرز الأعلام السميولوجيين، كسوسير وهلمسليف ولوتمان وغيرهم.

مفهوم العلامة عند الرواقيين:

تتكون العلامة "من ثلاثة عناصر مترابطة، هي الشيء المدلول عليه، والشيء الدال، والشيء المرجع، فالدال يمثّل الصوت المتلفظ به، والمدلول الشيء المقصود في الذهن، والشيء المرجع هو الواقع الخارجي". وقد ميَّزوا

(1) Elements of semiology. p. 43.
(٢) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. م. س. ص ص. ٣٦-٣٧.
(٣) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ٧٦.

طرفًا بأهمية خاصة هو "المدلول" الذي يستقل بمفرده بعدم ماديته، "إنه الهوية المقصودة بالدلالة (Leckton The) وهي كذلك حقيقة أو زيف"[(١)].

ويميز الرواقيون بوضوح بين "العبارة" و"المضمون" و"المرجع"، "ويبدو أنهم نقلوا الثلاثية التي أوحى بها أفلاطون وأرسطو ولكنهم درسوها بدقة نظرية"[(٢)].

ونلفي في ثنايا تأملاتهم تشابها مع الرؤية السميولوجية المعاصرة، ونتيجة بروز أوجه الشبه بين السميولوجيتين، سعى إيكو إلى الربط بينهما، متتبعا أبرز المفاهيم التي كان له أثر كبير في النظرية الحديثة، ففي تمييزهم بين الدال والمدلول (الصوت والمضمون) ربطوا بينهما مثل ارتباط وجهين بشيء واحد، تماما مثلما شبه سوسير "العلامة بشيء ذي وجهين"[(٣)].

وهم "عندما يتحدثون عن العلامة يبدو أنهم يشيرون إلى شيء واضح بصفة مباشرة يؤدي إلى استنتاج وجود شيء غير واضح مباشرة"[(٤)]، وهذا يذكرنا بتعريف بورس ومن تبعه للعلامة.

وفيما يتعلق بمسألة "القاعدة التعالقية"، فقد ذهبوا فيها أبعد من سابقيهم، وميزوا الطبيعة "المؤقتة" وغير المستقرة للوظيفة السميولوجية (يمكن للمضمون نفسه أن يكون كلمة بتعبير في لغة مختلفة)[(٥)]، إضافة إلى تجريدهم "علم الدلالة من الصبغة النفسية ولهذا يمكن ترجمة لفظ (سيماينومن) على أنه "مضمون" بالمعنى اليلمسلافي"[(٦)].

(1) Theories of The symbol. p. 19.

(٢) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س. ص.٧٦.

(٣) السابق. ص. ٧٦.

(٤) السابق. ص. ٧٩.

(٥) السابق. ص. ٧٧.

(٦) السابق. ص. ٧٩.

ويُلمح إيكو إلى ريادة الرواقيين فيما يتصل بالسميولوجيا غير اللغوية، ففي سميولوجيتهم "تلتحم بالقوة نظرية اللغة بنظرية العلامات"، أما فيما يتصل بتميز العلامة اللغوية على غيرها، فيؤكدون – وفق إيكو- أنه "لكي توجد علامات يجب أن توجد قضايا والقضايا يجب أن تنظم داخل تركيب منطقي يعكسه التركيب اللغوي ويجعله ممكنا "، وفي هذه العبارة الأخيرة نجد تلاقيا مع الرؤية السوسيرية وأتباعها، كبارت وغيره من السميولوجيين في تفضيلهم السميولوجيا اللغوية على غيرها.

ولم يقف الرواقيون عند هذا الحد، بل إنهم كانوا سباقين أيضا إلى القول بنظام نمذجة اللغة الذي" يتم أيضا التعبير بواسطته عن الأنظمة الأخرى" ، فعلاوة على أنها أفضل الأنظمة السميولوجية وأكثرها قابلية للتحليل، فإنها فوق ذلك "النظام الذي بإمكانه أن يُنمذج جميع الأنظمة الأخرى، محولًا أي سميولوجيا أخرى إلى مستوى مضمونه، ليظهر أنموذج العلامة اللغوية تدريجيا على أنه الأنموذج السيميائي الأعلى" . وهو من المفاهيم الشهيرة التي نادى بها لوتمان- Lotman في العصر الحديث.

هذا المنجز الرواقي خاصة، واليوناني عامة، غدا فيما بعد الأصل الذي تمتح منه القرون الوسطى لبناء أفكارها، فقد سقاها هذا الفكر القديم فيما بعد بأفكار متقدمة حول اللسان، وهي بدورها سقت النظرية الحديثة، مما كان له كبير الأثر في بناء السميولوجيا.

١-٣-٢- الفكر العربي:

سيقتصر الحديث هنا عن التأريخ للمنجز العربي السميولوجي على

السابق. ص. ٨١.

السابق، الصفحة ذاتها.

السابق. ص. ٨٥.

وجهة النظر الغربية، دون التطرق للرؤية العربية المعاصرة، انطلاقا من طبيعة الدراسة التي تتناول النظرية في مظانها.

والحقيقة أنَّ المنجز العربي المتصل باللسانيات عموما والسميولوجيا خصوصا، لم ينل حظَّه في التاريخ الغربي، كما سبق أن أشرنا[١]، إلا أننا لا نعدم دارسين، وهم قلَّة، التفتوا إلى المنجز العربي بإجمال، دون الخوض في التفاصيل.

من هؤلاء أوزوالد ديكرو وجان سشايفر[٢] في كتابهما المشترك (القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان) اللذان تناولا بإيجاز الإسهام العربي، مشيرين إلى أن البحوث حول اللسان بدأت في العالم الإسلامي في وقت مبكر جدا، ويؤرخان لهذه البداية مع كتاب سيبويه (القرن الثامن الميلادي)، وتستمر إلى القرن الخامس عشر، مع وجود نشاط متميز في القرن الثاني عشر.

كان منطلق البحوث العربية اللغة العربية وخصوصا لغة الشعر الجاهلي التي نزل بها القرآن الكريم، بهدف الحفاظ على هذه اللغة نقيَّة، وتقريبها للشعوب المسلمة غير العربية، ومع ذلك يؤكد الدارسان أن العرب قدموا نظرية عامة للسان.

يتناول الكتاب بإعجاب تركيز الدراسات الإسلامية على الكلام، مرجعا السبب إلى أن موضوع الدرس اللغوي الأساس هو القرآن الكريم الذي لا يمكن فصله بوصفه كلاما يرسله الله إلى البشر، عن دراسته لغويا.

وينبِّه المؤلفان إلى أنَّ الدراسات العربية لم تتوقف عند الجملة، بل تجاوزتها إلى الخطاب، كما أن المناقشات حول اللسان لم تكن موضوع بحث

(١) انظر: ص ٣٨.
(٢) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، م س. ص. ١٥٠.

للقواعد بالمعنى الضيق، بل اتسعت لتشمل دراسات أخرى، كالدراسات الفقهية والبلاغية، وهذا يصلها بالسميولوجيا.

ويختمان حديثهما عن الدور العربي بتأكيد أن "عندهم نظرية كاملة لأفعال اللسان"[١]، ويريان أنها "تطورت عبر مراحل موازية لتلك التي عرفتها النظرية الحديثة"[٢].

١-٣-٣- القرون الوسطى:

يطلق مصطلح (القرون الوسطى) لوصف وتمييز الفترة التاريخية الأوروبية ما بين تفكك الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الخامس، وسلسلة الوقائع والتغيرات الثقافية التي عرفت بعصر النهضة، واعتبرت بشكل عام مرحلة بداية للعصر الحديث.

ويقسم الدارسون هذه العصور إلى قسمين: الأول يمتد من أواخر القرن الخامس حتى أواخر القرن الحادي عشر، والثاني يمتد من القرن الثاني عشر إلى عصر النهضة.

وفي تأريخنا للسميولوجيا يبدو الجزء الثاني من هذه العصور الأكثر أهمية، وهو الجزء الأهم للدراسات اللغوية، عصر الفلسفة السكولاستية التي حظيت فيها الدراسات حول اللسان بمكانة مهمة وكثرت فيه المؤلفات[٣].

والظاهر أن الحديث عن السميولوجيا في القرون الوسطى- كما هو الشأن في العصور التي سبقتها- ليس حديثا عن نظرية، أو علم مضبوط الحدود، فهو حديث عن حقل متشابك ومتداخل المعالجات، ومنجزه السميولوجي يدور في الغالب حول مفهوم العلامة، وطبيعتها، ووظيفتها، وتصنيفها.

(١) السابق. الصفحة ذاتها.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. م. س. ص. ١١٤.

ومع ذلك، سنجد إنجازات مهمة، كان لها أثر كبير في تبلور النظرية السميولوجية الحديثة، وهو أثرٌ لم يَخف عن السميولوجيين المعاصرين، مثلما أنه لم يُخف من الرواد، وخصوصا بورس الذي صرح بهذا التأثر، عندما أشار إلى أنه "كان متأثرًا إلى حد كبير بمفكري العصر الوسيط، وبالذات "دونز سكوت" بهذا الخصوص، حتى إنه دعا نفسه "سكوتيا""[١].

هذه الإنجازات في الواقع امتداد لما أنجز في العصر اليوناني، إن لم يكن إعادة صياغته من جديد؛ لذا يتكرر حضور أفلاطون وأرسطو والرواقيين بشكل لافت، ما دعا جون ماجي[٢] -Magee John- إلى التأكيد أن التعليقات على فصل أرسطو التمهيدي عن التفسير خاصة، كان "نقطة البداية المشتركة عملياً لكل نظريات القرون الوسطى لدراسة العلامات اللغوية".

اعتمد فلاسفة القرون الوسطى المتأخرون، في تطوير نظرياتهم السميولوجية، على منجز فلسفي قديم، تلقوه من بعض الفلاسفة مثل أوغسطين وبوثيوس-Boethius- اللذين وصلا فلاسفة القرون الوسطى باليونان.

١-٣-٣-١- أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠):

يُعد أوغسطين الفيلسوف الأبرز في مصادر هذه المرحلة، إذ طور مذهبه الجدلي، وهو الأكثر أهمية في النظريات القديمة. بل إن مذهبه ينظر إليه بصفته مفِّصلا في تاريخ السميولوجيا، حيث غدت تعاليمه أساسا في تطويرِ سميولوجيا القرون الوسطى، وربما شكلت النظريةَ الأبرز للعلامات حتى القرن الثالث عشر.

(١) الدلالات المفتوحة. م. س. ص ٣٠.

(2) Magee، John: Boethius on signification and mind، Brill، Leiden، 1989، p 8.

أفاد أوغسطين من الرواقيين بشكل خاص، فاستثمر مصطلحاتهم واستقى كثيرا من مفاهيمهم، وإن اختلف عنهم في بعض المفاهيم وخصوصا مفهوم العلامة، كما أضاف بعض المفاهيم الجديدة، وقدم بعض الحلول لمسائل توقف عندها الرواقيون.

ويعزو بعض الدارسين[١] شرف تأسيس السميولوجيا إلى أوغسطين، وخصوصا "تمييزه بين العلامات الطبيعية والعلامات التواضعية، وكذلك إلى تمييزه بين وظيفة العلامات عند الحيوانات وعند البشر"، وذلك في كتابه (De doctarina christiana). وبذلك يعد من أوائل من حاولوا وضع تصور عام للعلامات يشمل اللغوي وغير اللغوي، وهذا كان له أثر فيما بعد في ظهور السميولوجيا غير اللغوية.

ميز أوغسطين في كتابه (De Magistro)[٢] بين نظرية العلامات ونظرية اللغة، عادًّا العلامات اللغوية صنفا من العلامات العامة التي تشمل- إضافة إلى اللغة- اللافتات والحركات والعلامات الإشارية، وذلك قبل سوسير بستة عشر قرنا.

يقسم أوغسطين[٣] العلامات إلى قسمين رئيسين:

الأول: العلامات الطبيعية، وهي "التي لا تستخدم أصلا لنقل معنى"، ويمثِّل على ذلك بالدخان علامة على النار، أو آثار الحيوانات علامة على مرورها.

الثاني: العلامات الاصطناعية، وهي التي "يستخدمها الإنسان بقصد

(١) العلاماتية. م. س. ص. ١٤.

(٢) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ٨٤.

(٣) للمزيد انظر:

- Augustine: De dialectica، ed. Jan Pinborg، translation with introd. and notes by B. Darrel Jackson، Dordrecht: Reidel. 1975.

- Augustine: De doctrina christiana، in: Sancti Augustini Opera، ed. W. M. Green، CSEL 80، Vienna، 1963.

التوصيل بشكل متفاعل لإيصال أفكاره ومشاعره ومعتقداته وتصوراته". وهذا هو التقسيم الذي شاع فيما بعد في العصور الوسطى والحديثة.

ويصنف هذه العلامات الأخيرة أيضا إلى أصناف كثيرة، منها ما "يَتعلّقُ بحاسة البصرِ، وأخرى بالهيئة، وقليل جداً بالحواس الأخرى"، ولكنها في الأخير تنقسم إلى قسمين رئيسين، هما العلامات اللغوية، والعلامات غير اللغوية.

وقد سبق أوغسطين إلى تفضيل العلامات اللغوية على غير اللغوية، وذلك يرجع إلى أنَّ "كل علامة غير لغوية يمكن الدلالة عليها بالعلامة اللغوية والعكس غير صحيح"، وهذه الرؤية تبدي لنا بجلاء مصدر الرؤية السميولوجية المعاصرة، حيث نجد هذا التفضيل منذ سوسير[١] حتى وقتنا هذا، عند كثير من الدارسين، كما يعيدنا إلى المصدر الأول لهذه الرؤية، وهو التفكير اليوناني الذي سبق الإشارة إليه من قبل.

وإذا كان الرواقيون تركوا مسألة رئيسة في السميولوجيا الحديثة بدون حل، فإن أوغسطين -وفق إيكو- قدَّم لها حلا، ويعني إيكو تمييزه العلاقة بين التعبير اللغوي والمضمون من ناحية، والعلاقة بين القضية والعلامة والمدلول المنجز عنها من ناحية أخرى، فالمستوى الأول يعتمد مرة أخرى على التكافؤ، بينما يقوم المستوى الثاني على الالتزام[٢].

وعلى الرغم من أن ملاحظات أوغسطين لا تعرض مفهوما مكتملا للعلامة، إلا أنه قدم لأول مرة مذهبا عاما للعلامات، يشمل العلامات

(١) بعد مقارنة بين العلامات اللغوية وغير اللغوية، يجعل سوسير اللغة نظاما أسمى لكل الأنظمة السميولوجية، لأنها في نظره "أهم هذه الأنظمة جميعا"، ويلح على أن العلامة لا يمكن أن تكتسب مفهومها خارج المجال أوالنظام اللغوي، وبناء عليه لا يمكن فهم العلامة (أي علامة) دون المرور بالعلامة اللغوية. انظر:

Saussure، Ferdinand de: Course in general linguistics، Translated، with an introduction and notes by Wade Baskin، McGraw–Hill، edition، 1، 1966، p. 16.

(٢) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ٨٤.

الطبيعية والاجتماعية، سواء كانت لغوية أو غير لغوية، وأضحت مفاهيمه منطلقا للتطور الذي حدث في القرون الوسطى، ما حدا ببعض الدارسين إلى وصفها بـ"النظرية الأولى والوحيدة المتقنة للعلامات حتى القرن الثالث عشر"[١].

١-٣-٣-٢- بوثيوس (٤٨٠-٥٢٨):

يمثل بوثيوس المصدر الرئيس الثاني لنظريات القرون الوسطى حول اللسان، وقد اشتهر بنقل منجز أرسطو خاصة حول العلامة، وإن كان "نادرا ما يتكلم عن العلامات بشكل مباشر وواضح"[٢]، ومع ذلك كان فلاسفةَ القرون الوسطى ينظرون إلى منطقَ أرسطو، في بادئ الأمر، من خلال عيون بوثيوس.

بيد أن دور بوثيوس[٣] يتجاوز مجرد نقل منطق أرسطو، إلى مناقشة هذا المنطق، وقد كان لمناقشاته وتعليقاته أثر، ربما يوازي أثر النقل في أعمال من جاؤوا بعده.

ناقش بوثيوس بالتفصيل العلاقات المتبادلة للعناصر الأربعة التي طرحها أرسطو؛ أي المرجع والمفهوم واللفظ والكتابة، وأشار إلى أن وجود كل عنصر مرتبط بسابقه، فدون المرجع ينتفي المفهوم، ودون المفهوم ينتفي اللفظ المنطوق، ودون اللفظ المنطوق ينتفي اللفظ المكتوب، وهذا الترتيب ليس قابلا للعكس.

ومع محدودية المناقشات التي يطرحها بوثيوس، إلا أنها أثارت كثيرا من المسائل فيما بعد، وخصوصا فيما يتصل بالمثلث السميولوجي الشهير،

(١) السابق، الصفحة ذاتها.

(2) Boethius on signification and mind، p. 61.

(٣) السابق. ص.ص. ٦٤-٩٢.

وعلاقة عناصره بعضها ببعض، ولكن الدور الأكبر، كما أشرنا، يعود إلى نقله المنجز الأرسطي إلى دارسي العصور الوسطى.

١-٣-٣-٣- جون بوينسوت Poinsot ١٥٨٩-١٦٤٤:

نشر الفيلسوف الأسباني ج. بوينسوت كتابه (فن المنطق) في عام ١٦٣٢، تناول العلامات في الجزء الثاني منه، وعرض علما مؤسسا للعلامات، وهذا الكتاب كان له أثر كبير في البناء السميولوجي، حتى إن هناك من يعيد إليه فضل اقتراح النظرية السميولوجية، فديكرو يرى أنه اقترح في كتابه المذكور "ما يعد من غير ريب النظرية الأولى للعلامات"[١]، فقد كان مشروعه مخالفا للتقاليد السابقة.

وكان له تأثير تجديدي فيما طرح من قبل حول عناصر العلامة الثلاثية التي تناولها اليونان، وميز بين التمثيل والمعنى، ومنح المعنى خصوصية دون غيره، وهي خصوصية ناجمة عن "كون العلامة لا تستطيع أن تكون بنفسها علامة على الإطلاق، بينما الشيء فيستطيع أن يمثل نفسه بنفسه"[٢].

١-٣-٣-٤- جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤):

في السنة التي قدم فيها بوينسوت أطروحته عن الإشارات (١٦٣٢)، ولد جون لوك، الفيلسوف البريطاني الشهير الذي سيغدو، فيما بعد، علما في وقت لم يعرف فيه عمل سابقه، وسيعلن عن "مذهب العلامات"[٣]، ويعدّه فرعا رئيسا من العلوم، وسيقترن اسمه مع بوينسوت وبورس لاحقا، بوصفهم مؤسسي السميولوجيا الفلسفية. وقل أن تخلو دراسة سميولوجية تاريخية من الإشارة إلى لوك، بوصفه منطلق السميولوجيا في القرن السابع عشر.

(١) العلاماتية. م. س. ص. ١٤.

(٢) السابق. الصفحة ذاتها.

(3) Sebeok, Thomas: Contributions to the doctrine of signs, Indiana University Press, 1976, p. 5.

يرجع إلى لوك الفضل في ظهور مصطلح السميولوجيا، وموضعتها ضمن أقسام العلم الرئيسية، كما يرجع إليه تحديد الألفاظ بوصفها علامات دالة على الأشياء التي تمثلها.

وقد قصر تناوله السميولوجيا على الفصل الأخير من كتابه (مقالة عن الفهم الإنساني)[١]، وهو فصل قصير جدا لا يتجاوز صفحتين، ومع ذلك كان له أثر كبير في تاريخ هذا العلم، ورآه كثير من السميولوجيين المنطلق الحقيقي له.

قسم لوك[٢] العلوم إلى ثلاثة أقسام رئيسة[٣]:

الأول الفلسفة الطبيعية، ويهتم بمعرفة الأشياء في ذاتها، وماهيتها، وقانونها، وحركتها. ويشمل هذا القسم الأرواح وطبيعتها إلى جانب الأجسام.

والقسم الثاني هو الأخلاق العملية، ويهتم بقوانين وإجراءات الأعمال الإنسانية التي توصل إلى السعادة.

أما القسم الثالث فقد أطلق عليه السميولوجيا، أو مذهب العلامات، وهو مرادف للمنطق عنده، ويهتم بطبيعة العلامات وعملها وتوظيف العقل لها لفهم الأشياء، أو لنقل المعرفة للآخرين.

وإذا كان يحسب للوك امتياز التسمية التي جعلت من لفظة (سيميوطيقا)

(1) Locke, John: An essay concerning human understanding, edited with an introduction, critical apparatus and glossary by Peter H. Nidditch, Oxford, Clarendon Press, 1975. p p. 720-721

وهو من أشهر أعمال لوك حيث بسط فيه نظريته حول وظائف العقل في اتصاله بالعالم، معترضا على مذهب الأفكار الفطرية الذي قال به أرسطو وديكارت من بعد الذي يرى أن الأفكار جزء من عقل الإنسان منذ ميلاده، وليست مكتسبة. و نادى بتأمل ملكة الفهم الإنساني التى تكتسب الأفكار من خلال الخبرة، وهي عنده نوعان: داخلية وخارجية. طريق اكتساب الأخيرة الحواس، وطريق اكتساب الأولى العقل.

(2) An essay concerning human understanding, p p. 270-271.

(٣) هذا التقسيم يعيدنا إلى تقسيم الرواقيين للفلسفة حيث قسموها– كما مر معنا سابقا– إلى الأخلاق والعالم الطبيعي والمنطق، وقسموا المنطق إلى البلاغة والجدل، والجدل إلى نظريتي المدلول والدال. (انظر: ص.٥٢، وما يليها من هذه الدراسة).

منتشرة بشكل أكبر من (سميولوجيا)، فإن منجزه السميولوجي المتصل بشمولية السميولوجيا، وهي شمولية ضاربة في العمق الفلسفي اليوناني، يأتي ضمن دوره الرائد في تأسيس هذا العلم.

بيد أن التأثير الأبرز له في البناء السميولوجي يتصل بتأثيره القوي في الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بورس، الذي قرأ الكتاب وتأثر به، وخصوصا الفصل الأخير منه، فقد وجَّه جزءا كبيرا من أعمال بورس وفلسفته.

وهذا الفصل على الرغم من قصره[١]، وضع تعاليمه في صلب التاريخ السميولوجي، ويمكننا أن نستخلص أبرز مساهمات لوك في البناء السميولوجي بالتالي:

١. إطلاق مصطلح (السميولوجيا)[٢] لأول مرة بمفهوم قريب من المفهوم الحديث.

٢. تحديد السميولوجيا بوصفها مرادفة للمنطق.

٣. تعزيز مكانة السميولوجيا بوصفها علم العلوم.

٤. تأثيره المباشر في تشارلز ساندرس بورس الذي استقى منه أبرز خطوط نظريته.

١-٣-٣-٥-جماعة بورت- رويال Port- Royal:

يرى تودوروف أن "اللسانيات الجدية بدأت مع بور رويال"[٣]، وهي

(١) يقول إيكو: "فلا يمكن أن نفهم لوك (Locke) من دون أن نأخذ بعين الاعتبار أن المعرفة الإنسانية بأكملها – كما يقول في الباب الأخير من الدراسة– تتلخص في الفيزياء والأخلاق والسيميائية" (السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ٣٣).
يعيد تودوروف ولادة المصطلح إلى لوك، انظر:

(3) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 8.

(٢) وكذلك فعل سشايفر وأوزوالد اللذين يعيدان إلى لوك ظهور اسم (السميولوجيا)، محددا بوصفه (معرفة بالعلامات) ومتضمنا في الوقت نفسه "للأفكار" الذهنية وعلامات التواصل بين البشر. لكن ذلك ليس محل اتفاق وقد سبق الحديث عن تاريخ المصطلح الذي يضرب في أعماق التاريخ الفلسفي اليوناني.

(3) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 44

جماعة ظهرت في القرن السابع عشر، وكانت تسعى إلى إيجاد قواعد عامة لكل اللغات[١].

وفي عام(١٦٦٠) كتب كلود لانسيلو بالتعاون "مع أنطوان أرلوند كتابا سمَّاه "القواعد العامة والقياسية". شاع فيما بعد باسم "قواعد بور رويال"، وقد هدف إلى الإعلان "عن جملة من المبادئ تخضع لها كل اللغات"[٢].

لكن طرح بور رويال الأبرز في المجال السميولوجي كان في كتاب (المنطق أو فن التفكير للحديث)، وإن كان مستغلًا استغلالًا لا هوتيا كما يشير إلى ذلك ديريدا"[٣] – Jaques Derrida.

خصصت الجماعة الفصل الرابع من هذا الكتاب لتناول نظرية العلامة من حيث علاقة الأفكار والأشياء، وكذا الأفكار والعلامات، مقسمة العلامات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ويقسمه إلى نوعين:

أ. العلامات الأكيدة، مثل: التنفس/ الحياة.

ب. العلامات المحتملة، مثل: الصفرة بوصفها علامة محتملة لحمل النساء.

الثاني: ويقسمه كذلك إلى نوعين:

أ. العلامات المرفقة بالأشياء، مثل: سحنة الوجه التي هي حركات النفس، وهي مرفقة بهذه الحركات التي تدل على الأعراض، وعلامات المرض، وهي مرفقة بهذه الأمراض.

(١) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص. ١٧.
(٢) الدلالات المفتوحة. م. س. ص ص. ٣٥-٣٦.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

ب. العلامات المنفصلة عن الأشياء، مثل: تضحيات القانون القديم/ علامات عيسى المسيح عليه السلام.

الثالث: وينقسم أيضا إلى نوعين:

أ. العلامات الطبيعية التي لا ترتبط بفنتازيا الإنسان، مثل: الصورة في المرآة، إنها علاقة طبيعية للتي تمثلها.

ب. مؤسسة Institution، وهيئة Etablissement، وتتفرع إلى فرعين:

ب١. في علاقة مع الشيء: كلمات/ فكر.

ب٢. لا توجد علاقة مع الشيء: حروف/ كلمات.

إن القسم الثالث من العلامات يتعلق -في نظر سلفيان أورو- باللغة والقدرة التمثيلية للكائن الإنساني كما هي"[١]، وليس خافيا أن القسمين الأولين يقابلان العلامات الطبيعية، بينما يمثل القسم الثالث العلامات الاجتماعية في السميولوجيا المعاصرة.

هذه محطات رئيسة في تاريخ الاشتغالات السميولوجية التي كان لها كبير الأثر في البناء السميولوجي والتي كان يمتح منها كل من بورس وسوسير في تأسيسهما لنظريتيهما.

وليست هذه كلَّ الاشتغالات التراثية، غير أننا اكتفينا بها لبروز أثرها من جهة، وابتعادًا عن التكرار الذي يبدو ظاهرا في تاريخ السميولوجيا، ليس على مستوى الأفكار الرئيسة فحسب، بل على مستوى التفاصيل كذلك، وأظهر مثال على ذلك تكرار التقسيمات والأمثلة بشكل لافت، مما يجعل تناولها لا يضيف فائدة لدراستنا.

(١) الدلالات المفتوحة. م. س. ص. ٣٦- ٣٧.

الفصل الثاني

أعلام السميولوجيا

ليست السميولوجيا إلا منجز السميولوجيين، فهم من أسسها وأسهم في بناء نظريتها؛ لذا يبدو ضروريا الحديث عن أبرزهم، بهدف بسط النظرية وفتح مغاليقها.

هذه الغاية تدفعنا إلى تناول منجز السميولوجيين، بدلا من الاقتصار على ترجمتهم، وعليه فإن تناولهم -هنا- سيركز على المفاهيم والمبادئ التي قدموها، التي كان لها أثر بارز في بناء وشيوع السميولوجيا، وخصوصا ما تجلَّى منها في الدراسات العربية.

وإذا كان بعض الأعلام الغربيين حاضرين في الدرس السميولوجي العربي، مثل سوسير وبورس وبارت، فإن أعلاماً لا يستهان بهم في الدرس السميولوجي الغربي، لم يحظوا بما حظي به سابقوهم من اهتمام؛ لذا غابوا أو غُيِّبوا في الدرس العربي، من أمثال أمبرتو إيكو، وغريماس، وجوليا كريستيفا.

ومع التسليم بأن هناك قصوراً في الدرس العربي من هذا الجانب، فإن هذه الدراسة لا تدعي سد النقص، وإنما الإسهام في ذلك، فأعلام السميولوجيا كثيرون جدا، نتيجة التضخم الهائل للسميولوجيا وموضوعاتها واتجاهاتها؛ مما يجعل مهمة حصرهم بغاية الصعوبة، إن لم تكن مستحيلة، ولاسيما أن هدف دراستنا، لا يعدو بسط النظرية والتعريف بمفاهيمها.

وبناء على ذلك فإن هذه الدراسة ستتناول أبرزهم، وستركز على أبرز إنجازاتهم السميولوجية، غير مغفلة الإشارة إلى لمحات من سيرهم التي قد تكون ذات أثر في بناء مشاريعهم المعرفية، وبالتالي بناء النظرية السميولوجية، علما أننا سنسهب في الحديث عن بعضهم ممن كان أثرهم كبيرا في بناء النظرية السميولوجية ونوجز الحديث عن آخرين أسهموا بقدر أقل من سابقيهم.

٢-١- فردينان دو سوسير (١٨٥٧-١٩١٣):

أولى السميولوجيون في الغرب أهمية خاصة لهذا العَلَم، ليس بوصفه مؤسس اللسانيات الحديثة فحسب، وإنّما بوصفه، عند كثير منهم، المؤسس الحقيقي للسميولوجيا[١]، وإن لم يقدم لها نظرية مكتملة.

ولد سوسير في جنيف عام ١٨٥٧ لعائلة اشتهرت بالعلم، ونشر عام ١٨٧٩، وهو في الحادي والعشرين من عمره، دراسة عن (المصوتات في اللغات الهندو-أوروبية)، ومع أن هذا العمل عدّ من الأعمال الناجحة آنذاك في الدراسات القواعدية الجديدة، إلا أن سوسير تخلى عن الدراسات التاريخية، متحولا إلى الدراسات الوصفية، ومطالبا بتعليق الدراسات التاريخية -التي يراها تفتقد إلى الأساس المتين- حتى يتم بناء الحقل اللساني.

حصل على الدكتوراه عام ١٨٨٠عن أطروحته التي تناولت اللغة السنسكريتية، وفي عام ١٨٨١ انتقل للتدريس في معهد الدروس العليا بباريس، وبقي فيه عشر سنوات، نشر خلالها عدة مقالات في مجلة (Memoires De La Societe des linguists) التي أصبح عام ١٨٨٢ أمين سرها المساعد.

في عام١٨٩١ عاد إلى جنيف، حيث مارس التعليم في جامعتها إلى أن توفي سنة ١٩١٣، ومع أنه كان يدرّس مادة الدراسات اللغوية المقارنة، إلا أن ميله إلى قضايا اللغة، كان واضحا في محاضراته إلى حد كبير.

قدم سلسلة محاضرات في الألسنية العامة، في الفترة ما بين ١٩٠٦ -١٩١١، كوّنت فيما بعد كتابه الشهير (دروس في الألسنية العامة) الذي جمع مواده، بعد وفاته بثلاث سنوات، اثنان من تلاميذه، هما اللسانيان

[١] يعد سوسير المؤسس الأول للسميولوجيا عند كثير من الدارسين، مثل بيير جيرو (Semiology p. 1، Guiraud، Pierr). ومارسيليو داسكال (الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٤). ورولان بارت (Elements of Semiology P. 1،)، وغيرهم.
Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 14

بالي -C. Bally، وسشهاي - Sechehaye، وأصبح له تأثير كبير في الفكر اللساني والسميولوجي فيما بعد.

كان منطلق سوسير في تصوره للسميولوجيا لسانيا؛ فاللسان من جهة أبرز الأنظمة السميولوجية، ومن جهة أخرى فإن الطريق الوحيد لبناء السميولوجيا المستقبلية يعتمد في الأساس على بناء لساني علمي.

أحدث سوسير ما يشبه القطيعة مع الدرس اللساني السابق، وذلك بتفريقه الشهير بين الدراسات التاريخية والدراسات الوصفية، مما حول اللسانيات تحولاً كبيرًا نتج منه ثورة طالت حقولا عدة، وجعلت من اللسانيات بوابة لكثير من النظريات الحديثة، ومنها السميولوجيا التي تربطها بسوسير أواصر قوية.

يتجلى دور سوسير في بناء السميولوجيا من خلال إسهامات عدة، من أبرزها ما يلي:

١. نبوءته بعلم السميولوجيا.
٢. لدراسات التاريخية والدراسات الوصفية.
٣. اللسان والكلام.
٤. دورة الكلام.
٥. العلامة محورًا سميولوجيا.

٢-١-١- نبوءة سوسير:

على الرغم من أن الدراسات السميولوجية، في معظمها، لم تفصّل تفصيلا كبيرا منجز سوسير السميولوجي، إلا أنه من النادر أن تخلو دراسة من الإشارة إلى نبوءته في ظهور هذا العلم، حتى احتلت هذه الإشارة شهرة واسعة، وغدت لازمة تتكرر في جلِّ الدراسات السميولوجية[١].

وكان سوسير قد تنبأ في محاضراته في أوائل القرن العشرين بظهور علم جديد، أطلق عليه (السميولوجيا)، وغدت هذه النبوءة بمثابة إعلان مولد هذا العلم، يقول: "من الممكن تصور علم يدرس العلامات حية في المجتمع، وسيكون جزءًا من علم النفس الاجتماعي، ومن ثم جزءًا من علم النفس العام، وسأطلق عليه: السميولوجيا (من اللفظة اليونانية سيميون "علامة")[٢].

وفي هذه النبوءة حدد سوسير موضوع هذا العلم بالعلامات لغوية وغير لغوية، ففي تعريفه للغة يشير إلى أنها "نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار"[٣]، ويقارنها بأبجدية الصم والشعائر الرمزية واللباقة والعلامات العسكرية.

وعلى الرغم من أن كثيرا من الدارسين الغربيين، ويتبعهم بعض دارسينا، يقلّلون من الدور السوسيري في بناء السميولوجيا، إلا أن هناك من رأى أن منجز سوسير، وخصوصا هذه النبوءة، اضطلع بدور كبير في تطور السميولوجيا لغوية وغير لغوية، كان من نتائجه احتذاء السميولوجيين للسانيات بشكل واضح[٤].

إنَّ هذا التركيز من الدارسين، يشير إلى إيمان كثير منهم بريادة سوسير وأثره في الدرس السميولوجي، أكثر من معاصره بورس، الذي –وفق عبد الرحمن بوعلي– لا يكاد المشتغلون بالسميولوجيا والمتخصصون فيها يشيرون

(١) انظر على سبيل المثال:

- Guiraud، Pierr: Semiology، Boston Routledge & Kegan Paul، 1975، p. 1.

- Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 87

- Elements of Semiology، P. 1

ويورد ترنس هوكز مقولة سوسير التنبؤية في مدخل الفصل الذي خصصه للسميولوجيا (علم للإشارات ص. ١١٣)، كما يترجمها محمد الماشطة مترجم كتاب (البنيوية وعلم الإشارة. م. س.). ويرى روبرت شولز أن سوسير وبورس هما أبوا السميولوجيا كما يقول في مدخل كتاب السيمياء والتأويل واصفا إياهما بالمبتكرين اللامعين. ومشيرا إلى أن مقولتيهما عن السيمياء غدتا لامعتين في أكثر الدراسات السميولوجية اللاحقة. وانظر: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٤. ماهي السيميولوجيا. ص. ٩. وغيرها بحيث لا نبالغ إن قلنا إنها موردة في كل دراسة سيميائية تستلهم اللسانيات.

(2) Course in general linguistics، P. 16.

(٣) السابق، الصفحة ذاتها..

(4) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 87.

إليه إلا تلميحا[١]، و"ربما كان ذلك بسبب إعطائهم الأهمية –كل الأهمية– للسويسري فردينان دو سوسير (...) ولأتباعه من المدرسة الفرنسية"[٢].

ويبدو أن هذا الاهتمام ليس غائدا لتقعيده لهذا العلم أكثر من معاصره بورس، ولكن بسبب ريادته وارتباطه باللسانيات من جهة، ولكونه ينتمي إلى الثقافة الفرنسية من جهة أخرى، حيث انتشرت اللسانيات والسميولوجيا في بدايتها.

٢-١-٢- الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية:

يميز سوسير بين الدراسة التاريخية (diachronic) والدراسة الوصفية (synchronic)[٣]، ويجعل هذا التمييز خطوة أولية في مشروعه اللغوي؛ لذا ينتقد المناهج التحليلية التقليدية التي تخلط بين البعد التاريخي والتنظيم اللغوي، دون أن يقصي الدراسات التاريخية، كما ظن بعض الدارسين في الغرب، وتبعهم بعض العرب، فهو "يطالب بتعليق الدراسات التاريخية، لا إلغائها حتى يتم بناء الحقل اللساني"[٤].

إن كل منهج –وفق سوسير– قائم بذاته، إلا أن الأولوية للمنهج الوصفي؛ لكونه يدرس لغة حية فاعلة في مجتمعها، فهذه هي الخطوة الأولى لدراسة اللغة، وبعدها يمكن دراستها عبر تطورها التاريخي أو غيره. تأتي هذه الوجهة لسوسير ردة فعل معاكسة لانتشار الدراسات التاريخية والمقارنة في عصره، القرن التاسع عشر الذي غدا من المألوف في علم اللغة أن يقال إنه كان "عصر الدراسات التاريخية والمقارنة للغات"[١].

(١) دولودال، جيرار، بالتعاون مع جوويل ريطوري: التحليل السيميوطيقي للنص الشعري، ترجمة وتقديم، عبد الرحمان بو علي، الرباط، ط١، ١٩٩٤.. ص. ٥.

(٢) السابق، الصفحة ذاتها.

(3) Course in general linguistics. P. 81.

(4) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 14.

وأهمية هذا التمييز تنبع من نقل الدراسات اللسانية من تتبع التطور التاريخي إلى خلق منهج حي، يدرس العلامات الحية في واقعها الاجتماعي، وهذه العلامات الحية تُدرس آنيا لفك مغاليق نظامها المعقد؛ أي لابد من معرفة واقع اللغة قبل معرفة تاريخها، وتشبيه اللغة بالشطرنج يوضح مدى أهمية الدراسة الوصفية الآنية، وأولويتها واستقلالها عن تاريخها.

هذا التمييز حوَّل الدراسات اللسانية فيما بعد تحويلا تاما، حتى إن أتباع المدرسة اللسانية يُصرُّون -وفق أندريه مارتينيه- "على تفضيل التحليل الآني تفضيلا مطلقا"[٢].

٢-١-٣- اللسان والكلام:

ميَّز سوسير بين اللسان(Langue) والكلام (Parole)، فاللسان عمل جماعي نتاج ممارسة الأفراد في أي مجتمع[٣]، ومن ثم يغدو مخزونا جماعيا في أذهان من يستخدمونه، فهو النموذج الذي يحتذيه أفراد المجتمع ليَبقوا ضمن نظامه، أو هو بتعبير داسكال "الواقعة الاجتماعية" التي تمثّل "الثروة المخزونة بواسطة ممارسة الكلام في الذوات المنتمية لنفس الجماعة"، أو هو "النسق النحوي الموجود بالقوة في كل دماغ"[٤]، وهو الذي يُشكِّل موضوع السميولوجيا الخاص.

أما الكلام فهو الممارسة الفردية لهذا المخزون الجمعي، وهو يختلف من فئة إلى آخرى ومن فرد إلى آخر، وإن كان الاختلاف لا يخرج عن قواعد لغوية وسلوكية، تجعل اللغة مفهومة للجميع، أي أن هناك واقعة اجتماعية، تكمن خلف كل واقعة فردية.

---

(١) موجز تاريخ علم اللغة. م. س. ص. ٢٣٧.

(2) Martinet، Andre: Elements of General Linguistics، translated by Elisabeth Palmer، The University of Chicago Press، 1964. P. 12.

(٣) يشير بول ريكور إلى أن سوسير تأثر كثيرا بدوركهايم الاجتماعي، لذا عرف سوسير اللغة بأنها فرع من علم الاجتماع، انظر:

Ricoeur، paul: Interpretation Theory، Discourse and The surplus of meaning، The Texas Christian University Press. 1976، p. 3.

(٤) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٢٢.

ومع هذا التقسيم فإن سوسير يؤكد أنهما لا ينفصلان، فلا وجود للغة دون كلام، مثلما أنه لا وجود للكلام دون لغة.

٢-١-٤- دورة الكلام:

يُشدد سوسير على ضرورة وجود شخصين على الأقل لتكتمل دورة الكلام[١]، ويقصد سوسير بدورة الكلام الاتصال اللغوي بين الأفراد، فإذا افترضنا كما يرى سوسير وجود اثنين ورمزنا لأحدهما بـ "أ" والثاني بـ "ب"، فإن منطلق الدورة موجود في ذهن "أ" بحيث ترتبط المدركات (المفاهيم) بالأصوات اللغوية (الصورة السمعية) لتنتج الدلالة المفهومية.

هذه العملية الأولى يصفها سوسير بالنفسية الخالصة، التي تدفع إلى عملية مادية خالصة، هي إصدار الأصوات، ولكي تكتمل الدورة لابد من أن تصل إلى ذهن الآخر "ب"، غير أنها تسلك هذه المرة طريقا معاكسا، فتبدأ مادية خالصة بالاستماع، وتنتقل إلى نفسية خالصة بالربط المفهومي، وهكذا دواليك[٢].

٢-١-٥- العلامة محورا سيميائيا:

لقيت العلامة اهتماما خاصا عند سوسير، ذلك أنها المحور الذي تدور حوله اللسانيات، والسميولوجيا فيما بعد، وقد كان لإسهاماته في هذا المجال أثر كبير، في السميولوجيا التي استثمرت مفاهيمه استثمارًا كبيرًا، وسوف نعرض بإيجاز لمفهوم العلامة، مُرجئين التفصيل إلى مبحث آخر.

انطلق سوسير، في تعريفه للعلامة اللسانية، من نقد التصور السائد الذي يرى أن اللغة مجرد لائحة من المفردات المقابلة لعدد مماثل من الأشياء، موضحا أنَّ العلامة خلاف ذلك.

---

(1) Course in general linguistics، P. 11.

(٢) السابق. ص ص. ١١-١٢.

والعلامة عند سوسير تتكون من صورة سمعية ومفهوم، ينتميان إلى العالم النفسي، مع إقصاء واضح للمنطلق والمرجع[١]، وبهذا يقدم تصورًا جديدا للعلامة، فبعد أن كانت مرادفة للدال أضحت مركبة من الدال والمدلول، وبعد أن كان المرجع حاضرًا في بنية العلامة أصبح خارجها.

وهذا المفهوم للعلامة، إضافة إلى المفاهيم الأخرى التي سنتناولها لاحقا بالتفصيل، مثَّل فيما بعد منطلقا صلبا للسيميائيين في دراساتهم للعلامة، وبنوا عليه كثيرا من مبادئهم السميولوجية.

٢-٢- تشارلز ساندرس بورس ✻ (١٨٣٩-١٩١٤):

فيلسوف أمريكي ولد في كامبردج[٢] بولاية ماساشوتس الأمريكية، وكان والده بنجامين بورس –Benjamin Peirce أستاذا في جامعة هارفارد، ومن أشهر علماء عصره في الرياضيات، فكان للبيئة الثقافية المحفِّزة في بيت والده أثر كبير في تكوينه العلمي، إذ تلقى بورس علومه الأولى من والده، وتأثر به علميا.

درس الكيمياء في جامعة هارفارد وتخرج فيها، ودرس المنطق في فترة مبكرة من عمره، وكان لكانط[٣] تاثير قوي في توجيه أعماله فيما بعد، لذا كان عمله المنطقي ضخما جدا.

(1) Course in general linguistics، p. 66.

✻ نشير هنا إلى شيوع خطأ في لفظ بورس، حيث شاع لفظ (بيرس) بالياء بدلا منه. وهذا تنبيه سبق إليه سعيد بنكراد في مستهل كتابه (السيميائيات والتأويل مدخل لسيميائيات ش. س. بورس ٢٠٠٥. ص. ١١-١٢)، حيث يسوق شواهد على صحة هذا اللفظ، متبعا خطى بعض الكتاب الغربيين الذين تناولوا بورس كدولودال، ولودفيننغ ماركوز، وبول غوبلي، وليتزا جانز. و قد أخذ على الدارسين العرب– باستثناء حنون مبارك في كتابه دروس في السيميائيات– إهمالهم التأكد من النطق الصحيح. واسمًا ذلك بأنه «إساءة لهذا الفيلسوف واساءة لتراثه»[!]. والحقيقة أن حنون مبارك ليس الوحيد الذي أورد (بورس) بهذا اللفظ، فكثير من الدارسين العرب فعلوا ذلك قبل إصدار بنكراد كتابه المذكور أعلاه، مثل أنور المرتجي (سيميائية النص الأدبي، ١٩٨٧) ومحمد الماكري (الشكل والخطاب– مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١. ص. ٣٩)، وأحمد يوسف (الدلالات المفتوحة. م. س. ص. ٥٠). وكذلك فعل عدد من المترجمين، مثل محمد نظيف في ترجمته لكتاب (ما هي السيميولوجيا ٢٠٠٠. م. س. ص. ٣٨)، ومحمد الزاهي (علم النص ١٩٩١. م. س. ص. ١٥). ومترجمو (الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ١٩٨٧) (حميد لحمداني – محمد العمري – عبد الرحمن طنكول – محمد الولي – مبارك حنون)، وغيرهم. وقد التزمت هذه الدراسة بلفظه بالواو خلافا لسوسير، لشيوعه بالواو عند كثير من الدارسين كما مر.

(٢) للمزيد حول حياة بورس، انظر:

- Brent، Joseph: Charles Sanders Peirce، A life Indiana Uniersity press، 1984.
- Nauman، St. Elmo: Dictionary of American Philosophy، Philosophical Library، New York، 1974. pp. 204-206.

(٣) يصرح بورس نفسه بتأثره بكانط، انظر: Collected Papers. 1. 300..

بدأ الكتابة منذ عام ١٨٥٧، واستمر إلى آخر عمره، أي ما يقارب سبعا وخمسين سنة، نشر منها الكثير، وبقي مخطوطا أكثر مما نشر، وإن كان معظم ما نشر بعد وفاته.

وفي عام ١٨٧٥ انتقل إلى فرنسا، وبقي فيها لمدة سنتين، ثم عاد إلى الولايات المتحدة، وفي هذه المرحلة كتب عدة مقالات بالفرنسية، كما كتب عن المنطق عدة مجلدات، لم يتمكن من نشرها في حياته.

وفي الفترة ما بين ١٩٠٣- ١٩١١ راسل سيدة إنجليزية تدعى ويلبي، كانت تسعى إلى تأسيس علم للدلالة، وقد تضمنت هذه الرسائل مذهبه السميولوجي، مشكّلة ما نشر بعد وفاته بعنوان (رسائل إلى السيدة ويلبي)[١].

تنوعت أعمال بورس العالم الموسوعي بين الفلسفة والمنطق والرياضيات، واللغة، والسميولوجيا، والاتصال، والفيزياء، وعلم المقاييس، والفلك، وعلم النفس، وعلوم الإنسان، والتأريخ، والاقتصاد وغيرها، وهذا عرضه للانتقاد من بعض معاصريه، كما أخَّر التعرف على إنتاجه في رأي بعض المعاصرين[٢]، وخصوصا فيما يتصل بالسميولوجيا.

وفي آخر حياته أصيب بالمرض وعاش ظروفا قاسية، فكتب لعدد من المجلات مقابل مبالغ زهيدة لا تسد حاجته، واعتمد في كثير من الأحيان على معونات أصدقائه.

بعد وفاته، في سنة ١٩١٤ تحديدا، باعت أرملته جوليت مخطوطاته غير المنشورة إلى قسمِ الفلسفة في جامعة هارفارد، وجمعت في ثماني مجلدات تحت عنوان أوراقَ مجموعة (Collected Papers)[٣].

(1) Peirce، Charles: Letters to Lady welby، New Haven، Whitlock، 1953.

(٢) دولودال، جيرار، بالتعاون مع جوويل ريطوري: التحليل السيميوطيقي للنص الشعري.م. س. ص. ٨.

(3) Peirce، Charles Sanders: Collected Papers، Ed. Charles Hartshorne، Paul Weiss & Arthur W Burks. Cambridge، MA: Harvard University Press، 1931-1958.

يعد بورس مؤسس البراجماتية الأمريكية، وقد أطلق عليها البراجماتيكية[١] (Pragmaticism) لتمييزها عن النظريات والمفاهيم الأخرى المندرجة تحت البراجماتية (Pragmatism) السائدة، ومع ذلك فمن الصعب التمييز بين براجماتيته وبراجماتية جيمس James، على الرغم من محاولات لالاند Lalande التمييزية[٢].

ويمكننا أن نجمل -مرجئين التفصيل إلى مكان آخر- أبرز إسهامات بورس المؤثرة في النظرية السميولوجية بالتالي:

١. تأسيس السميولوجيا.

٢. مراحل السميولوجيا البورسية.

٣. المقولات الجديدة.

٤. عناصر السميولوجيا

٥. المنطق والسميولوجيا.

٦. مفهوم العلامة الثلاثية.

٢-٢-١- تأسيس السميولوجيا:

يعد بورس[٣] المؤسس الحقيقي للسميولوجيا عند كثير من الدراسين السميولوجيين[٤]، ومن أبرز هؤلاء جيرار دولودال الذي أكد أن "سبْق سيميوطيقا بيرس على سيميولوجيا سوسير شيء لا يُناقش"[٥]، وأعاد بداية

(١) البراجماتيكية ترجمة المؤلف للتمييز بينها وبين البراجماتية.

(٢) التحليل السيميوطيقي للنص الشعري. م.س. ص. ٨.

(٣) أشار بورس نفسه إلى هذه الريادة حينما قال: «أنا، بحد علمي، مكتشف أو فاتح الطريق، في اكتشاف وإضاءة ما أدعوه: السميولوجيا». (Collected Papers. 5. 488)، وانظر:

- Eco، Umberto: A Theory of Semiotics. Bloomington، Indiana University Press، London، Macmillan، 1976. P. 15

(٤) مثل برنار توسان وسيبيوك وغيرهما، انظر: (ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٣٨)، وانظر: Contributions to the doctrine of signs. p. 5..

(٥) دولودال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، م. س. ص- ص. ٢٧ -٢٨.

صياغة بورس للنظرية إلى عامي ١٨٧٧ و١٨٧٨، مشيرا إلى أنها استمرت حتى وفاته، بينما يرى أن سوسير لم يشر إلى هذا الموضوع إلا في عام ١٩٠٨، وذلك في الدرس الثاني من دروس علم اللغة العام.

ولا يكتفي دولودال بالقطع بسبق بورس، بل يرى أنه من الممكن ومن السهل "أن نجد في سميولوجيا سوسير بعض المفاهيم الأساسية المرتبطة بسيميوطيقا بورس، هذا على الرغم من اختلاف سياقي السيميائيتين"[١]، في تلميح إلى أن سوسير أفاد من منجز بورس.

ويشير أمبرتو إيكو إلى أن بورس أولُ من قدم تعريفًا شاملًا ومثمرًا للسميولوجيا[٢]، وإن كان إيكو بدأ بسوسير في حديثه عنها.

وإذا كان هناك اختلاف حول إسهامات سوسير السميولوجية، بحيث يقصرها بعضهم على النبوءة أوالتصور العام، فإن الحديث عن سميولوجيا بورس، يأخذ على الدوام شكل الحديث عن نظرية سيميولوجية مكتملة، فبعمله "أصبحت السميولوجيا علما قائما بذاته"[٣]، وإن كان ضمن فلسفته العامة.

٢-٢-٢- مراحل السميولوجيا البورسية:

مر مشروع السميولوجيا عند بورس بعدة مراحل، قبل أن يصل إلى صورته النهائية، قسمها دولودال[٤] إلى ثلاث مراحل: الأولى يطلق عليها المرحلة الكانطية (١٨٥١-١٨٧٠)، حيث ربط نظريته بمقولات كانط في سياق المنطق الأرسطي الثنائي، والمرحلة الثانية المنطقية (١٨٧٠-١٨٨٧)،

(١) المرجع نفسه. ص. ٣٩.

(2) A theory of Semiotics، P. 15.

(3) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 85.

(٤) التحليل السيميوطيقي للنص الشعري.م. س. ص. ص. ٨-٩.

وفيها يقترح منطق العلاقات، بدلا من المنطق الأرسطي، حيث سيكون الأساس والضامن للمفهوم الثلاثي عن المقولات والعلامات، أما الثالثة فهي المرحلة السميولوجية (١٨٨٧-١٩١٤)، حيث طور نظريته السميولوجية بالربط مع نظريته الجديدة للمقولات.

٢-٢-٣- المقولات الجديدة[١]:

قسم بورس المقولات إلى ثلاثة أقسام: الأولى ما يوجد بذاته دون نسبة إلى شيء، وتشكل هذه الكيفيات الشعورية، والثانية ما يوجد بذاته نسبة إلى شيء ثان، دون اعتبار لثالث، وتشكل مقولة الواقع أوالوجود، والثالثة ما يوجد بذاته صانعا نسبة بين ثانٍ وثالث، وتشكل كل الأشكال والعمليات الذهنية الواعية كالتفكير والاتصال، وعلى رأسها العلامة.

هذا التصنيف متأثر ومطور لمقولات كانط الاثنتي عشرة التي طورها استنادا إلى مقولات أرسطو، وقد أشار بورس نفسه إلى ذلك، حين قال: "قائمتي نتاج لائحة كانط"[٢].

واستناد بورس[٣] إلى هذا الإجمال للمقولات وتقسيمها إلى ثلاث، يعود إلى رؤية تركيبية للأحكام، فهو يراها تشترك في تركيب ثلاثي مكون من: موضوع -رابط- محمول، وقد أطلق عليها تجريدا: الأولية (Firstness)، والثانوية (Secundness)، والثالثية (Thirdness).

٢-٢-٤- عناصر السميولوجيا:

بناء على التقسيم الثلاثي السابق يقسم بورس السميولوجيا إلى ثلاثة عناصر رئيسة: الأول يطلق عليه: النحو الصافي، ووظيفته دراسة كيفية

(1) Collected Papers. 8.334.

(٢) السابق.. ١. ٣٠٠.

(٣) السابق. ٢. ٢٢٩

تجسيد العلامة للمعاني، والثاني يطلق عليه: المنطق الخالص، ووظيفته بتعبير داسكال[١] دراسة "شروط صدق التمثيلات"، وهو مقارب لعلم الدلالة، أما الثالث فيدعوه البلاغة الخالصة، ووظيفته دراسة نظام السيرورة.

٢-٢-٥- المنطق والسميولوجيا:

جعل بورس المنطق منطلق كل دراسة فلسفية، وحدد معنى أي فكرة بأنه النتائج الفعلية التي تؤدي إليها تلك الفكرة، أما علاقة المنطق بالسميولوجيا فهي وثيقة الصلة[٢]، بل هي علاقة ترادف، فليس المنطق بمعناه العام إلا" تسمية أخرى للسميولوجيا"[٣]، كما أكد أن كل فكرة علامة[٤]، والفكرة مظهر منَّا، وبالتالي كلما فكرنا فإننا نبدو كالعلامات[٥]، ويؤكد في موقع آخر أن "الإنسان علامة"[٦]، وبناء عليه فإن السميولوجيا علم العلوم، من منطلق أنها مرادفة للمنطق من جهة، ومندرجة تحت البراجماتية من جهة أخرى.

إذن، ليست السميولوجيا عند بورس تالية للسانيات، كما يقرر سوسير، بل العكس، اللسانيات تابعة للسميولوجيا التي يتحدد موضوعها بالكون كله، من خلال التجربة الإنسانية، وبالتالي فإن اللسان جزء من هذه التجربة؛ لذا نجد العلامة اللغوية عند بورس مشتركة مع االرمز والمؤشر.

إنَّ بورس بناء على ما سبق، يرى أن موضوع السميولوجيا كل ما في

(١) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٣٦.

(2) Collected Papers. 2. 227

(٣) السابق. الصفحة ذاتها.
وانظر ترجمة فريال جبوري غزول: تصنيف العلامات، م.س. مدخل إلى السيميوطيقا. ص. ١٣٧.

(4) Collected Papers. 5. 250.

(٥) السابق٥. ٢٨٣.

(٦) السابق. ٥. ٣١٤.

الكون. يقول: "لم يكن بمقدوري مطلقا القيام بدراسة أي شيء في هذا الكون كالرياضيات، والأخلاق، والميتافيزيقا، والجاذبية والبصريات، الاقتصاد، علم النفس، والصوتيات، وتاريخ العلوم... الخ، إلا من خلال السيميولوجيا"[١]، وبالتالي فهو يتعامل مع العلامة تعاملا شموليا كما مر.

ويرتبط بهذه الرؤية الشمولية، التوسع في عناصر العلامة، فالموضوع بالنسبة إلى بورس، ليس مجرد عنصر ثالث أضيف إلى عنصري سوسير، ولكن هذا الموضوع عنصر رئيس يضمن شيئين جوهريين، أولهما تحويل الكون إلى علامة، وثانيهما السيرورة، وهي منطلق مفهوم بورس للعلامة.

٢-٢-٦- ثلاثية العلامة:

العلامة هي نموذج المقولة الثالثة كما مر، وهي بتعريف بورس "شيء ينوب لشخص عن شيء، نتيجة صلة معينة، فيخاطب الشخص شخصا، ليوجد في ذهنه علامة مكافئة"[٢]. ومن هذا المفهوم للعلامة وعلمها أخذ يدرس الرموز ودلالاتها وعلاقاتها في جميع الأشياء والموضوعات الطبيعية والإنسانية.

٢-٣- رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠):

ناقد فرنسي ولدَ في شربور (Cherbough) عام ١٩١٥، وقبل أن يبلغ سنة، مات والده في معركة بحرية عام ١٩١٦، ونشأ في بايون قبل أن ينتقل عام ١٩٢٤ مع أمه إلى باريس.

أصيب بالسل، ولزم المصحة في فترتين؛ الأولى ١٩٣٤-١٩٣٥، والثانية ١٩٤٢-١٩٤٦، ما أدى إلى إعاقه دراسته الدكتوراه، وأخَّر تطور مشروعه

(1) letters to lady welby. P. 32.

(2) Peirce، Charles Sanders: Collected Papers (8 Vols.)، (Ed. Charles Hartshorne، Paul Weiss & Arthur W Burks)، Cambridge، MA: Harvard University Press، 1931–58. 2. 228.

المعرفي[١]، إلا أن عزله أتاح له إشباع نهَمِه من القراءة فقرأ كثيرا، وأشار[٢] إلى أن هذه المرحلة أسهمت بقوة في تكوينه الثقافي.

درَس الأدبَ الكلاسيكيَ في السربون، وحصل على الإجازة عام ١٩٣٩، وبعد الحرب العالمية درّس خارج فرنسا في عدة دول، كمصر وتركيا ورومانيا، كما تفاعل مع الثقافة اليابانية من خلال زيارته وإعجابه بها، نتج عنه كتابه امبراطورية العلامات، وهذا أتاح له الاطلاع على ثقافات عديدة، وفي عام ١٩٦٠ درّس في الكلية العلمية للدراسات العليا في باريس، واستمر فيها حتى حصل على كرسي أستاذ السميولوجيا الأدبية، في كلية دي فرانس عام ١٩٧٦ التي بقي فيها حتى وفاته عام ١٩٨٠ بحادث سيارة.

عُرف في المشهد الثقافي الفرنسي في العقد الخامس، مع إصدار عمله عن سارتر ١٩٤٧، وتتابعت إصداراته الكثيرة، حتى بلغت سبعة عشر كتابا، وكثيرًا من المقالات، في حقول متعددة، مثل علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلوم الإنسان (الإنثروبولوجيا)، واللسانيات، والسميولوجيا، وغيرها، وقد تُرجم جلّها إلى عدة لغات منها العربية، ولقيت متابعة قوية داخل فرنسا وخارجها.

٢-٣-١- أعماله:

يتسم منجز بارت بالتطور الملحوظ، من مشروع إلى آخر، ولتتبع منجز بارت بشكل يوضح تطور أفكاره ويبسطها، وخصوصا فيما يتصل بالسميولوجيا، يمكن تقسيم عمله وفق الحقب التالية:

(١) ستروك، جون: البنيوية وما بعدها، من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، ٢٠٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٦. ص. ٦٦.

(٢) إيفرار، فرانك وإريك تينه: رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص. ترجمة، وائل بركات، دار الينابيع، دمشق، ط. ١. ٢٠٠٠. ص. ١٣.

٢-٣-١-١- حقبة الهذيان العلمي:

بدأ بارت هذه المرحلة في كتابه عن راسين، ويدخل ضمن هذه المرحلة كتاب الدرجة صفر للكتابة ١٩٥٣ (Writing Degree Zero)، وفيه حاول التأكيد إمكانية صياغة تاريخ للكتابة مرتبط بمستقبل الوعي الإنساني، إلا أن هذا الكتاب، وإن كان يثير الاهتمام، في رأي بعض الدارسين "ليس كتابا ناجحا بحال من الأحوال، وذلك في جانب منه لأنه أقصر من أن يوفي المهمة المطلوبة منه حقها"[١].

وفي عام ١٩٥٤ أصدر كتابه الثاني عن ميشليه، وهو كتاب يدين للنقد الموضوعاتي[٢]، وقد أعلن عن عدم رضاه عن هذه المرحلة، واصفا إياها بأنها "شيء من الهذيان العلمي"[٣]، وهذا ليس غريبا على ناقد مثل بارت، اعتاد التجاوز في كل كتاب فضلًا عن كل حقبة.

٢-٣-١-٢- حقبة السميولوجيا:

إذا كان سوسير قد تنبأ بالسميولوجيا، فإن نبوءته لم تتحقق، وبرنامجه لم يتبلور- وفقا لبيير جيرو- إلا عندما أصدر رولان بارت كتابه (مبادئ السميولوجيا ١٩٦٤)[٤].

بيد أن البدايات كانت في عام ١٩٥٧، مع كتابه أساطير (Mythologies)، حيث انطلقت مرحلة السميولوجيا التي امتدت عشر سنوات، تناول فيه بالتصنيف الدقيق مفاهيم سوسير(اللغة والكلام، والدال والمدلول)،

(١) البنيوية وما بعدها. م. س. ص. ٦٩.
(٢) رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص. م. س. ص. ١٤.
(٣) السابق. ص. ١٥.
(4) Guiraud، Pierr: Semiology، p3.
ويتفق معه توسان الذي يقول «يجب انتظار سنة ١٩٦٤ حيث نشر رولان بارت نص «عناصر السيميولوجيا» لتولد بالفعل النظرية السيميولوجية الغير اللسانية» (ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٤٤).

ومفاهيم هيلمسليف (التحديد والإيحاء)، ومفهوم مارتينيه (التمفصل اللغوي)[١].

أما كتاب (مبادئ السميولوجيا)، فإنه سعى فيه إلى تأسيس سميولوجيا مستقلة عن اللسانيات، وإن كانت مفاهيمه في هذه الدراسة هي نفسها التي وظفها في الدراسة السابقة[٢]، وقد أحدث هذا الكتاب ثورة في تاريخ السميولوجيا، كما هو شأن كتاب سوسير إبان نشره، لذا عد بعض الدارسين كتاب بارت "بمثابة القنبلة"[٣].

واستمر مشروعه السميولوجي في كتابه (نظام الموضة ١٩٦٧)، حيث طور هذه النظرية بدفعها إلى أقصى مدى من التوجه السابق[٤].

يُقسِّم برنار توسان[٥] المراحل النظرية لفكر بارت السميولوجي إلى ثلاث:

١. بلورة المفاهيم السميولوجية ١٩٦٤- ١٩٦٦.

٢. البحث عن شبكة مفاهيم سميولوجية، والمعارضات الأولى للنظام اليلمسليفي ١٩٦٦- ١٩٧٠.

٣. البحث عن الرمزي والتمهيد لسميولوجيا مفاهيم التحليل النفسي ١٩٧٠-١٩٧١.

٢-٣-١-٣- حقبة الكتابة المقطعة:

أحدث بارت منعطفا في نتاجه عندما أصدر (S/Z) سنة ١٩٧٠، إذ بدأ فيه الكتابة المقطعة، وذلك بإجراء تداخل بين تعليقاته ونص قصة بلزاك. وفي

(١) يرى توسان أن بارت يعد أحد أقطاب النقد السميولوجي منذ نشر كتابه (أساطير) الذي عمل على شهرته بصوت لم يسبق له مثيل. وقد أفاد من بورس وهيلمسليف وسوسير، «فهو أول من أنجز تركيبا رائعا للمنظرين الثلاثة، ووضع نظرية سيميولوجية تتجاوز اللسانيات النسقية». (ما هي السيميولوجيا. ص. ٤٤).
(٢) رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص. م. س. ص. ١٥.
(٣) ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٤٤.
(٤) رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص. م. س. ص. ١٥.
(٥) ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ص. ٤٧– ٤٨.

العام نفسه أصدر إمبراطورية العلامات، ملتزما إلتزاما واضحا بالكتابة المقطعية.

٢-٣-١-٤- حقبة الذات - الكاتبة Sujet:

هذا منعطف آخر لبارت، حيث يدخل إشكالية الذات – الكاتبة، في عدة أعمال أخرى (لذة النص – رولان بارت – فصول في خطاب غرامي). وفي هذه الحقبة، يتخلى بارت شيئا فشيئا عن المفهوم الصارم للسميولوجيا الذي كان يدافع عنه، ويقترب من التفكيك عند ديريدا، والتحليل السميولوجي عند كريستيفا.

أما آخر أعمال بارت فهو (الغرفة المضيئة) ١٩٨٠، وهو تأملات عن التصوير والزمن والموت، ويبدو هذا العمل المتأثر بفقد والدته بمثابة إعلان رحيله في العام نفسه، وفيه يقول: "أتكلم عن نفسي كإنسان شبه ميت"[١].

٢-٣-٢- التجاوز والتنظير:

لم يكن بارت يوما منسجما مع السائد، وهذا ما ميزه وأسهم في بروزه، يضاف إلى ذلك جرأته التي أوجدت له كثيرًا من الخصوم، فقد اتسم بـ"الجرأة في صياغة المبادئ الجديدة"، لا يساويها إلا ما اتسم به من "إثارة في اطراح المبادئ القديمة"[٢].

من هنا سعى بارت منذ البداية إلى هزِّ الأفكار السائدة، والتي يعتنقها أساتذة الأدب في الجامعات، فاكتسب شهرته في المشهد الثقافي بوصفه "اللعنة المسلطة على النقد الأكاديمي"[٣]، ولا سيما أنه كان خارج المجال الأكاديمي في ذلك الوقت.

(١) رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص. م. س. ص. ١٧.
(٢) البنيوية وما بعدها. م. س. ص. ٦٥.
(٣) السابق. ص٦٨.

كان بارت سريع الحركة، كثير التجاوز للمواقف القديمة، ولو كانت مواقفه هو شخصيا، متوجها -في الغالب- وجهات لا تكون في الحسبان، ويكفي للتدليل على ذلك أن نقارن بين كتبه التي تأتي دائما متجاوزة، فكل "كتاب جديد ينشره هو بشكل واضح تجاوز لأفكاره السابقة وليس تعزيزا لها".

أفاد بارت من وجوده خارج هذا المجال، مما أعطاه حرية في تناوله، إلا أنه في المقابل جعله عرضة للإقصاء من المنهج العلمي؛ فوصف "بعدم الدقة"، و"الاهتمام بالمتعة" على حساب الاتجاه العلمي، كما وُسم بالناقد المدعي، والكاتب المدعي، والأسلوبي، والموضوعي، والكاتب الأدبي، إضافة إلى اتهام رموز في الجامعة له بالانشقاق والخداع.

والحقيقة أن اتهامه بالقصور التنظيري ليس محصورا في خصومه، بل هو رأي شائع، حتى عند مؤيديه والمشيدين به، كجون ستروك، وتودوروف وغيرهما.

٢-٣-٣- المآخذ على بارت:

لم يسلم بارت من مآخذ وجهت إليه من معاصريه، بل يمكن القول إنه من أكثر النقاد في العصر الحديث تعرضا للهجوم، وذلك يعود إلى عدة أسباب، منها ما يتسم به بارت من تحول ومجاوزة وخرق للمفاهيم السائدة -كما ذكرنا- ومنها ما يتصل بمنهجه في الكتابة، وهو منهج، في رأي كثير من النقاد والأكاديميين، يفتقر إلى المنهجية العلمية؛ لذا اختلفت المواقف.

المأخذ الأول: الادعاء، أو تنوع الموضوعات الناقص. فبارت في نظر بعض معاصريه، دعيّ في كل مجال، ولكنه ضعيف فيها كلها، ومن الأوصاف الطريفة التي هوجم بها: "الدجال"، إذ أصبح "في السنوات الأخيرة من حياته مطاردا

(١) البنيوية وما بعدها. ص. ٦٥.
(٢) رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص. م. س. ص. ١٧١.

بفكرة أنه لم يكن سوى دجال: فقد تحدث عن كل شيء من الماركسية إلى اللسانيات، دون أن يعرف من أي منها شيئا بصورة حقيقية"[١].

المأخذ الثاني: ضعف المصطلحية Terminologique، فقد أخذ عليه جورج مونان أنه يستخدم مفهومات لا يمكن السيطرة عليها، من ذلك خلطه بين العلامة عند سوسير وكل ما يحمل دلالة[٢].

المأخذ الثالث: الفوضى التطبيقية، وتتصل –وفق مونان– بالتطبيق السميولوجي الذي يوظف فيه بارت مفاهيم التواصل اللساني وخصائصه على موضوعات غريبة عنه مما يؤدي إلى فشل المحاولة[٣]. ويعلق مونان على ذلك بأن بارت لن يستطيع الاستئذان من اللسانيات أوالسميولوجيا لإثبات ادعاء علمية كتبٍ، هي عبارة عن مجموعة مقالات مختارة.

إن مونان يرى أن بارت لا يدرس العلامات، وإنما يدرس الرموز والإشارات: "إن ما يدرسه بارت بعيد جدا عن العلامات بالمفهوم السوسيري للكلمة، إنها غالبا رموز (...) وأحيانا إشارات"[٤].

المأخذ الرابع: ضعف المنهجية العلمية، والقصور التنظيري وهو رأي شائع حتى عند مؤيديه والمشيدين به، فجون ستروك على سبيل المثال، يأخذ على بارت عدم تشييد موقف نظري ذي معالم محددة، فبعد أن أشار إلى أنه "جدد النقد الأدبي في فرنسا فصار نشاطا فكريا أكثر تنوعا وفائدة مما كان عليه، وأخذ يساعد في تجديده خارج فرنسا مع انتشار ترجمات كتبه".[٥]–يقول: "غير أن بارت لم يفعل ذلك عن طريق تشييد موقف نظري محدد خاص"[٦].

(١) السابق. ص. ص. ١٨٨–١٨٩.
(٢) السابق. ص. ص. ١٧٨–١٧٩.
(٣) السابق. ص. ١٧٩.
(٤) السابق. ص. ص. ١٨٠–١٨١.
(٥) البنيوية وما بعدها. م. س. ص. ٦٥.
(٦) السابق، الصفحة ذاتها

وممن أخذ عليه هذا المأخذ تودوروف وهو أحد مساعدي بارت إذ ينتقده بقسوة، ويرى أنه أخفق في تحقيق هدفه، عندما ابتعد عن مجال العلم، واكتفى بالحديث عن بناء مفهوم "كتابة" أو "أسلوب"[١]. ويأخذ تودوروف على صاحب كتاب "نقد وحقيقة" أنه دعا إلى التخلي عن "الكلام الدقيق تحت شعار المبادئ الحقيقية"[٢].

المأخذ الخامس: قتل الأدب، فقد وصف بعض الكتاب بارت بسفاح الأدب، انطلاقا من تعامله مع النص كالجسد، فالروائي أنجيلو رينالدي يصفه بالقاتل والمفسد الضال الذي يستخدم الأدب ويختبئ وراءه للقضاء عليه في آخر المطاف[٣].

ومهما تباينت المواقف، فقد ملأ بارت الدنيا وشغل الناس، بين مؤيد معجب، ومعارض رافض، وليس أدل على ذلك من شهرته ذائعة الصيت، وترجمة كتبه إلى معظم لغات العالم، إضافة إلى عدد الأعمال التي صدرت عنه وما زالت حتى يومنا هذا.

٢-٤- أمبرتو إيكو:

سيميائي وروائي إيطالي، ولد عام ١٩٣٢ في مدينة أليسّاندريا (Alessandria)، بالقرب من ميلانو شمال إيطاليا، حصل على دكتوراه الفلسفة من جامعة تورينو، عام ١٩٥٤عن أطروحته بعنوان: (الجمالية عند توما الأكويني).

عمل أستاذاً للسميولوجيا بجامعة بولونيا، وأدار الدورية العالمية المتخصصة في السميولوجيا (VS)، وعرف عالميا بدراساته السميولوجية،

(١) السابق. ص. ١٨٣.
(٢) السابق. ص. ١٨٤.
(٣) السابق. ص. ١٨٧.

بوصفه منظِّرًا وذا مشروع رائد لصياغة نظرية سميولوجية متماسكة[١]، كما عمل في البرامج الثقافية في الإذاعة والتلفزة الإيطالية (RAI)، ثم في إحدى دور النشر، وأسس عددًا من الدوريات.

٢-٤-١- أعماله:

تتميز أعمال إيكو بالغزارة، ومعظمها حول السميولوجيا والتأويل، حيث أصدر ما يقارب عشرين عملا علميا، منها (العمل المفتوح ١٩٦٢)، و(البنية الغائبة ١٩٦٨)، و(العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه ١٩٧٣)، و(نظرية السيميائيات ١٩٧٥)، و(القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ١٩٧٩)، و(السميولوجيا وفلسفة اللغة ١٩٨٤).

ومثلما عُرف منظرَا سميولوجياً وإعلاميًا، فإنه اشتهر بالأعمال الروائية، وكان له أثر كبير في كتابة الرواية المعاصرة، من خلال رواياته الخمس: اسم الوردة، وجزيرة اليوم السابق، وبندول فوكو، وباودولينو، والوهج الغامض للملكة لونا[٢]، وتعد روايته الأولى (اسم الوردة) من أشهر الأعمال الروائية المعاصرة، ليس على المستوى الروائي والسينمائي[٣] فحسب، وإنما في الحقل السميولوجي أيضا.

وسنعرض بإيجاز لأبرز الأعمال النظرية والنقدية السميولوجية، إضافة إلى رواية (اسم الوردة)؛ لما اشتملت عليه من أفكار سميولوجية، وظَّفها إيكو قصدًا فيما يبدو.

---

(١) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ٩.

(٢) ترجم من هذه الروايات إلى العربية: اسم الوردة، وجزيرة اليوم السابق، وترجمهما أحمد الصمعي، الأولى عن دار التركي للنشر، تونس، ١٩٩١. وقد أعاد طباعتها ثلاث مرات. والثانية عن دار أويا، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٠. كما ترجم رواية باودولينو بالاشتراك نجلاء حمود وبسام حجار، عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٣.

(٣) رواية اسم الوردة من الروايات الشهيرة عالميا، وهي عبارة عن قصة بوليسية مثيرة بشكلها الكلاسيكي والأقرب إلى القصص الشعبي المألوف ينسج فيه الوسيط مع الحديث. ترجمت الرواية إلى ثلاثين لغة، وبيع منها ما يقارب ١٠ ملايين نسخة، قدمت الرواية في فيلم سينمائي استوحى قصة «ادسودا مالك»، بطل الرواية، وقد ساهمت السينما في زيادة شهرة الرواية على مستوى العالم.

نشر إيكو كتاب (العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه)[١]، وقدَّم فيه تأريخًا للرموز وصورها المتنوعة، موسعا دائرة البحث لتشمل الرموز الدينية والفلسفية، وكما هو نهج إيكو في التأريخ لهذه المسائل، تتبَّع نمو هذه الأشكال في أبرز المحطات التاريخية المرتبطة بالمشاريع الجمعية في التراث.

وبما أن "العلامة توجد كلما استعمل الإنسان شيئا ما محل شيء آخر"، فإن العلامة قوام نسيج المجتمعات الإنسانية عبر تاريخها، وذلك يعود لكون العلامة الوسيط الأمثل بين الإنسان ومحيطه.

قسَّم إيكو الكتاب إلى خمسة فصول، تناول في الأول السيرورة التأويلية من خلال العلامة التواصلية والدلالية، منطلقا من التقسيم الثلاثي البورسي لعناصر العلامة: الدال والمدلول والمرجع، وتناول في الثاني تصنيف العلامات، منطلقا من المصدر، وصولا إلى المتلقي عبر قنوات عدة، ليصل في النهاية إلى تصنيف عام للعلامات.

ولكون إيكو متجذرًا في البنيوية- كما يقول راي- يعالج في الفصل الثالث، مقاربة البنيوية للعلامة، مؤكدا على سننية اللسان من جهة، وبنيويته من جهة أخرى؛ لذا شدَّد على أهمية التطبيق البنيوي في دراسة العلامة وتحولاتها، وناقش كثيرًا من المفاهيم المرتبطة بالعلامة.

وفي الفصل الرابع يتناول أصناف العلامات، مقارناً بين العلامات اللسانية وغير اللسانية، ومقررا محدودية النموذج اللساني، وإمكانية التمفصل العلامي غير اللساني.

ويعود في الفصل الأخير لمناقشة العلامة من وجهة فلسفية، محتذيا الطروحات التراثية في النظر إلى الكون بوصفه علامة، واختصاص

---

(١) ترجم هذا الكتاب سعيد بنكراد، عن مشروع الترجمة «كلمة» بالتعاون مع المركز الثقافي العربي بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

الإنسان باللغة، وعلاقة اللغة بالفكر والواقع، وغيرها من المفاهيم التي أعاد مناقشتها بشكل أعمق في مؤلفاته التالية، وخصوصا كتابه (نظرية السميولوجيا).

وفي كتابه (نظرية السميولوجيا العامة) قدم نظرية عامة لجميع الأنظمة السميولوجية، وميز بين الاتصال السميولوجي وغير السميولوجي، وأنواع العلامات، وعلاقة التأويل بالعلامات، وميَّز بين مستويات السميولوجيا العامة والخاصة، وبسط التفريق بين سميولوجيا الدلالة وسميولوجيا الاتصال.

ويُلحق كتابه النظري السابق بكتاب تطبيقي بعنوان (القارئ في الحكاية)[١]، وهو عبارة عن سلسلة من الدراسات، أجريت ما بين عامي ١٩٧٦و١٩٧٨، حول آلية التعاضد التأويلي، في النصوص الشفاهية.

ويختلف هذا الكتاب عن سابقه ويكمله، فهو يقتصر على سميولوجيا القراءة فقط، دون توسيع لدائرة السميولوجيا، إذْ درس قصة للكاتب ألفونس أليه بعنوان "مأساة باريسية حقا"[٢]، وجعلها محور الكتاب، مشيرًا إلى أن خطابات هذا الكتاب إنما نشأت من الحيرة التي ساقته إلى لُججها، لسنوات خلت، هذه الحكاية يوم قرأها للمرة الأولى[٣].

يحدد إيكو غاية هذا الكتاب بمعالجة "ظاهرة الحكائية المعبر عنها لفظيا باعتبارها موضع تأويل من قبل قارئ معاضد"[٤]. وعلى الرغم من كون الكتاب يقصر اهتمامه بالسميولوجيا على القراءة ويطبقها، إلا أن جانبه النظري العام يقدم تمييزا دقيقا بين الأعمال الأدبية وغير الأدبية من حيث صلتها بالسميولوجيا.

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية أنطوان أبو زيد، وصدر عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. ١. ١٩٩٠.
(٢) السابق. ص. ١٠.
(٣) السابق. ص. ١١.
(٤) السابق. ص. ٩.

وفي سنة ١٩٨٤ يعيد إيكو في كتابه (السميولوجيا وفلسفة اللغة)[١] تنظيم خمسة مداخل سميولوجية – كما يشير بنفسه- كتبت في ما بين ١٩٧٦- ١٩٨٠ لموسوعة إيناودي (Enciclopedia Einaudi)[٢]، وإن كان أعاد النظر فيها وعمّقها نتيجة مرور سنين عدة.

يتناول الكتاب خمسة مفاهيم سميولوجية، يراها إيكو مسيطرة على جميع النقاشات السميولوجية، وهي: العلامة، والمدلول، والاستعارة، والرمز، والسنن.

ويصر إيكو[٣] في تناوله هذه المفاهيم على إعادة النظر فيها من الزاوية التاريخية، وربطها بالإطار النظري الذي رسمه من قبل، وخصوصا في (نظرية السميولوجيا العامة)، و(القارئ في الحكاية).

والحقيقة أن هذا الكتاب من أوفى الكتب تأصيلا للسميولوجيا في التراث الفكري الغربي، حيث يرتد فيه إلى الفكر اليوناني، منقباً عن أبرز المفاهيم الحديثة، ومركزاً على أرسطو والرواقيين خاصة، بصفتهم المنطلق الحقيقي للسميولوجيا، وأنهم عالجوا كثيرًا من القضايا السميولوجية بدقة متناهية، فاقت في كثير من الأحيان السميولوجيين المعاصرين.

غير أنَّ الكتاب على الرغم من غايته التاريخية، يسرِّب المفاهيم الحديثة في الذاكرة، ويستدعي الذاكرة لمناقشة المفاهيم الحديثة في جدل بين وجهي النظرية السميولوجية، بعيدا عن الطرح المختزل والتقليدي للاشتغالات السميولوجية القديمة.

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية أحمد الصمعي، وصدر عن المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. ١. ٢٠٠٥.
(٢) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص ٣٢.
(٣) السابق. ص ص. ٣١–٣٢.

الكتاب نموذج تطبيقي لمبدأ إيكو الداعي إلى ضرورة التأريخ للمفاهيم، بدلا من عزلها؛ لأن ذلك هو السبيل لفهم المفاهيم والمسائل المحيرة. لأنه لا توجد طريقة أفضل -كما يرى- من العودة إلى السياقات التي ظهرت فيها مقولة لأول مرة، وما يحدث أنه خلال هذه الرحلة في تاريخ هذه المفاهيم يعترضنا دارسون في الطب وفي الرياضيات وفي العلوم الطبيعية، كما يعترضنا علماء في البلاغة وخبراء في التنجيم ومختصون في الرموز والقبالة ومنظرون في الفنون المرئية، إلا أن أكثر هؤلاء اعتراضا هم الفلاسفة[1].

وفي سنة ١٩٩٦، صدر له كتاب (التأويل بين السيميائيات والتفكيكية)، وهو يشكل مجموعة من المحاضرات[2] التي ألقاها إيكو سنة ١٩٩٢ في جامعة يال، وكوّنه ينتمي إلى المدرسة التأويلية، فإنه يخصص هذا الكتاب لمناقشة التأويل وتتبع تحولاته ومدارسه، وخصوصا عند السميولوجيين والتفكيكيين.

وعلى النهج نفسه يرتدّ إيكو في تحليل نظريات التأويل إلى التراث، رابطا التأويل بالفكر اليوناني، وخصوصا الهرمسية والغنوصية، ويحاول- هنا- كما فعل في (السميولوجيا وفلسفة اللغة)، إثبات أن التأويل بمعظم اتجاهاته الحديثة، ليس سوى إعادة صياغة لنظريات قديمة.

ومن أعماله الروائية (اسم الوردة ١٩٨٠) التي لقيت شهرة واسعة عند القراء، كما لقيت عناية خاصة عند النقاد الذين راحوا، وما زالوا، يجتهدون في تأويلها ودراستها، ومنهم إيكو نفسه.

وعلى الرغم من أنَّ اسم الوردة رواية، وليست عملا نظريا أو نقديا، إلا

(١) السابق. ص. ٣٢.

(٢) ترجم الكتاب إلى العربية سعيد بن كراد، عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٢. وقد أضاف مقالين من كتاب إيكو (حدود التأويل)، إضافة إلى مقال لجوناثان كولر يرد فيه على إيكو

أنها كانت غنية بالمعالجات السميولوجية، إذ احتوت على كثير من الأفكار السميولوجية التي يعتنقها إيكو، فجاءت مباشرة بأصوات شخصياتها، أو غير مباشرة، ولا سيما أن الرواية ظهرت في العام١٩٨٠، أي في مرحلة نضج مشروع إيكو السميولوجي.

تنطلق الرواية من منطلق سميولوجي، فهي تبدأ بتمرين على العلامات، يؤول من خلاله غوليالمو علامات مختلفة للاستدلال منها على حادثة لم يكن حاضرا فيها، وهي فرار جواد رئيس الدير "برونيلّو".

ينطلق من العلاقات بين العلامات، مشيرًا إلى أن العلامة "تكون عديمة المعنى أو فقيرة إذا ما اعتبرت بمفردها، أي منعزلة عن شبكة العلامات المحيطة بها أو عن مقام تلعب فيه دورا من الأدوار"[1].

وفي موضع آخر يقول على لسان غوليالمو: "نحن نستعمل الدلالات ودلالات الدلالات فقط عندما تنقصنا الأشياء"[2]، أليس هذا حديثا عن التأويل كما يراه إيكو.

تمارس الرواية سيميائيتها من عنوانها الذي دار حوله جدل واسع، وأكد إيكو ضرورة أن يكون العنوان "مشوشا" لا موضحا، في تبريره لاختيار هذا العنوان، وتستمر سميولوجيتها حتى نهايتها، فهي تقدم ما يمكن أن نطلق عليه (التطبيق الفني) للنظرية السميولوجية عند الكاتب، وإن كانت نهايتها تتجاوز الكتابة إلى التلقي، فقد لقيت الرواية تأويلات عدة من النقاد والقراء، كما تناولها إيكو نفسه بالتحليل في كتابه (حدود التأويل١٩٩٠)، وذلك من خلال تأويلات القراء، سعيا إلى لا نهائية التأويل.

(١) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ١٤.

(٢) السابق. ص. ١٥.

٢-٤-٢- إسهامات إيكو السميولوجية:

يمكننا أن نجمل أبرز الإسهامات بالتالي:

١. التجسير السميولوجي.

٢. الاتصال السميولوجي وغير السميولوجي.

٣. العلامات الطبيعية والعلامات غير القصدية.

٤. السميولوجيا والتأويل.

٥. السميولوجيا الخاصة والسميولوجيا العامة.

٦. سميولوجيا الدلالة وسميولوجيا الاتصال.

٢-٤-٢-١- التجسير السميولوجي:

على الرغم من الشهرة ذائعة الصيت التي يحتلها منجز إيكو السميولوجي، إلا أنه من الصعب تصنيفه ضمن تقليد محدد؛ وذلك لطبيعة عمله التوفيقية، فهو السميولوجي الأبرز الذي اشتهر بوصفه المجسّر للتقليدين البورسي والسوسيري، حيث أولى أهمية لنظرية بورس، مثلما أولى اهتماما بنظرية سوسير، ومن جانب آخر فإن إيكو متجذر في البنيوية بشكل كبير؛ لذا دمج الأعمال البنيوية (وخصوصا أعمال الشكلانيين الروس، وبارت، وغريماس) في مشروعه السميولوجي.

ومع هذا الارتباط الوثيق بالسميولوجيا الحديثة، ظل مشدودًا بقوة إلى التأملات السميولوجية في التراث، فراح يؤصِّل للنظرية من خلال حفرياته الممتدة إلى الفكر اليوناني، حتى إنه أطلق على بعض منجزها "النظرية السميولوجية"[١]، مثلما فعل مع الرواقيين، ووصف منجزهم بالمتجاوز للحديث.

(١) السابق، ص. ٧٦.

إن سميولوجيا إيكو تنتمي إلى كل فكر، وكل درس لساني سيميائي، فمكونات نظريته السميولوجية لا حدود لها، يمتح من التراث ومن الحداثة، من اللسانيات ومن فلسفة اللغة، من البنيوية ومن المنطق، من سوسير ومن بورس، من بارت ومن هيلمسليف، من سميولوجيا التواصل ومن سميولوجيا الدلالة.

٢-٤-٢-٢- الاتصال السميولوجي والاتصال غير السميولوجي:

أشار إيكو إلى أن موضوع السميولوجيا واسع جدا، ويشمل كثيراً من المواقف، وقد قدم تحديداً واسع الانتشار لحقل السميولوجيا، بأنه "كل شيء يمكن أن يُتناول بوصفه علامة"[١].

وبهذا يلتقي ويتبع بورس في شمولية السميولوجيا، وأن كل ما في الكون يمكن دراسته على أنه علامة، ويلتقي مع بارت في مسألة فتح السميولوجيا على كل المجالات، كما سبق وأن ألمعنا.

ولكن ما حدود السميولوجيا؟ ألا يُفترض أن يكون لها حدود تميزها عن غيرها؟ هل كل اتصال يندرج ضمن السميولوجيا؟

يجيب إيكو بالنفي، فليس كل اتصال سميولوجيا، فهناك أشكال اتصال غير سميولوجية، وعليه يقسم عمليات الاتصال إلى قسمين: الأول ما يشكل طرفاه الآلات، أي اتصال من آلة إلى آلة، وفي هذه الحالة، ولو كان هناك نقل لمعلومات فإن الإشارة ليست قادرة على التدليل، فتنتفي الدلالة، وبالتالي فهي خارجة عن الحقل السميولوجي.

(1) A Theory of Semiotics, p. 7.

أما القسم الآخر، فهو الذي يكون فيه المتلقي إنسانا، فهنا يصبح الاتصال ذا دلالة، حتى ولو كان المرسل أوالمصدر آلة[١]، وبالتالي فهو مندرج في الحقل السميولوجي.

ومرد إدراج إيكو لهذا القسم في الدلالة، يعود إلى مبدأ جوهري في نظريته؛ ونقصد به مبدأ التأويل، فالمتلقي في هذه الحالة يُناط به فعل تأويلي، ومن ثم يغدو الاتصال دلاليا.

٢-٤-٢-٣- العلامات الطبيعية والعلامات غير القصدية:

في سبيل توضيح مسائل العلامة يقدم إيكو ثنائية أخرى، يقسم فيها العلامات إلى علامات طبيعية، وعلامات غير قصدية، ويعني بالأولى "الأحداث الطبيعية ذات المصادر الطبيعية"، أما الثانية فهي "السلوك البشري الذي يصدره الإنسان دون قصد"[٢].

بالنسبة للأولى يمثل لها إيكو بعلامات طبيعية، مثل الدخان الذي نستدل به على النار، وآثار الحيوانات دليلا على مرورها[٣]، فهذه أفعال دلالية، والحياة اليومية مليئة بكثير من هذه الأفعال، لكن ينبهنا إيكو إلى أنه "ليس صحيحا أن كل فعل دلالي فعل سيميائي"[٤].

أما العلامة غير القصدية، المتصلة بالفعل الإنساني، فهي "العلامة التي يصدرها الإنسان بدون قصد، ويمكن أن يدركها آخر بوصفها علامة كاشفة عن شيء آخر"[٥]، حتى وإن كانت بغير وعي المرسل لسلوكه، وينطبق عليها ما انطبق على الاتصال الإنساني بالآلة كما مر.

(١) السابق. ص.٨.
(٢) السابق. ص. ١٦.
(٣) السابق. ص. ١٧.
(٤) السابق. الصفحة ذاتها.
(٥) السابق. ص. ١٨.

٢-٤-٢-٤- السميولوجيا والتأويل:

التأويل في نظرية إيكو هو عمادها، فهناك روابط عميقة بين السميولوجيا والتأويل، ذلك أنه لا يرى العلامة إلا بوصفها مؤولة بواسطة مؤول[١]، وهذا يفسر ما طرح سابقا حول اتصال الإنسان بالآلة، فهو يراه عملا دلاليا، وذلك لارتباطه بالتأويل.

وفي هذا يقتفي بورس في مفهومه للعلامة، وأنها لا تكون علامة إلا إذا توافرت على ثلاثة عناصر: الممثل والموضوع والمؤول[٢]، ولا بد من تفاعلها، وهذا التفاعل هو ما أسماه السيرورة التأويلية (semiosis)[٣]، ويأتي التأويل عند إيكو مرادفا لها.

إن العلامات "نتيجة مؤقتة لقوانين الشفرة المنظمة لعلاقات علامات مؤقتة للعناصر، يمكن دخول كل عنصر منها -ضمن أحوال خاصة بالشفرات- في علاقات أخرى لتأليف علامة جديدة"[٤]، وبهذا تنتج عملية التأويل علامات أخرى، والأخرى تنتج أخرى، وهكذا.

بيد أنَّ إيكو يطرح صنفين من عمليات هذه السيرورة التأويلية، الأولى النهائية والثانية اللانهائية، أما "عمليات السيرورة التأويلية اللانهائية للعلامة فهي الضمان الوحيد لإنشاء نظام سيميائي يستطيع الحد من جموحه بوسائله الخاصة"[٥].

٢-٤-٢-٥- السميولوجيا الخاصة والسميولوجيا العامة:

يميز إيكو، كعادته في الارتكاز على الثنائيات في التحليل، بين سميولوجيتين:

(١) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص. ٢٨٦.
(2) Collected Papers. 2. 228.
(٣) السابق: ٥. ٤٨٤.
(4) A Theory of Semiotics. p. 49.
(٥) السابق. ص. ٦٨.

الأولى يطلق عليها العامة، والثانية يطلق عليها الخاصة، أما العامة فهي التي تطرح مقولات عامة يمكن بواسطتها المقارنة بين الأنظمة المختلفة، ولا تدرس نظاما معينا، "فهي ذات طبيعة فلسفية"[٢]. والخطاب الفلسفي-كما يراه- ليس مفضلا للسميولوجيا فحسب، ولكنه بكل بساطة مؤسس.

أما السميولوجيا الخاصة فهي التي تدرس نظاما معينا، أي نحوًا "يخص نظاما معينا من العلامات"[٣]، وليس المقصود بالنحو هنا المفهوم الخاص باللغة، ولكنه يعني المفهوم العام للأنحاء، أي أنها إلى جانب قواعد التركيب والدلالة تحتوي أيضا على جملة من القواعد التداولية[٤]، فللغة نحوها، وللغة الصم نحوها، وكذلك علامات المرور، وغيرها من الأنحاء.

٢-٤-٢-٦- سميولوجيا الدلالة وسميولوجيا الاتصال:

يميز إيكو، من حيث الوظيفة السميولوجية، بين نوعين من السميولوجيا، الأولى سميولوجيا الدلالة، والثانية سميولوجيا الاتصال، وكل واحدة من هاتين تستند إلى نظرية مختلفة، فالدلالة تستند إلى نظرية الشفرات، بينما تنتمي الثانية إلى نظرية إنتاج العلامات[٥]، فما الفرق بين نظام الدلالة وفعل الاتصال؟

إن التمييز بينهما يعيدنا إلى تمييز سوسير بين اللسان والكلام، فاللسان نظام أو نموذج يحتذيه أفراد المجتمع ليبقوا ضمنه، أما الكلام فهو الممارسة الفردية لهذا النظام، وهو يختلف من فئة إلى أخرى ومن فرد إلى آخر، وإن كان الاختلاف لا يخرج عن قواعد لغوية وسلوكية، تجعل اللغة مفهومة للجميع.

(٢) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص. ٣٦.
(٣) السابق. ص. ٣٤.
(٤) السابق، الصفحة ذاتها.
(5) A theory of Semiotics. P. 4.

هذا التمييز استثمره إيكو- فيما يبدو- في تقسيمه هنا، فنظام الدلالة "نظام مستقل للعلامات، ذو سمة تجريدية مستقلة عن فعل الاتصال بين البشر"، أما فعل الاتصال بين البشر فإن "افتراض نظام دلالي له يعد شرطا أساسيا"[١].

والاتصال البشري ليس سوى نوع من أنواع الاتصال؛ فإيكو[٢] يقسم أنساق الاتصال إلى ثمانية عشر نسقا، منطلقا من أنساق الاتصال التي تبدو في الظاهر أكثر طبيعية وعفوية، وصولا إلى العمليات الثقافية الأكثر تعقيدا.

أما الأنساق فهي: سيميوطيقا الحيوان، والعلامات الشمية، والتواصل اللمسي، وسنن الذوق، والعلامات المصاحبة لما هو لساني، والسيميوطيقا الطبية، وحركات الأجسام والإشارات الدالة على القرب، واللغات المشكلنة، واللغات المكتوبة، واللغات الطبيعية، والتواصل المرئي، ونسق الأشياء، وبنيات الحكي، والأنواع السننية الثقافية، والأنواع السننية، والرسائل الجمالية، والتواصل الجماهيري، والخطابة.

٢-٥- جوليا كريستيفا ١٩٤١:

ناقدة سميولوجية، ومحللة نفسية فرنسية من أصل بلغاري، ولدت سنة ١٩٤١، وانتقلت عام ١٩٦٦ إلى فرنسا واستقرت فيها، واكتسبت شهرة واسعة بوصفها عالمة لسانيات.

انضمت إلى مجموعة "تِلْ كِلْ- Tel Quel" التي تضم زوجها فيليب سولير– Philippe Soller، ورولان بارت، وميشيل فوكو، وجاك ديريدا، وتعاونت مع رموزها في تقديم مشروع جماعي حول النقد الجديد، فنشرت

(١) السابق. ص. ٩.
(٢) حنون، مبارك: دروس في السيميائيات، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧م. ص ص. ٢٤–٢٥.

بين سنتي ١٩٦٦-١٩٦٧ أبحاثاً مهمة حول السميولوجيا والتناص في مجلتي تِلْ كِلْ ونقد-Critique الفرنسيتين[١].

يصف داسكال[٢] تصور كريستيفا السميولوجي بالمهم الذي استطاع أن يستقطب مجموعة كبيرة من السميولوجيين، وإذا كان تصور كريستيفا مهما من وجهة داسكال فإنه بالغ الأهمية في رأي سلفرمان: "داهمت جوليا كريستيفا المشهد الفلسفي، بطريقة بالغة الأهمية في العام ١٩٦٩ بمجلد من المقالات عنوانه سيمياء"[٣].

وتحت عنوان (الغريبة) كتب رولان بارت[٤] عن كريستيفا، واصفا عملها بأنه "يمثِّل اليوم النسق النهائي: إنه ينشط اندفاعها ويعطيها نظريتها"[٥]، وأشار إلى أن السميولوجيا "تدين إليها بالكثير"[٦]، وأنها الوحيدة القادرة على صنع سميولوجيا الدلالة.

٢-٥-١- أعمالها:

صدر لكريستيفا مجموعة من الكتب حول السميولوجيا والتناص والجنوسة، واحتلت، وما زالت، دراساتها من منظور التحليل النفسي لدى جاك لاكان- Jaques Marie Lacan، مكانة بارزة في الجدل النسائي المعاصر.

من أبرز أعمالها (السميولوجيا١٩٦٩)، و(الثورة في لغة الشعر١٩٧٤)، و(تعدد الأصوات ١٩٧٧)، و(الرغبة في اللغة ١٩٨٠)، وقد ترجم إلى

(١) للمزيد حول كرستيفا، انظر مقدمة: Kristeva، Julia: DESIRE IN LANGUAGE، A Semiotic Approach to Literature and Art، Edited by Leon S. Roudiez، Columbia University Press، New York، 1980.

(٢) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٦٩.

(٣) سلفرمان ج. هيو: نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢. ص. ٢٥٥.

(٤) بارت، رولان: هسهسة اللغة، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٩. ص ص. ٢٤٥- ٢٤٩.

(٥) السابق. ص. ٢٤٥.

(٦) السابق، الصفحة ذاتها.

الإنجليزية بعنوان (Desire in Language)، وهو كتاب جمع فيه أجزاء من كتاب السميولوجيا، وأجزاء من تعدد الأصوات، و(الشمس السوداء: الإحباط والسوداوية ١٩٨٩).

٢-٥-٢- إسهاماتها السميولوجية:

أسهمت كريستيفا في بناء النظرية السميولوجية إسهامًا كبيرًا، ويمكن إجمال أبرز إسهاماتها بالتالي:

١. السميولوجيا والتحليل النفسي.

٢. التناصية Intertextuality.

٣. التدليل والذات.

٤. السميولوجي والرمزي.

٥. الانفتاح السميولوجي.

٢-٥-٢-١- السميولوجيا والتحليل النفسي:

كمعظم المنظرين السميولوجيين، نهجت كريستيفا منهج التأليف لرفد نظريتها، فاستقت كثيراً من المبادئ والمفاهيم في نظريات مختلفة، وخصوصا الفرويدية والبنيوية والتفكيكية، لكن التأليف الرئيس في نظريتها كان بين السميولوجيا السوسيرية والتحليل النفسي[١] الذي سعت من خلاله إلى بناء سميولوجيا جديدة، أطلقت عليها السميولوجيا التحليلية (semanalyse)، وهي مركبة من لفظتين: sema بمعنى علامة، وanalyse بمعنى تحليل، بحيث يعني المصطلح التحليل السميولوجي.

(١) استعان فرويد بالأدب منذ بداياته النظرية الأولى، حيث ربط بين تحليل حالات مرضاه وقراءته لـ« أوديب ملكا» و« هاملت» و«الإخوة كرامازوف» لاحقا، وقد ترتب عليه تأسيس مفهوم أساسي لديه هو «عقدة أوديب». انظر: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ص. ٥٩ وما يليها. وسنتناول بالتفصيل دور فرويد في السميولوجيا في مبحث (الجذور المعرفية).

والتحليل السميولوجي يختلف عن السميولوجيا الأدبية، فبارت يميّز بينهما استناداً إلى المرجع "إذ إن الاختلاف الجلي بينهما يتركز على المرجع التحليل النفسي"[٢]، الحاضر في السميولوجيا التحليلية دون سميولوجيا الأدب.

٢-٥-٢-٢- الانفتاح السميولوجي:

ترفض كريستيفا موقف سميولوجيي التواصل (بويسنس، وبرييتو، ومونان) الذي يحصر السميولوجيا بالتواصل، مطالبة بفتح السميولوجيا على ميادين أخرى غيره[٣].

وإذا كان سميولوجيو التواصل استندوا، في رأيهم هذا، إلى مقترحات سوسير السميولوجية، فإن كريستيفا تستند إلى المقترحات نفسها؛ لإثبات العكس، فهي "لا تقبل التأويل الحصري للاقتراحات السوسيرية المعروضة من طرف[٤]" هؤلاء.

يقول سوسير: "إن اللسانيات يمكنها أن تصبح النموذج العام لكل سميولوجيا، رغم أن اللسان ليس إلا نسقا خاصا"، ويقول دولودال: "إن كريستيفا تتجاهل الجزء الأول من هذه الجملة وتتشبث بشكل خاص بالجزء الثاني منها"[٥]؛ وذلك أن الجزء الثاني يمكن تأويله، بوجود إمكانية بالنسبة للسميولوجيا "لكي تستطيع التخلص من قوانين دلالة الخطابات باعتبارها أنساقا للتواصل، وتفكر في ميادين أخرى للتدليل"[٦].

(١) استعان فرويد بالأدب منذ بداياته النظرية الأولى، حيث ربط بين تحليل حالات مرضاه وقراءته لـ« أوديب ملكا» و« هاملت» و«الإخوة كرامازوف» لاحقا، وقد ترتب عليه تأسيس مفهوم أساسي لديه هو «عقدة أوديب». انظر: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ص. ٥٩ وما يليها. وسنتناول بالتفصيل دور فرويد في السميولوجيا في مبحث (الجذور المعرفية).

(٢) بارت، رولان: نظرية النص المفهوم والمنظور، ضمن آفاق التناصية، ترجمة وتقديم، محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨. ص. ٥١.

(٣) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٦٩.

(٤) السابق. ص. ٦٩.

(٥) السابق، الصفحة ذاتها.

(٦) السابق، الصفحة ذاتها

إن هذا الرفض للتأويل السابق، واقتراح تأويل مخالف، يعد نقطة مركزية في نظرية كريستيفا، ليس على مستوى إدخال الدلالة في السميولوجيا فحسب، بل على مستوى نجاعة النظرية برمتها؛ لأن هذا المبدأ سيجعل من السميولوجيا أفقاً مفتوحاً يتوافق مع مبادئها النظرية، أما الاستمرار في تخصيص الأنساق السميولوجية من وجهة النظر التواصلية، فهو مشكل السميولوجيا المعاصرة بكاملها.

وعليه فالسميولوجيا هي "لحظة التفكير في قوانين التدليل، دون أن تبقى أسيرة اللغة التواصلية التي تخلو من مكان الذات"[١]، فلا مبرر لحصر السميولوجيا بالتواصل.

٢-٥-٢-٣- السميولوجي والرمزي:

"السميولوجي" و"الرمزي" وفقا لكريستيفا، "شكلان للعملية الدالة نفسها، واللغة تتشكل من خلال عملية دالة. ويتحدد نمط الخطاب قيد الدرس، بالشكلية التي تكون فاعلة في وقت معين"[٢].

وتشير كريستيفا إلى أن العلاقة القائمة بين السميولوجي والرمزي "علاقة جدلية"[٣]، فهما مترابطان بحيث ينتفي وجود أحدهما دون الآخر، أي أنهما "لا يعملان منفصلين"[٤] كما تؤكد في أكثر من مرة.

الرمزي عند كريستيفا يشير إلى علاقة الدال بالمدلول، وإن كانت هذه العلاقة في ظاهرها تشير إلى السميولوجي، استنادا إلى رؤية سوسير، إلا أن كريستيفا تنسبها إلى الرمزي، وعليه يقابل الرمزي عند كريستيفا السميولوجي عند سوسير.

(١) السابق. ص. ٧٠.

(٢) نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية. م. س. ص. ٢٥٦.

(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

(٤) السابق، الصفحة ذاتها.

والرمزي نتاج للكيفية التي يرتبط فيها الناس بعضهم ببعض، وهو "المسؤول عما ينبثق ضمن الأطر الاجتماعية واللسانية"، وبناء عليه فهو محدود بصياغته وحوافزه.

ولاستجلاء السميولوجي والرمزي بوضوح، ينبغي أن نعود إلى منطلق هذين المفهومين، لأن "هذا التعارض أساسي في نظرية كريستيفا "[١]، إذ يرتبط ما هو سميولوجي (من جهة تكوُّن النص أي ولادته) بالناحية النزويَّة والبدائيَّة وبالممارسات اللغوية التي تنتمي إلى الطفولة الأولى، أو إلى الفصام، ويطلق عليه أمومي-أنثوي، في حين يتعلق الرمزي بقانون اللغة (تنظيم الأدلة، النحو، علم الدلالة الخطي، الخطاب المشكل للظاهرة-النص) ويتحد كما بالأبوي- الذكري وهذا يتفق مع رأي لاكان[٢]، الذي يمكن أن نقابل مفهومي الرمزي والخيالي عنده بالرمزي والسميولوجي عند كريستيفا.

لكن الذي تضيفه، ويحتل أهمية خاصة في سميولوجيا الدلالة، هو قراءة النصوص الشعرية بوصفها عملية جدلية، تشكِّل نظامين منبثقين من النظامين السابقين، وهي بإعطائها الأهمية للنشاط السميولوجي، تعيد للشعر قدرته النَّزوية (الموسيقية، تشظيات المعنى، عمل الإدلال، المضادات)[٣].

٢-٥-٢-٤- التدليل والذات:

بما أن السميولوجي والرمزي شكلان للعملية الدالة، فإن كريستيفا[٤]

(١) ماريني، مارسيل: النقد التحليلي – النفسي، ضمن: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمه، رضوان ظاظا، عالم المعرفة، ٢٢١، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٧. ص. ٩٠.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) السابق. ص. ٩١.
(٤) نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية. م. س. ص. ٢٦٢

تحدد هذه العملية بثلاثة عناصر: السميولوجي والرمزي والتدليل، أما وحدة هذه العناصر فهي الذات، فالعنصر الرمزي يفرض الذات في غيابها، والعنصر السميولوجي يقدم الدوافع، في حين تمثل الذات" عتبة اللغة"، وعليه فإن "الذات ليست كيانا مفروضا ولا ذاتاً مركزية"[١].

وهذه الذات "منتشرة سلفا في عالم من الذوات"[٢]، وبالتالي فهي تفهم "بموجب تناصية يَنقش فيها نص الذات نفسه نقشا دالاً سيميائياً ورمزياً"[٣] وما ظهور مفهوم التناصية إلا نتاج هذا الأس في نظريتها.

٢-٥-٢-٥- التناصية :

ظهر مصطلح التناصية[٤] عند كريستيفا في مرحلة ما بعد البنيوية، مرتبطا بمنظري تِلْ كِلْ، ومنسجما مع التوجه السائد عند هذه الجماعة، الذي يأخذ شكل ردة فعل للدراسات البنيوية المحايثة، فتعزل النص عن محيطه، وهذا ما صرح به هؤلاء المنظرون من ضرورة "تجاوز الحرفي والشكلي أوالبنيوية"[٥]، إذ نجد أن هذا المفهوم يأتي دائما عند كريستيفا وجماعة تلْ كلْ "في سياقات ذات طبيعة نظرية عامة"[٦] مرتبطا بـ" الكتابة النصية" و"الإنتاجية" و"الكتابة المدهشة"، فالنص -كما تراه كريستيفا- ليس بنية مغلقة، وإنما إنتاجية تعتمد على العملية التناصية.

والتناصية ترتبط بمفهومي المحور الأفقي والمحور العمودي للنصوص[٧]، إذ يصل الأول المرسل بالمتلقي (لغات الإحالة)، ويصل الثاني النص

(١) السابق، ٢٦٣.
(٢) السابق. ص. ٢٦٤.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.
(٤) يقول أنجينو، مارك: « ونتفق على الاعتراف أن كلمة « التناصية» اخترعتها إن استطعنا القول. جوليا كريستيفا « (التناصية، بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره، ضمن آفاق التناصية. م. س. ص. ٦٥). ويقول ليون سمفيل: « جوليا كيستيفا هي التي أرست في الاستعمال مصطلح التناصية» التناصية، ترجمة وتقديم، محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨. ص. ٩٧)
(٥) سمفيل، ليون: التناصية. السابق. ص. ٩٦).
(٦) أنجينو، مارك: التناصية، بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره، ضمن آفاق التناصية. م. س. ص. ٦٨).
(7) Desire in Language. p.36.

بالنصوص الأخرى (لغات التضمين)، وعليه فالتناصية " أن يتقاطع في النص مؤدى مأخوذ من نصوص أخرى"[١]، و" كل نص هو امتصاص وتحويل لنص آخر"[٢]، أي أن العمل التناصي "اقتطاع " و"تحويل".

هذه العلاقة العمودية "للنص بسياقه تُضاعف العلاقة الأفقية للكاتب بقارئه ويقيم هذا الأخير حوارا مع نص مؤلف ما كان المؤلف قد بدأه مع أعمال معاصريه أو سابقيه"[٣].

هذا المفهوم غدا، فيما بعد، منطلقا للتناصية في أي تناول، بصفته الولادة الحقيقية لها، وكان السباقون إلى هذا المجال هم سميولوجيو الأدب، وفي مقدمتهم ميشيل أريفي وتزفتان تودوروف وجيرار جينيت- Jirar Jinit وميشيل ريفاتير- Michael Riffaterre، إضافة إلى رائد سميولوجيا الأدب رولان بارت.

٢-٦- ألجرداس جوليان غريماس (١٩١٧-١٩٩٣)

فرنسي من أصل ليتواني، ولد في تولا بروسيا لأبوين ليتوانيين منفيين، رحل في سنة ١٩٣٦ إلى فرنسا؛ لدراسة اللغة الفرنسية والقانون، وعاد بعد ثلاث سنوات إلى بلده.

وفي سنة ١٩٤٥ سافر مرة أخرى إلى فرنسا، فارًا من التجنيد الإجباري، ودرس الدكتوراه في المعجميات، وناقشها سنة ١٩٤٩، وكانت بعنوان (الصرعة سنة ١٨٣٠)، وهي دراسة وصفية للمعجم اللباسي في صحف الصرعة في تلك السنة.

(١) التناصية، السابق. ص. ٦٦.
(٢) السابق. ص. ٩٨.
(٣) السابق. ص. ٩٧.

عمل في التعليم متنقلا بين عدة جامعات، حيث بدأ عمله الأكاديمي في جامعة الإسكندرية بمصر، وهناك التقى رولان بارت، ونشأت بينهما علاقة وطيدة، ثم انتقل إلى جامعة أنقرة بتركيا سنة ١٩٦٢، وفيها تعرف على جورج ديميزيل، ثم جامعة بواتييه الفرنسية.

وفي سنة ١٩٦٥ انتقل للتدريس في مدرسة الدراسات العليا بباريس، بدعوة من شتراوس، وبقي فيها حتى وافته المنية سنة ١٩٩٢، بعد أن نشر إنتاجا غزيرا، وخصوصا في السميولوجيا السردية.

٢-٦-١- السميولوجيات السردية:

على الرغم من اشتهار كثير من السرديين في مجال مقاربة النصوص السردية في مناهج عدة، ومنها السميولوجيا، إلا أن غريماس مؤسس مدرسة باريس الشهيرة -في نظر كثير من الدارسين- رائد ما يعرف بالسميولوجيا السردية، إلى الدرجة التي دعت بعض الدارسين إلى التأكيد أنه "لابد لأي باحث في تاريخ السميولوجيا من التوقف عند الدور الذي لعبه في تطور السيميائية"[١]، ولا سيما السميولوجيا التطبيقية، فهو "يوازي في أهميته رولان بارت وإن كان أقل أهمية"[٢].

يقدم ميشيل كونسطانتيني[٣] غريماس في حوار أجراه معه بالقول: "إن الحديث اليوم عن السيميائيات يعني قبل كل شيء الحديث عن جريماص، سواء أكنا معه أو ضده... لماذا؟ لأنه بدون جريماص كان بروب سيظل أستاذا صغيرا بلا صدى، وسوسير مؤسس علْمٍ مبهم، ويلمسليف لسانيا دانماركيا غامضا، وبارت مجرد ناقد أدبي شديد السخاء".

(١) الزهراني، معجب: في المقاربة السيميائية، مجلة علامات، ج ٢، مج ١، ١٩٨٨، النادي الأدبي الثقافي، جدة. ص ١٥٧.
(٢) السابق. الصفحة ذاتها.
(٣) التجديتي، نزار: ألجرداس جوليان جريماس، من منهج تحليل الخطاب إلى خطاب المنهج، علامات في الأدب والنقد، مج ٨، العدد ٣٢، مايو، ١٩٩٩، النادي الأدبي الثقافي، جدة. ص. ١٩٧

ومع هذه المبالغة المتجاوزة، إلا أنها تشير إلى ما بلغه هذا السميولوجي من مكانة علمية وإعلامية، جعلته من أشهر السميولوجيين في هذا العصر.

٢-٦-٢- أهمية نظرية غريماس:

حققت السميولوجيا السردية كما قدمها غريماس شهرة واسعة، واستثمر منهجه كثير من دارسي النصوص وخصوصا النصوص السردية على مستوى المعمورة، وغدت نظريته بمثابة دُرجة في الفترة الأخيرة، ولم تأت هذه المكانة التي احتلتها من فراغ، وإنما نتيجة عوامل مهمة اشتملت عليها هذه النظرية، لعل من أبرزها ما يلي:

١. اعتمادها على مفاهيم اللسانيات والبنيوية في تأسيس مفاهيمها، فالسميولوجيا من منظور مدرسته تظهر باعتبارها "فرعاً للسانيات"[١]، وهناك من يرى أن "أغلب المفاهيم الأساسية والإجراءات مشتركة بين المقاربتين، أو على الأقل منقولة من هذه إلى تلك"[٢]، وهذه الوضعية -في رأي غريماس- نابعة من كون "اللغات الطبيعية، موضوع اللسانيات، تمثل موقعا تفضيليا بفعل أن النظم الدالة قابلة للترجمة إليها وليس العكس"[٣]، وليس خافيا تأثر هذه الرؤية بسوسير وأتباعه الذين ميّزوا اللسان عن غيره من الأنظمة السميولوجية.

٢. ارتباطها بالأدب الذي يحتل مكانة خاصة في حقل العلوم الإنسانية، وبالتالي فإن الإرث المنهجي كبير، والموضوع واسع ومتنوع، بحيث يكون قادرا على حمل المنهج.

٣. علمية المنهج، فسميولوجيته "التي طبقها على الأشكال القصصية

(١) كورتيس، جوزيف: مدخل إلى السميائيات السردية والخطابية، ترجمة جمال حضري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١ ، ٢٠٠٧. ص. ٦٢
(٢) السابق. الصفحة ذاتها.
(٣) السابق. الصفحة ذاتها.

السردية خاصة تأخذ شكل المنهج الصارم المبني على جملة من القواعد القانونية ذات السمة العلمية التجريدية"[١]، كما هو حال "المربع السميولوجي" الذي طوره وأصبح يعرف باسمه.

٢-٦-٣- أصول نظرية غريماس:

لم تنشأ نظرية غريماس من العدم، شأنها شأن جميع النظريات التي تستمد في بنائها من أصول متنوعة، وهذا ما يؤكده في كثير من المواضع، التي يشير فيها إلى إفادته ممن سبقوه، إن اتفاقا أواختلافا، أو تطويرا.

ويرد زلبرباغ[٢] سميولوجيا غريماس السردية إلى أصول متنوعة، يمكن تحديدها في المنابع التالية:

١. الإرث اللساني السوسيري.

٢. مدرسة براغ.

٣. أعمال برونودويل وهلمسليف.

٤. تراث الشكلانيين الروس، وخصوصا بروب.

٥. الإرث الفرنسي (تنيير وسوبو).

لكن هذه المنابع تختلف في قوة تأثيرها وحضورها في مشروع غريماس، فأثر اللسانيات والبنيوية والسرديات يبرز بشكل أظهر من غيرها، إضافة إلى أن كثيرا من هذه المنابع، إن لم تكن كلها، مندرجة ضمن هذه النظريات الثلاث؛ لذا فإننا سنتناول المنابع أوالأصول من خلالها، بوصفها المنابع الرئيسة.

(١) في المقاربة السيميائية. م. س. ص ١٥٧.
(٢) مدخل إلى السيميائيات السردية. م. س. ص. ٢٨.

كان منطلق غريماس لسانيات سوسير، ونموذج جاكبسون، وبنيوية بروب وشتراوس وسوريو، الذين أفاد منهم في بناء مربعه السميولوجي.

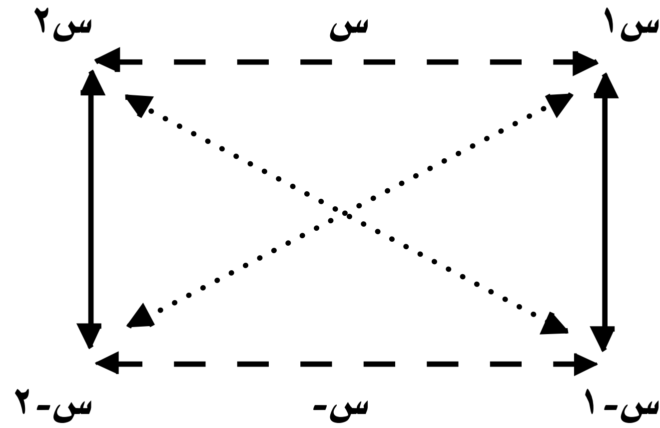
لكنه مع اعتماده الأرضية اللسانية، أضاف ما يبلور نظريته منتمية إلى ما بعد البنيوية، فقد سعى إلى الربط بين مشروعين غير متجانسين ظاهريا، وهما مشروع بروب ونموذج جاكبسون، وطبَّقهما على النصوص السردية.

إننا نتساءل مع جينيناسكا "عن العلاقات القادرة على ربط مشروعين غير متجانسين ظاهريا، يسعى أحدهما إلى توسيع مفهوم اللسانيات ليشمل دراسة الشعر، ويسعى الآخر إلى تطبيق المورفولوجيا البروبية أو ترسيمة المضطلعين الستة على النصوص "السردية" في الأدب المكتوب المعاصر بطريقة هي في بعض الأحيان آلية بسذاجة"، ويجيب جينيناسكا: "لقد أصبح مثل هذا التصور ممكنا بفعل الأبحاث التي تجرى بإشراف أ. ج. غريماس وانطلاقا من أعماله"[١].

٢-٦-٤- المربع السميولوجي:

إذا انطلقنا من كون العنصر (س١) في المستوى الأولي من تحديده دالا حاضرا، فإنه يقابل العنصر (س٢) بوصفه غيابا مطلقا للمعنى، ونقيضا للعنصر الأول، فإذا اعتبرنا المحور الدلالي متمفصلا بين سيمين متضادين، فإن كل عنصر من هذين العنصرين يشير إلى وجود عناصر متناقضة (س- ١) و(س- ٢)، وعليه يمكن تحديد البنية الأولية للتدليل وفق التالي:

(١) جينيناسكا، جاك: السيميائية، ترجمة محمد خير البقاعي، نوافذ، العدد ١٣، ١٤٢١هـ، النادي الأدبي الثقافي، جدة. ص. ٧٠.



وبناء على هذا المربع السميولوجي، يقسم غريماس العلاقات بين هذه العناصر إلى ثلاثة أنواع:

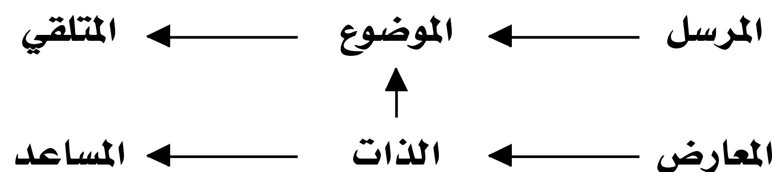
العلاقة الأولى: (……………….)، هي علاقة الاقتضاء، فوجود العنصر يقتضي وجود العنصر السابق، وتمثلها العلاقة بين (س١) و (س- ٢) والعلاقة بين (س٢) و (س- ١)

العلاقة الثانية: (— — —)، هي علاقة التضاد، وتمثلها العلاقة بين (س١) و(س٢)، والعلاقة بين (س-٢) و(س-١)

العلاقة الثالثة: (◄────►)، هي علاقة التناقض، وتمثلها العلاقة بين (س١) و(س- ١) والعلاقة بين (س-٢) و(س-٢).

٢-٦-٥- النموذج العاملي:

يتشكل النموذج العاملي عند غريماس، من ستة عناصر هي: المرسل/ الموضوع / المتلقي/ الذات/ المساعد/ المعارض، وذلك وفق الشكل التالي:



وينتج عن هذا النموذج ثلاثة مدارات:

الأول: مدار الرغبة، وهو مدار العلاقة بين الذات والموضوع[١].

الثاني: مدار التواصل، وهو مدار العلاقة بين المرسل والمتلقي[٢].

الثالث: مدار الصراع، وهو مدار العلاقة بين المساعد والمعارض، وتأخذ العلاقة هنا شكلين، إما تعزيز الرغبة وتسهيل التواصل، وإما علاقة تحقيق الرغبة والتواصل[٣].

٢-٦-٦- المنهج التأليفي:

أسس غريماس -كما يقول كورتيس- هذا النموذج مستخلصا قوائم بروب وسوريو اللذين قاربا الحكاية والمسرح بالمنهج البنيوي، حيث أفاد الثاني من الأول، ولتأكيد هذه الإفادة -التي لا ينفيها غريماس- يمكننا أن نتناول، بإيجاز، ما أنجزه كل من بروب وسوريو حول الوظائف والأفعال، ومقارنته بمنجز غريماس.

كانت الانطلاقة مع بروب[٤] الذي قسم الوظائف بالنسبة إلى الشخصيات إلى عدة دوائر:

١. دائرة فعل الشرير.

٢. دائرة فعل المانح.

٣. دائرة فعل المساعد.

٤. دائرة فعل الشخص المطلوب.

(١) مدخل إلى السميائيات السردية والخطابية. م. س. ص. ١٠٥.

(٢) السابق. ص. ١٠٩.

(٣) السابق. ص.ص. ١١٠-١١١.

(٤) بروب، فلاديمير: مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة وتقديم، أبو بكر باقادر وأحمد عبدالرحيم نصر، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ع ٥٦، ط. ١. ١٩٨٩. ص- ص ١٥٨-١٥٩. وفي هذا المؤلف الشهير اقترح بروب نموذجا وظيفيا يشتمل على عناصرمتغيرة وعناصر ثابتة، فالمتغيرة هي الأسماء والأوصاف، والثابتة هي دوائر الأفعال والوظائف التي تقوم بها الشخصيات. وقد حدد بروب من خلال دراسته لمائة حكاية إحدى وثلاثين وظيفة، ثم إلى سبع دوائر أفعال تشكل نسبة الوظائف إلى الشخصيات. يطرد حضور معظمها أو كلها في الحكايات معظمها

٥. دائرة فعل المرسل.

٦. دائرة فعل البطل.

٧. دائرة فعل البطل المزيف.

وقد أطلق عليها (دوائر) للخروج من مأزق تقابل الشخصيات والوظائف، أي توزيع الوظائف[١]؛ لأن التوزيع غير متساو بين الوظائف والشخصيات، مما يجعل تعريف الشخصيات بهذه الوظائف مستحيلا.

وعليه فإن هذه الدوائر توزع بين شخصيات الحكاية وفق ثلاثة احتمالات:

١. توازي دائرة الفعل الشخصية تماما[٢].

٢. تشترك شخصية واحدة في دوائر فعل عديدة [٣].

٣. توزع دائرة فعل واحدة بين شخصيات عديدة[٤].

وبعد قرابة عشرين سنة يقترح ايتين سوريو[٥] – E. Souriau ست وظائف للشخصيات المسرحية، مستلهما دوائر بروب، ليقدم التالي:

١. القوة الموضوعية الموجهة.

٢. الخير المرغوب فيه والقيمة الموجهة.

٣. ما يحصل للخير.

٤. المعارض.

٥. الحكم الذي يهب الخير.

٦. المساعد الذي يعزز القوتين السابقتين.

(١) السابق. ص. ١٥٩.

(٢) السابق. الصفحة ذاتها.

(٣) السابق. ص. ١٦٠.

(٤) السابق. ص. ١٦١.

(5) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language, p. 224.

ومن خلال مقارنتنا لهذه الوظائف بعوامل غريماس، نجد تشابها كبيرا بينها، وسنرى من خلال الجدول التالي، كيف أفاد هذا الأخير من سابقيه في بناء نموذجه العاملي بشكل يكاد يكون متطابقا:

وظائف بروب	وظائف سوريو	عوامل غريماس
البطل	البطل	الذات
المزيف	المعارض	المعارض
المرسل	الموضوع	الموضوع
المساعد	المساعد	المساعد
المانح	المرسِل	المرسِل
الشرير	المرسَل إليه	المتلقي

لكن غريماس، مع تصريحه بالإفادة من عمل بروب، يرى أن تحليله "يفتقر إلى الصرامة ويبرز ثغرات واضحة"[١]، وقد لاحظ على بروب عدم دقته في تحديد الوظائف، حيث يرى غريماس أن بروب انساق خلف الحالات باعتبارها وظائف، وهي ليست كذلك، ومثال ذلك "خروج البطل" الذي يعده بروب وظيفة، ويعده غريماس حالة لا وظيفة[٢].

إن غريماس على الرغم من عدم استنساخه وظائف بروب، إلا أنه استلهمها بصورة واسعة -كما يقول كورتيس- لكن أصالة فرضيته "تتمثل في انتقالها من ميدان الوظائف... إلى ميدان العوامل"[٣].

(١) مدخل إلى السميائيات السردية والخطابية. م. س. ص. ١٧.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) السابق. ص. ١٠٢.

غير أنه علينا ألا ننساق خلف التشابه الظاهر بين الوظائف، كما علينا ألا ننساق وراء نقد المنهج الذي وجهه غريماس لبروب، فالحقيقة أن غريماس من جهة، أفاد بشكل تأسيسي من منهج بروب، وإننا نكاد نجد مفاهيم بروب كلها أو جلها في السميولوجيا السردية، وخصوصا ما يتصل بالوظائف والشخصيات والعوامل، ومن جهة أخرى، فإن السميولوجيا السردية دفعت بهذا المنهج دفعة قوية، استنادا إلى ملاحظات شتراوس على بروب، و ما وصلت إليه البنيوية من توسع فيما بعد.

وعليه فإنه ما كان لنظرية غريماس أن تصل إلى ما وصلت إليه، دون الاعتماد على هذا الإرث الغني، وما كان للسميولوجيا السردية أن تصل إلى ما وصلت إليه لولا تطوير غريماس للنظريات السابقة، من خلال التأليف والاستحداث لكثير من المفاهيم والأدوات.

الفصل الثالث

الجذور المعرفية

ليست دراسة العلامة قصرا على الدراسات اللسانية، وإنَّما تتعداها إلى حقول عدة، إذ مثَّلت أهم المسائل في الفلسفة وعلم النفس والاجتماع وغيرها، فهي كما شكلت مسألة رئيسة في الدراسات الحداثية، احتلت الأهمية نفسها عبر تاريخ الفكر الإنساني، وفي جميع الحضارات. وإذا اختلفت المنطلقات النظرية من حضارة إلى أخرى، وتباينت الرؤى، فذلك راجع لاختلاف السياقات العلمية والحضارية والتاريخية.

إذن، يعد هذا التناول رئيسا في الحضارات المختلفة، وممتدا عبر التراث الإنساني، نجده في التراث العربي في حقول عدة، ويتجاوزه إلى اليونان منذ أفلاطون، الذي أولى العلامات ضمن نظريته اهتماما واضحا، وأكد أن للأشياء جوهراً ثابتاً، وأن الكلمة أداة التعبير عن الحقيقة، والعلاقة بين الكلمة وحقيقتها الدالة عليها (الدال والمدلول) ناتجة عن تلاؤم طبيعي، أو شبه طبيعي، وهذه الرؤية تنسجم مع فلسفة أفلاطون المتمحورة حول المحاكاة كما مر.

وإذا كانت السميولوجيا تمتح من تاريخ ضارب في القدم، فإنها اعتمدت في بنائها النظري على أصول قريبة ليست منبتَّة عن سياقها التاريخي، إلا أنها أظهر في التأثير، نتيجة النضوج الذي أفاد مما سبقه من جانب، ونتيجة القرب من جانب آخر، مع الأخذ بالاعتبار التحول العلمي الكبير الذي حدث في العصر الحديث.

وبما أننا تناولنا في مبحث سابق الإسهامات السميولوجية التراثية، فإننا سنتناول في التالي الجذور المعرفية الحديثة، أي منذ ولادة النظرية السميولوجية بشيء من التفصيل، مركزين على المصادر الرئيسة لهذه النظرية، والتي أصبحت محل إجماع المنظرين الغربيين في العصر الراهن.

٣-١- النموذج السميولوجي:

في بداية الحديث عن جذور السميولوجيا المعرفية، تجدر الإشارة إلى ملاحظتين مهمتين، لهما علاقة وطيدة في بناء النظرية السميولوجية، الأولى تتعلق بمنهج توحيد العلوم تحت علم جامع، يطلق عليه علم العلوم، والثانية تتعلق بانفتاح السميولوجيا على العلوم الأخرى، وتسربها في مفاصلها.

٣-١-١- علم العلوم:

هناك هاجس قوي في تاريخ الفكر، نلحظه عند تتبع الاهتمام الفلسفي باحتواء العلوم ضمن منظومة علمية واحدة. وقد أخذت هذه الرغبة أشكالا عدة، بحثا عن علم يمكن أن يكون موسوعة للعلوم كلها، بتعبير ليبنز، كما نجد في العصر الحديث تقاطعا بين الدراسات السميولوجية والدراسات التي كانت تروم إنشاء وحدة منهجية، أو رابطة جامعة بين العلوم.

كانت الفلسفة في بداياتها تنطلق من تعدد المناهج، فقد كان موقف أرسطو المنهجي متعددا لا موحدا، إذ يرى أن لكل موضوع منهجًا يناسبه، وعلى الرغم من شيوع تعاليم أرسطو في هذا المجال، إلا أنها "عورضت من مفكرين في القرون الوسطى وعصر النهضة"[١].

جاءت السميولوجيا معلنة عن نفسها بوصفها "العلم العام الذي يدرس الأنساق اللفظية وغير اللفظية، لتحل بذلك محل المنطق. وهذا ما دعا بورس إلى إيرادها مرادفة للمنطق؛ فهو "بمعناه العام مجرد تسمية أخرى للسيميوطيقا"[٢].

وعليه فإن السميولوجيا تمثل بالنسبة إليه إطارا مرجعيا، يتضمن

(١) غزول، فريال: علم العلامات (السيميوطيقا)، م. س. ص ١٥.
(٢) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص ٣٥. وانظر تصنيف العلامات لتشارلز بيرس، ترجمة فريال غزول، م. س. ص.١٣٧.

أي دراسة أخرى، يقول: "إنه لم يكن بمقدوري مطلقا دراسة أي شيء: الرياضيات، الأخلاق، الميتافيزيقا، الجاذبية، الدينميكا الحرارية، البصريات، الكيمياء، التشريح المقارن، الفلك، علم النفس، علم الأصوات، الاقتصاد، تاريخ العلوم، الهويست، الرجال والنساء، الخمر، القياسات، إلا بوصفها دراسة سميولوجيا"[١].

وبهذا يحقق بورس الحلم الفلسفي بإيجاد علم جامع للعلوم قاطبة، وهو الحلم الذي ظل يراود الفلاسفة منذ العهد اليوناني، حتى العصر الحديث، وإن كانت الجهود الأبرز في البحث عن علم العلوم ظهرت بشكل واضح في القرون الوسطى، وخصوصا المتأخرة منها، إذ ظهرت طروحات عدة تنقب عن علم جامع، من أبرزها وأقدمها ما قدمه روجر بيكون- Rager Bacon (١٢١٤- ١٢٩٣) الذي "دعا إلى علم إمبريقي، والإمبريقية عنده لا ترتبط بالعالم الخارجي فقط، بل بعالم الإنسان الداخلي كذلك، فالإشراق الداخلي أو الوحي الإلهي نوع من التجربة المعاشة، أو المعرفة الإمبريقية بالنسبة له وبذلك يكون علمه علما جامعا"[٢].

تلا هذه الخطوة أخرى، خطاها الأسباني رامون لول- Ramon Llull (١٢٣٥-١٣١٥) ، فهو وإن كان يعتقد بتمايز العلوم، "يرى أنَّ لكل علم قواعد ومفاهيم محددة ويمكن التعبير عنها أبجديا"، و"من ثمّ يمكن تركيبها كاللغة المتشكِّل ة من الحروف الأبجدية"[٣].

هذه الخطوة لقيت دفعا فيما بعد من ليبنز الألماني- Gottfried Leibniz (١٦٤٦-١٧١٦) الذي طور فكر لول السابق، فإذا كان لول ينطلق من المنطق

(1) letter to Lady Wellby، p. 32. & Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language، p. 85.
والهويست لعبة من ألعاب الورق.
(٢) غزول، فريال: علم العلامات (السيميوطيقا). م. س. ص ١٥.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

الأرسطي، معتقدا أن لكل علم أصوله الخاصة به، فإن ليبنزوسع من هذه الأصول، بحيث يرى أن "لكل العلوم أصولا جوهرية مشتركة "، والطريق إلى إتمام موسوعة العلوم هو تشكيل علامات تدل على هذه الأصول، "وقد استعان ليبنز بالرياضيات والجبر اللذين كشفا له عن دور العلامات في المنهج العلمي"[١].

لكن الفيلسوف الذي سبق ليبنز، وكان له أثر أكبر في هذه المسألة، هو الفرنسي رينيه ديكارت- Rene Descartes (١٥٩١-١٦٥٠) الذي كان "مهتما بالمنهج الكلي ومتأثرا بالرياضيات، إلا أن تأثره لم ينبع من رموز الجبر وعلاماته بل من علاقاته المنطقية والهندسية"، وبناء عليه فقد دعا إلى ربط جميع العلوم عبر قواعد هندسية[٢].

وفي القرن الثامن عشر يبرز الفيلسوف الفرنسي إيتيان دي كوندياك- Etienne De Condillac (١٧١٥-١٧٨٠) متحمسا "لمنهج موحد، وكان ينظر إلى الجبر ولغته الرمزية بوصفه النموذج الأعظم"، غير أن كوندياك يختلف عن ليبنز في أنه لا يخضع العلوم للغة واحدة، ولكنه كان يرى أن "لكل علم لغته وإن كان لجميعها منهج واحد في التحليل"[٣].

أما في أواخر القرن الثامن عشر، فيظهر الفيلسوف الفرنسي مركيز دي كوندورسيه- Marquis De Condorcet (١٧٤٣- ١٧٩٤) – داعيا إلى توحيد العلوم "في إطار لغة جبرية تستوعب كل التراكيب الفكرية ويمكن دراستها كما يدرس الجبر".

وفي القرن التاسع عشر، تصبح نظرية العلامات جزءا رئيسا في أي

(١) غزول، فريال: علم العلامات (السيميوطيقا)، م. س. ص. ١٦.

(٢) السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

(٤) السابق، الصفحة ذاتها.

كتاب فلسفي، يقول دولودال: "نظرية العلامات كانت في ذلك العصر تشكّل فصلا ضروريا في كل كتاب أو مؤلف فلسفي"[١].

في هذا السياق التاريخي، يأتي تشارلزساندرس بورس الأمريكي (١٨٣٩-١٩١٤) علامة فارقة في تحول المنهج الكلي إلى السميولوجيا، فيصوغ نظرية لعلم يمكنه أن يكون أساسا للعلوم، منطلقا من نقل "الاهتمام بالمنهج الكلي ودور الجبر المميز في تشكيله إلى مجال المعاني"[٢]، وهذا نتج عنه نظريته السميولوجيا التي أضحت فيما بعد، مصدرا رئيسا للنظرية الحديثة.

يطرح بورس تساؤلا: "هل نستطيع التفكير دون دلائل؟، ويجيب بالنفي القاطع، مستدلا على ذلك بأن "التفكير بواسطة الدلائل "هو وحده الذي يمكن الكشف عنه بواسطة وقائع خارجية"، أما الفكر الذي لا يتعرف عليه، فلا وجود له، والنتيجة- كما يرى مارسيليو داسكال[٣]- هي أن "كل تفكير ينبغي أن يكون، بالضرورة، بواسطة الدلائل"ويعتقد بالإضافة إلى ذلك، "أن كل تفكير هو دليل"، أي أن التفكير ذو صبغة سميولوجية بالضرورة.

ويرجح داسكال أن هذا النهج من الاستدلال هو المبرر الذي سمح بالتطابق، عند بورس، بين السيميوطيقا والمنطق الذي هو"بمعناه العام مجرد تسمية أخرى للسيميوطيقا"[٤]، أو اكثر من ذلك، كما يقول موريس- Morris: "التحليل المنطقي بالمعنى الأوسع للكلمة تحليل مماثل لتحليل الدلائل"[٥].

بيد أنه ينبغي التنبه إلى أن المنطق الذي يعنيه بورس هنا، هو المنطق

(١) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص ٨.

(٢) علم العلامات (السيميوطيقا). م.س. ص. ١٦.

(٣) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص ٣٤-٣٥.

(٤) السابق. ص. ٣٥. و انظر: Collected Papers. 2.227

(٥) السابق، الصفحة ذاتها.

العام لا الخاص؛ لأن هذا الأخير لا يعدو كونه "مجرد بعد من أبعاد السيميوطيقا"، أي أنه "علم ما هو على سبيل التقريب صادق بالضرورة، وذلك بالنظر إليه في علاقته بتمثيلات أي عقل علمي، لأجل أن تنطبق على أي موضوع أي لأجل أن تكون صادقة"[١]، وبهذا تغدو السميولوجيا مرادفة للمنطق بمفهومه العام، ومشتملة على المنطق بمفهومه الخاص الذي سبق تحديده.

ويتفق موريس مع بورس، فيؤكد على أن "التحليلين المنطقي والسميولوجي متماثلان إذا أخذ مفهوم المنطق في دلالته الواسعة"، أما إذا "أخذ بمعناه الضيق والخاص فإنه يكون في هذه الحالة مجرد بعد من أبعاد السيميائيات، ومجرد فرع من فروع التحليل السيميائي"[٢].

وفي السياق نفسه يأتي موريس ويسند إلى السميولوجيا أهمية مزدوجة، وهو يحاول إبراز الدور المركزي لها، في إطار مشروع توحيد العلوم، فمن جهة ما دام المطلوب من كل علم هو التعبير عن نتائجه بواسطة دلائل، والسميولوجيا "من حيث المبدأ لغة واصفة قابلة للتطبيق على كل أنماط الدلائل فإنها تظل جوهرية لأجل حل المشاكل المتعلقة بأشكال التعبير العلمي"[٣]، وهذا الدور الذي يسنده موريس إلى السميولوجيا، هو الدور ذاته الذي كان يقوم به أورغانون المنطق السابق.

ولا يختلف موقف كارناب- Carnap الذي يختزل الفلسفة في المنطق، مستبعدا المباحث الميتافيزيقية والسيكيولوجية من مجال نظريته، يقول: "مقابل الموضوعات السابقة ينحصر مجال بحثنا في المنطق"[٤].

(١) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص ٣٥-٣٦.
(٢) السيميائيات الواصفة. م. س. ص. ١١٩.
(٣) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٣٤.
(٤) نفادي، السيد: السيميوطيقا وعلاقتها بالفلسفة والعلم عند كارناب، عالم الفكر١، مج، ٣١، سبتمبر، ٢٠٠٢، الكويت. ص. ٦١

وبما أن كارناب يحتذي بورس وموريس، فإن المنطق عنده مرادف للسميولوجيا التي يعتمدها أداة منهجية للتحليل الفلسفي، مستبعدا الميتافيزيقيا وعلم النفس والأخلاق من مجال المعرفة.

فما هي مهمة الفلسفة عنده؟

إن مهمة الفلسفة عند كارناب: التحليل المنطقي (بمفهومه الواسع كما هو عند بورس) و"يضم بين جنباته المنطق الرمزي من ناحية، والسيميوطيقا من ناحية أخرى"، والهدف هو "تحليل كل المعرفة، وكل تقريرات العلم والحياة اليومية"[١]، وبتوسله هذه الأداة يسعى إلى بناء لغة فيزيائية، على أساسها يمكن رد جميع العلوم الأخرى إليها، بما في ذلك العلوم الاجتماعية، كعلوم النفس والاجتماع والتاريخ والاقتصاد وغيرها.

من خلال هذا كله، يسعى كارناب إلى تحقيق هدف أسمى وأبعد، وهو الهدف الذي ظل ماثلا أمام الفكر الإنساني: "تحقيق حلم وحدة العلوم"[٢].

هكذا، يتضح مما سبق أن الفكر الإنساني ظلَّ يبحث طوال تاريخه عن علم للعلوم، يربط بينها بما يمكن أن يكون موسوعة، و كان هناك، في القرن العشرين خاصة، "ميل عام نحو التكامل في مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية"، كما يقول بيرتالانفي- L. V. Bertalanffy (١٩٥٠)[٢]، مرده إلى "وصول فلسفة العلم إلى تحول يكاد يكون جذريا في نقضه لفلسفة العلم الكلاسيكية التي نظرت إلى الظواهر باعتبارها ذرات (...) لا من منظور كونها (نسقا) "[٤].

(١) السابق. ص. ٧٠.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) محسب، محي الدين: انفتاح النسق اللساني، دار فرحة للنشر والتوزيع، المنيا، ط١، ٢٠٠٣. ص. ٩.
(٤) السابق، الصفحة ذاتها.

وقد توصل الفكر الإنساني، عبر بحثه، إلى أن العلامات هي الطريق الأمثل لإيجاد هذا الرابط؛ لذا ظهر علم السميولوجيا بوصفه الوريث الأنسب لهذه الشمولية، وعليه لا يبدو غريبا انفتاح هذا العلم على كل العلوم، سواء في إرهاصاته ومصادره، أو في موضوعاته واتجاهاته، إذ استطاع أن يجمع كل العلوم من حوله، لقد غدت السميولوجيا "العلم العام" في هذا العصر.

٣-١-٢- الانفتاح السميولوجي:

تقع العلامة على خط التماس بين دراسات مختلفة، كما تقع على خط التماس بين دراسات الحضارات المختلفة من يونانية وهندية وعربية ومعاصرة، والعلامة هي محور السميولوجيا، سواء كانت لغوية أو غير لغوية، بوصف السميولوجيا علم العلامات.

ومن هنا تشكّل السميولوجيا "جزءا من محفل العلوم، لأنها تملك موضوعا خاصا، هو صيغ وقوانين الدلالة (المجتمع والفكر) وأنها تتبلور في موقع تقاطع علوم أخرى"[١] كعلم الاجتماع والرياضيات والتحليل النفسي واللسانيات والمنطق.

وبما أن السميولوجيا تقوم "بتبادل تطبيقي" مع هذه العلوم، فإنها تبدو "العماد الذي يقود العلوم نحو بلورة نظرية معرفة مادية"[١]، وهذا يفسر تسرُّب السميولوجيا -مثل اللسانيات من قبل- إلى العلوم الأخرى؛ مما أوجد سميولوجيات عدة في حقول عدة، ولم يعد غريبا أن نجد سميولوجيا لسانية وبنيوية ونفسية وشعرية وسردية ومسرحية وموسيقية وطبية، بل لم يعد غريبا أن نجد سميولوجيا حيوانية وآلية، وغيرها.

(١) علم النص. م. س. ص. ١٧.
(٢) السابق. الصفحة ذاتها.

هذا الانفتاح جعل السميولوجيا تدخل في جدل مع علوم عدة، أثَّرت وتأثرت بها، فكان لها نصيب في بنائها؛ لذا شكلت بعض هذه العلوم جذورا مهمة في بناء السميولوجيا، أو في فروع منها، مثل اللسانيات التي شكلت الجذر الأبرز في البناء السميولوجي برمته، والفلسفة والمنطق اللذين يشكلان الجذر الثاني الرئيس، وكذلك التحليل النفسي الذي احتل ركنا رئيسا في السميولوجيا التحليلية، والإنثروبولوجيا التي تسربت في بناء السميولوجيا السردية، وكذلك البنيوية والرمزية وغيرها.

وقد مثلت اللسانيات النموذج الأنجع للمناهج الحداثية، فانطلق البنيويون من اللسان، جاعلين منه أداتهم للمقاربة، سواء مقاربة الأسطورة (شتراوس)، أوالتحليل النفسي (لاكان)، أوالتحليل السميولوجي (كريستيفا)، أو تحليل القصة (بارت وغريماس)، أو غيرها.

ويعود هذا التبني إلى التأثر بسوسير من جهة، وإلى الانضباط العلمي الذي يتسم به اللسان من جهة أخرى؛ ما جعل كلود ليفي شتراوس يتبنى اللسان في مقاربته ويجعل اللسانيات في الصدارة بعد أن نشر مقاله (التحليل البنيوي في اللسانيات والأناسة ١٩٤٥)[١]، حيث عَدَّ اللسان في المرتبة الأولى بين الأنظمة الرمزية.

وبما أن السميولوجيا تستقي معظم مفاهيمها من اللسانيات؛ وبما أنها تتمحور حول العلامة، فهل يمكننا أن نقول: إن السميولوجيا ورثت اللسانيات في هيمنة النموذج؟

(١) التجديتي، نزار: السيميائيات الأدبية، لألجرداس ج. جريماس، مجلة عالم الفكر، ع ١، مج ٣٤، سبتمبر، ٢٠٠٥، الكويت. ص. ١٤٨.

٣-٢- جذور السميولوجيا:

يأتي في مقدمة أصول السميولوجيا المعرفية، ما أنجزه سوسير وبورس في الحقل السميولوجي الحديث، اللذان أطلق عليهما: أبوا السميولوجيا[١]، وإن كان بعض الدارسين يوسّعون من الأصول، بحيث تشمل جذورا عدة، كتودوروف[٢] الذي يضيف إليهما مصدرين آخرين، الأول يجمع فيه ظاهرية هسرل ورمزية كاسيرير، والثاني يخصصه للمنطق عبر تاريخه.

وتأتي إشارة تودوروف[٣] إلى ظاهرية هسرل عابرة، من خلال تطويره نظرية عامة للقصدية، وخصوصا في كتابه (البحوث المنطقية)، حيث "أسس في إطارها للعلامات والمعنى".

أما إرنست كاسّيرير– E. Cassirer، فقد أسس نظرية رمزية، وخصوصا في عمله (فلسفة الأشكال الرمزية)، ويُعيد تودوروف أهميته إلى اشتماله على مبدأين بغاية الأهمية: أولهما الدور الأداتي للسان، فهو لا يستخدم لتسمية الواقع، والثاني أن اللغة لا تنفرد بهذه الميزة، فهناك أنساق أخرى تشاركها، كالأسطورة والدين والفن والعلم والتاريخ، وهذه الأنساق هي التي تشكِّل العالم.

والحقيقة أن كاسّيرر، على الرغم من منطلقه الفلسفي، قدم تمييزات مهمة فيما يتصل بالسيمولوجيا، من ذلك تمييزه بين الرموز والعلامات، إذ يراهما "ينتميان إلى مجالين مختلفين كلية"[٤]، فالعلامات "تنتمي إلى العالم الفيزيائي (الملموس) للكائن، والرموز تنتمي إلى عالم الدلالة الإنساني"[٥].

(١) السيمياء والتأويل. م. س. ص. ١٤.

(2) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language. p. 87.

(٣) السابق. الصفحة ذاتها.

(٤) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٥٩.

(٥) السابق، الصفحة ذاتها.

ولا يكتفي كاسّيرير بعزل العالم الفيزيائي عن العالم الدلالي فقط، لكنه يقرر أن الإنسان لم يعد يعيش في العالم الفيزيائي، بل أصبح يعيش في شفرة رمزية.

والحقيقة أنه على الرغم من أهمية هذه الإسهامات في السميولوجيا، إلا أنها يمكن أن تدرج ضمن الروافد لا المنابع، وخصوصا أنها تصب في سياق مشترك في كثير من الأحيان.

كما أنَّ هناك مصادر لم يتناولها مؤرخو السميولوجيا ومنهم تودوروف، كانت بمثابة الجذور التي فتحت السميولوجيا على حقول عدة، ومن أبرزها التحليل النفسي الذي مثل منبعاً لتيار سميولوجي، لا يمكن إغفاله في الفترة الراهنة، ونعني به التحليل السميولوجي الذي ينسب إلى جوليا كريستيفا، وتناولناه من خلالها بشيء من التفصيل في مبحث سابق.

ولعل مرد إغفال السميولوجيين لهذا الجذر يعود إلى سبب تاريخي، حيث أن السميولوجيا التحليلية برزت في مرحلة ما بعد الحداثة، واستثمرت التحليل النفسي رافدا لها، فعلى سبيل المثال فإن القاموس الموسوعي لعلوم اللسان الذي أنجزه تودوروف وديكرو، وهو الأشهر في مجال التأريخ للسميولوجيا – صدر عام ١٩٧٢، بينما لم تعرف أعمال كريستيفا التحليلية على نطاق واسع، إلا بعد ١٩٧٤، سنة صدور كتابها (الثورة في لغة الشعر)، الذي تلاه كتابها (تعدد الأصوات ١٩٧٧)، ثم (الرغبة في اللغة ١٩٨٠).

وبناء على ما ذُكر أعلاه، فإننا سنقسم الحديث عن الجذور تقسيما مختلفاً، يحتفظ ببعض الجذور (سوسير وبورس)، ويضيف جذر التحليل النفسي، الذي لا يمكن إغفاله في هذه المرحلة.

(١) السابق. ص. ٦٠.

ومن جهة أخرى سنستبعد الحديث عن المنطق؛ كوننا سبق أن تناولناه بما يغني عن إعادة ذكره، ولأن بورس نفسه منطقي، ويشكل تيارٌ مرتبطٌ به الامتدادَ لهذا المنطق، وخصوصا أن بورس رادف بين المنطق والسميولوجيا، مرادفة امتدت من بعده عند موريس وكارناب، كما سنكتفي بما ذكر عن رمزية كاسّيرير، دون إدراج لها في هذه الجذور.

٣-٢-١- سيميولوجيا سوسير

إنَّ كل حديث عن جذور السميولوجيا في الدراسات الحديثة، لا بد من أن ينطلق من فردينان دو سوسير، السميولوجي الأشهر في تاريخ السميولوجيا، والرائد الحقيقي لهذا العلم عند كثير من الدارسين. فهو أول من تنبأ بظهوره، وأول من قدم تصورا لما سيكون عليه في المستقبل.

قدم سوسير في نظريته اللسانية ما يعد، بلا ريب، الأساس الذي انبنت عليه السميولوجيا، مثل اللغة والكلام، والتاريخ والوصف، والدال والمدلول، واعتباطية العلامة، والتمفصل المزدوج، وهي المفاهيم التي بنى عليها السميولوجيون اللسانيون نظريتهم، أمثال هيلمسليف، وبنفينست، ومارتينيه، وبارت.

ولأهمية ما طرحه واسبقيته بالنسبة إلى لفكر الغربي الحديث، يصبح ملائما تناول ما طرحه حول السميولوجيا بشيء من التفصيل، مع الأخذ بالاعتبار ما سبق طرحه من قبل، عند تناولنا لأعلام السميولوجيا.

تمثل سيميولوجيا سوسير جذراً رئيساً للسميولوجيا، وعلى الرغم من كونها تنطلق من اللسان، إلى أنها كانت أكبر أثراً من نظرية بورس في البناء السميولوجي، وليست نبوءته كل ما قدمه للسميولوجيا، كما يظن كثير من الدارسين، بل يمكننا القول إنه استطاع أن يضع اللبنات الأساسية للبناء

السميولوجي الحديث، وخصوصا ما يتصل بالسميولوجيا الفرنسية.

وفي حين قلّل بعض السميولوجيين من الدور الذي لعبه، رأى آخرون أنه صاحب الأثر الأكبر في تأسيس السميولوجيا، سواء من خلال تصوره الموجز للعلم الجديد، أو من خلال بنائه العلمي للسانيات التي غدت فيما بعد بوابة الولوج إلى السميولوجيا، وخصوصا أنه ربط بينهما ربطا لا تنفصم عراه.

قدم سوسير، إضافة إلى ما تناولناه سابقا عند الحديث عن الأعلام من مفاهيم أساسية – مفاهيم اخرى مؤسسة، منها مفهوم العلامة، واعتباطية العلامة، والعلامة اللسانية وغير اللسانية.

٣-٢-١-١-مفهوم العلامة:

في تعريفه للغة يقول: "اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار"(١)، مؤكدا على طبيعتها السميولوجية، ومن مقولته هذه انطلقت الدراسات السميولوجية الحديثة، محدثة قطيعة مع الدرس التقليدي، مثلما حولت مجرى الدرس اللساني إلى آفاق أرحب.

تتكون العلامة عند دو سوسير(٢)، كما مر، من صورة سمعية ومفهوم؛ أي فكرة تقترن بالصورة السمعية، فكلمة (كتاب)، على سبيل المثال، علامة لسانية مكوّنة من صورة سمعية، وهو الإدراك النفسي لتتابع الأصوات(ك- ت- ا- ب)، ومفهوم وهو مجموع الصفات الدلالية (ورق-كلمات مطبوعة-رسالة...)

ولكن سوسير(٣) يفضل إطلاق دال (Signifiant) ومدلول (Signifié) بدلا من صورة سمعية ومفهوم، ويعلل هذا بأن للمصطلحين "فضلا لإبراز

(1) Course in general linguistics. p. 16.

(٢) السابق. ص. ٦٦.

(٣) السابق. ص. ٦٧.

التقابل الذي يفصل بينهما أو بينهما وبين المجموع الذي ينتميان إليه"، كما أن العلاقة بين المفهوم والصورة علاقة اتحاد تام.

إذن، العلامة اللسانية تتكون من دال ومدلول متلازمين، لا انفصال بينهما، ويرتبطان بعلاقة اعتباطية، أي تواضعية غير معللة، "فالرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول رابط اعتباطي"[١]، والعلامة تقسيم للواقع عن طريق الاصطلاح، بخلاف ما يظن كثير من مستخدمي اللغة من أن العلامة اللسانية اسم للواقع.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن العلامة عند سوسير تتكون من مفهوم وصورة سمعية، لا من اسم و شيء؛ لأنه يرى أن العلامة لا تجمع "بين شيء واسم، بل بين مفهوم وصورة سمعية"[٢]، وبالتالي فهو يقصي المرجع، أوالواقع الخارجي الذي تشير إليه العلامة.

٣-٢-١-٢- اعتباطية العلامة:

اعتباطية العلامة من المفاهيم المهمة عند السميولوجيين، ويعد سوسير أبرز من نبّه إليها في العصر الحديث، وإن كانت تاريخيا سابقة له بكثير، لكنه أولاها اهتمامًا خاصًا، و بنى عليها كثيرًا من المفاهيم.

أكد سوسير أكثر من مرة أن" العلامة اللغوية اعتباطية"[٣]، أو بعبارة أوضح: "العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية"[٤]؛ أي عرفية، تعارف عليها المجتمع. ولتوضيح هذا المفهوم يمثّل بكلمة (أخت)، حيث يشير إلى أن مفهومها "لا تربطه أية صلة داخلية بالأصوات أ- خ- ت "[٥]، فكان من

(١) السابق. الصفحة ذاتها.
(٢) السابق. الصفحة ذاتها.
(٣) السابق. الصفحة ذاتها.
(٤) السابق. الصفحة ذاتها.
(٥) السابق. الصفحة ذاتها.

الممكن أن تمثِّله أي أصوات أخرى، مستندا إلى الاختلافات التي نراها بين اللغات نحو المسميات أنفسها.

ولا يكتفي بإثبات الطبيعة الاعتباطية للعلامة، بل يراها ميزة تؤدي الدلالة بشكل أفضل من غيرها، فالعلامات "المتسمة بالاعتباط التام أفضل من غيرها في أداء الدلالة "[١]، وهذا يضمن استمرارية اللغة.

وينسحب هذا على الكتابة أيضا، حيث يشير، ومن قبيل المقارنة، إلى أن "العلامات الكتابية اعتباطية فلا صلة مثلا بين رسم التاء وصوتها"[٢]، وإنما الصلة ناجمة عن اصطلاح عرفي.

هكذا، نجد أن هذا المبدأ يحتل أهمية كبرى في رؤية سوسير وتصوره السميولوجي، ومن جاء من بعده في الاتجاهات السميولوجية المتنوعة، حتى غدا محور العلامة التي بدورها تمثِّل محور اللسان، الطريق الوحيد للسميولوجيا، وهو الذي يستند إليه سوسير في موضوع السميولوجيا اللغوية وغير اللغوية، فما تندرج علاماته تحت هذا المبدأ، فهو مندرج تحت مظلة السميولوجيا، وما خرج عنه من العلامات، فإنه خارج عنها.

وعلى الرغم من أن بعض الكلمات تقرع آذاننا بجرس موحٍ، إلا أن سوسير[٣] يعيدنا إلى أصلها مشيرا إلى أن "هذه السمة ليستْ أصيلة فيها (...) ثم إن خصائصها الصوتية، أو بالأحرى ما ننسبه إليها من تلك الميزات، إنما هو ناتج طبيعي لتطور نظامها الصوتي"، وهذا يعني أن الارتباط، وإن كان في ظاهره طبيعيا، فإنه عرفي بالنظر إلى أصل الوضع.

أما من يرى أن صيغ التعجب تقوم على رابط ضروري بين الدال والمدلول،

(١) السابق. ص. ٦٨.
(٢) السابق. ص. ١١٩.
(٣) السابق. ص. ٦٩.

فإن سوسير يفنّد رأيه، مقلِّلا من خطر هذه الصيغ مقارنة بسابقتها، فهو ينفي "وجود أي رابط طبيعي في معظمها بين الدال والمدلول"[١]، ويدلِّل على ذلك بالاختلاف الذي نجده بين طرق التعبير في اللغات المختلفة، إضافة إلى أن معظم "ألفاظ التعجب كانت يوما ما ألفاظا محددة المعاني"[٢]، وهكذا يعيد ألفاظ التعجب -كما أعاد الكلمات المحاكية- إلى أصلها الوضعي.

ومع تبني سوسير مبدأ الاعتباطية، إلا أنه لا يطلق هذه الاعتباطية إطلاقا تاما، وإنما يسمها بالنسبية، إذ "ليس هناك لغة تخلو من المبرر، أما تصور لغة يبرر فيها كل شيء فهو مستحيل"[٣].

وهذا المبدأ ينسحب على الكلمات المحاكية للصوت أيضا، فهو يراها اعتباطية، وإن كانت نسبية كسابقتها، فهي "ليست نادرة فحسب، لكنها تشتمل على قدر من الاعتباطية، ولا تعدو كونها محاكاة مقاربة، ومن ثم فهي اصطلاحية إلى حدٍ ما في بعض الأصوات"[٤]، فهي، وإن كانت محاكية صوتيا، فإنها من خلال التواضع، حيث إن الناس هم الذين اختاروا هذه المحاكاة، وتواضعوا عليها.

٣-٢-١-٣- أهمية مبدأ الاعتباطية للسميولوجيا:

يحتل هذا المبدأ أهمية كبرى في رؤية سوسير وتصوره السميولوجي، ومن جاء من بعده في الاتجاهات المتنوعة للسميولوجيا، فهذا المبدأ محور العلامة التي تمثِّل أيضًا محور اللسان الطريق الوحيد للسميولوجيا، وهو الذي يستند إليه سوسير في موضوع السميولوجيا اللغوية وغير اللغوية، فما اندرجت علاماته تحت هذا المبدأ، فهو مندرج تحت مظلة السميولوجيا،

(١) السابق. الصفحة ذاتها.
(٢) السابق. ص.٦٩– ٧٠.
(٣) السابق. ص. ١٣٣.
(٤) السابق. ص. ٦٩.

وما خرج عنه من العلامات فإنه خارج عنها؛ لذلك تساءل عن إمكانية إدراج الأنماط التعبيرية القائمة على العلاقة الطبيعية في السميولوجيا[١]، مقررا أنه في حالة إدماجها في السميولوجيا، فإنها لن تكون من موضوعاته الرئيسية التي "ستكون بلا شك العلامات القائمة على الاعتباطية"[٢].

كما أن الاعتباطية تشكِّل الأساس الخفي الذي بنى عليه سوسير مفهوم التمفصل المزدوج، وطوَّره مارتينيه، فيما بعد، وخصوصا توزيع الدراسة بين مكونين للوصف اللساني، أحدهما الصوتي والآخر الدلالي[٣].

ومن زاوية أخرى يشكِّل هذا المفهوم أهمية في النظر إلى اللغة بوصفها نسقا، يمتلك تنظيمه الداخلي، فإذا كانت العلاقة في العلامة طبيعية لا اعتباطية، فهذا يعني أنها قادرة على تفسير نفسها، دون الحاجة إلى العلاقة بغيرها من العلامات، وهذا يناقض مبدأ النسق[٤].

٣-٢-١-٤- المآخذ على مفهوم الاعتباطية عند سوسير:

لم يكن هذا المفهوم السوسيري لاعتباطية العلامة -مع جوهريته- محلَّ إجماع السميولوجيين، بل إن هناك اعتراضات جوهرية على هذا المفهوم، نجدها عند أعلام كبار، أمثال رومان جاكبسون، وبنفينست، وشتراوس، ودريدا وغيرهم.

وقبل الحديث عن المآخذ على المفهوم، نشير إلى اعتراض جاكبسون[٥] على نسبة الاعتباطية إلى سوسير، إذ يرجعها إلى أبعد من ذلك، فيرى أن

(١) السابق. ص. ٦٨.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(3) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language. P. 131.
(٤) السابق، الصفحة ذاتها.
(٥) ناظم، حسن: مفاهيم الشعرية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م. ص ٥٦. الحقيقة أن سوسير لم يدع اكتشاف هذا المبدأ، بل إنه أشار إلى أنه « لا نزاع على مبدأ الاعتباطية. لكن كثيرا ما يصبح اكتشاف حقيقة ما أسهل من موضعتها المكانة اللائقة»
Course in general linguistics.p. 68.

اعتباطية الدليل اللساني على المستوى التاريخي، ترجع إلى اليونان ولا سيما أفلاطون، وديموقريطس، ومن بعدهما الرواقيون الذين رأوا أن الاتفاق أو الصدفة أنتجا أسماء الأشياء.

والحقيقة أن مفهوم الاعتباطية ليس حديثا، بل إنه من أكثر المفاهيم اللسانية تناولا عبر التاريخ، وقد تناوله أفلاطون في محاورة كراتيلوس، إلا أن أفلاطون، وإن كان أولى العلامة ضمن نظريته اهتماما واضحا، يؤكد على أن للأشياء جوهراً ثابتاً، وأن الكلمة أداة التعبير عن الحقيقة، وبالتالي فإن العلاقة بين الكلمة وحقيقتها الدالة عليها (الدال والمدلول) ناتجة عن تلاؤم طبيعي[(١)]، كما تناول الأصوات اللغوية من خلال ما تمتاز به الأصوات اللغوية من خواص تعبيرية، أما من كان يرى اعتباطية العلامة فهم السفسطائيون، وهذا واضح من خلال المحاورة.

إذن، هناك تأملات في هذه العلاقة بين الدال والمدلول، ممتدة عبر التاريخ، وإن كان المتتبع للاشتغالات حول العلامة عبر تناوله تاريخيا لهذه المسألة، يجد الغلبة تميل إلى الاعتباطية، وأن العلاقة بين الدال والمدلول ليست علاقة تلاؤم طبيعي.

ويقرر ليفي ستروس "أن الرمز اللغوي إذا كان اعتباطيا مسبقا، فإنه لا يظل كذلك مؤخرا، أي أننا إذا أخذنا في الاعتبار الكلمة اللغوية بعد استعمالها، لاحظنا أنها تفقد خاصية التعسف والاعتباط، ولا يصبح المعنى الذي نعزوه لها مجرد وضع اصطلاحي"[(٢)].

وبهذا يلتقي ستروس مع سوسير في مسألة نسبية الاعتباط، وعدم

(١) انظر: ص. ٤١ وما يليها.
(٢) فضل. صلاح: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢. ص. ٤٣.

إطلاقها، حيث تكتسب علاقة فيما بعد، تمنع على الفرد التغيير والتبديل بسبب سلطة الجماعة، وهكذا تصبح الاعتباطية سمة مؤقتة للغة.

ويرى بنفينست أن العلاقة بين الدال والمدلول ضرورية وليست اعتباطية، ويأخذ على سوسير أنه انزلق من التفكير في الاسم إلى التفكير في الشيء؛ لأن الطابع الاعتباطي الذي تحدث عنه، ليس إلا سمة تميز علاقة الدال بالشيء الذي يدل عليه لا بالمدلول أوالتصور نفسه"[(١)]، أي أنه يفرق بين المدلول والمرجع، ويرى أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست اعتباطية، وإنما الاعتباطية في العلاقة بين الرمز والمرجع، ويحدد "أن العلاقة الوحيدة المتعسفة والطارئة في اللغة هي علاقة الرمز[(٢)] بالشيء الخارجي الذي يشير إليه في حالة وجوده المتعين"[(٣)].

ويتناول رولان بارت[(٤)] الاعتباطية بشيء من الحذر، فحين تناول اللسان عرفه بأنه "نظام من الأعراف"، واستدرك بوصفها (جزئية الاعتباط، أو بعبارة أصح غير مدفوعة) وبالتالي فإن النظام "يقاوم التعديلات الفردية، باعتباره مؤسسة اجتماعية".

وأيا كانت المواقف من مفهوم الاعتباطية عند سوسير، فإنّه شكّل عنصرا مهما في البناء السميولوجي، واعتمد عليه كثير من السميولوجيين في توسيع السميولوجيا للتوسل بها في مقاربة الفنون المتنوعة.

ولا يقتصر دور سوسير في البناء السميولوجي على ما ذكرنا هنا، إلا أننا -سعيا إلى عدم التكرار- نحيل إلى ما تناولناه سابقا في مبحث الأعلام.

(١) إبراهيم، زكريا: مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م. ص. ٥١.
(٢) تجدر الإشارة إلى أن سوسير يطلق عليه الرمز قصدا، وذلك للتفريق بين الدال والرمز، فهو يرى أن الرمز يتضمن علاقة سببية بمدلوله، بخلاف الدال اللغوي الذي تكون فيه العلاقة بمدلوله اعتباطية. انظر: Course in general linguistics، p. 68
(٣) نظرية البنائية في النقد الأدبي. م. س. ص. ٤٣.
(4) Elements of Semiology، P. 14.

٣-٢-١-٥- العلامة اللسانية وغير اللسانية:

ركَّز سوسير على العلامة اللسانية، لكنه لم يقصر العلامة على اللسان، فهو يرى أن ثمة منظومات أولية كثيرة من هذا النوع، مثل علامات الطرق، والإشارات الضوئية، والرموز الدينية، وأبجدية الصم والبكم، والإشارات العسكرية، وغيرها. ويجعل هذه العلامات كلها من أشكال العلامات السميولوجية، كما أن العلاقة بين الدال والمدلول فيها اعتباطية، غير معلّلة أيضا، تماما كالعلاقة في العلامة اللغوية.

وعليه فإن السميولوجيا مظلة، تشمل العلامات اللسانية وغير اللسانية، وليست اللسانيات سوى "فرع من فروع السميولوجيا"، وسوف تطبق عليها قوانينها عند اكتشافها[١]، لكنه يعود ليؤكد أن اللسان نظام أفضل من كل الأنظمة السميولوجية؛ لأنه في نظره "أهم هذه الأنظمة جميعًا"[٢]، بل إنه يلح على أن العلامة لا تكتسب مفهومها خارج اللسان؛ لذا لا يمكن فهم العلامة (أي علامة) دون المرور بالعلامة اللغوية.

هذه المفاهيم أضحت فيما بعد، هيكل نظرية السميولوجيا، نجدها في السميولوجيا بكل فروعها وتوجهاتها، فالسميولوجيا انبنت على أساس لغوي، وهذا ما أكده سوسير نفسه من أن السميولوجيا "مبنية على اللسان"، فليس خافيا الآن أن فهم العلامة اللسانية هو السبيل إلى فهم العلامة السميولوجية، وهذا ما أكده بارت فيما بعد من أن السميولوجيا "استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات"[٣].

(1) Course in general linguistics, p. 16.

(٢) السابق. الصفحة ذاتها.

(٣) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٢٠.

٣-٢-١-٦- اللسان والكلام:

إذا كان سوسير يميِّز بين اللسان والكلام، بأن اللسان ، كما مر، عمل جماعي، نتاج ممارسة الأفراد في أي مجتمع[١]، بينما يشكِّل الكلام الممارسةَ الفرديةَ لهذا العمل الجماعي، وهو مختلف بحسب الحالة والجماعة، دون خروج على القواعد اللغوية والسلوكية بحدها الأدنى، الذي يضمن بقاء الاتصال، وهذه الثنائية لا تعني الانفصال، فلا وجود لأحدهما دون الآخر.

لقد أسهم التمييز بين اللغة والكلام في انطلاق السميولوجيا في بداياتها، ووفق رولان بارت فقد "أسدى عند بداية ظهوره كثيرا من الخدمات، وإنه مكَّن السيميولوجيا من الانطلاق"[٢]، لكنه يستدرك بأن هذه الانطلاقة مرحلية، بعد ذلك يغدو "التمييز بين اللسان والخطاب (...) شيئا ينبغي (التنكر له)"[٣].

٣-٢-١-٧- الاتصال اللغوي:

شدد سوسير على ضرورة وجود شخصين على الأقل للاتصال، وهو ما يحقق اكتمال دورة الكلام، وقد رأينا كيف وصف تحول العملية من نفسية خالصة إلى مادية خالصة، هي إصدار الأصوات، ثم تسلك طريقا معاكسا في تحولها إلى ذهن الآخر، فتبدأ بعملية مادية خالصة هي الاستماع، ثم تتحول إلى نفسية خالصة.

هذه الدورة ذات أهمية خاصة في البحوث السميولوجية، ما دعا داسكال[٤] إلى جعلها نقطة "انطلاق كل بحث سيميولوجي"، تماما مثلما كانت من قبل، نقطة انطلاق كل تحليل لساني.

(١) يشير بول ريكور إلى أن سوسير تأثر كثيرا بدوركهايم الاجتماعي، لذا عرف سوسير اللغة بأنها فرع من علم الاجتماع، انظر:
Interpretation Theory, Discourse and The surplus of meaning p. 3.

(٢) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٢١.

(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

(٤) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٢١.

٣-٢-٢- سيميوطيقا بورس:

يعود الجذر الثاني من جذور السميولوجيا إلى سيميوطيقا بورس، وإذا كان هناك من يعيد تأسيس السميولوجيا إلى سوسير، فإن بورس يعد عند كثير من الدارسين المؤسس الحقيقي للسميولوجيا، وذلك لأنه قدم نظرية متكاملة، كان لها أثر كبير في توجيه السميولوجيا فيما بعد، نجد هذا الأثر عند سميولوجيي الدلالة، ومن انتهجوا ربط السميولوجيا بالتأويل، ومن قاربوا العلامات غير اللسانية كالصورة والإشهار والموسيقا وغيرها.

ويرجع أوزوالد ديكرو[١] أهمية مشروع بورس السميولوجي إجمالا إلى نقطتين رئيستين:

أ. ثلاثية العلامة، حيث تتكون من ثلاثة عناصر، هي الممثل والموضوع والمؤول، ويرتبط بهذه النقطة السيرورة التأويلية، فالعلامة لا تُعد علامة إلا إذا كانت قادرة على تحويل نفسها إلى علامة أخرى، ويعلق تودوروف على ذلك بأن هذا التصور يعتنق "العمل السيميائي اللامتناهي".

ب. ينوع بورس العلامات، ولا يقصرها على اللسان، لذا يوصلها إلى (٦٦) نوعا وفق المنطق الرياضي، وإن حظيت بعض العلامات باهتمام خاص كالرمز، والإيقون، والمؤشر.

غير أن مشروع بورس، إذا مارمنا الغوص فيه، يقدم أكثر من هاتين النقطتين، فهو ينطلق من فلسفة عامة، كما مر، ينطلق فيها من المقولات[٢] الكلية، ويصنِّف العلامات استنادا إلى هذه المقولات تصنيفات متعددة ومنطقية، قسمها إلى ثلاث رئيسة[٣]:

(١) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص ص. ٢٨٩–٢٩٠.

(2) Collected Papers. 8.334.

(٣) الماكري، محمد: الشكل والخطاب– مدخل لتحليل ظاهراتي. م. س. ص. ٤٣.

الأولى، وهي ما توجد بذاتها، دون نسبة إلى شيء، وتشكِّل الكيفيات الشعورية، أي أنها وجود الشيء بذاته.

والثانية ما توجد بذاتها، نسبة إلى شيء ثان، دون اعتبار لثالث، وهذه تشكِّل مقولة الواقع أوالوجود، أو الارتباط بعالم الموجودات، أي صيغة الوجود المتعلق بما قبله.

والثالثة ما توجد بذاتها، موجدة نسبة بين ثان وثالث، من خلال القانون الذي يحكم الوقائع، وهو الوجود المتوقع بناء على أنه محكوم بقانون يضبطه، أي صيغة الوجود المتعلق بما بعده، وتشكِّل كلَّ الأشكال والعمليات الذهنية الواعية، كالتفكير والاتصال، وعلى رأسها العلامة.

وهذه المقولات الثلاث تفسر ثلاث صيغ للوجود يمكن "رؤيتها مباشرة في عناصر كل ما هو حاضر في الذهن في أي وقت بطريقة أو بأخرى"[١]، فالعلامة هي نموذج المقولة الثالثة، وهي بتعريف بورس "شيء ينوب لشخص عن شيء، نتيجة صلة معينة، فيخاطب الشخص شخصا، ليوجد في ذهنه علامة مكافئة"[٢]. ومن هذا المفهوم للعلامة وعلمها، أخذ يدرس الرموز ودلالتها وعلاقاتها في جميع الأشياء والموضوعات الطبيعية والإنسانية.

وإذا كان سوسير قد حصر العلامة بالثنائية الشهيرة بين الدال والمدلول، فإن بورس قد أعطاها بعداً أكبر، إذ أكد أن العلامة لا تكون إلا ثلاثية، وفق العناصر التالية:

- الممثل Representamen
- الموضوع Objet
- المؤول. Interpretant [١]

(١) السابق، الصفحة ذاتها.

(2) Collected Papers. 2. 228.

وقد أطلق عليها تجريدا أيضا: الأولية (Firstness)، والثانوية (Secundness)، والثالثية (Thirdness)[٢]، والعبرة بتفاعل هذه العناصر لا بانعزالها، وهذا التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة يطلق عليه السيرورة التأويلية (semiosis)[٣].

وبناء على هذا التقسيم الثلاثي، يقسم السميولوجيا إلى ثلاثة عناصر رئيسية[٤]: الأول يطلق عليه: النحو الصافي، ووظيفته دراسة كيفية تجسيد العلامة للمعاني، والثاني يطلق عليه: المنطق الخالص، ووظيفته بتعبير داسكال[٥] دراسة "شروط صدق التمثيلات"، وهو مقارب لعلم الدلالة، أما الثالث فيدعوه البلاغة الخالصة، ووظيفته دراسة نظام السيرورة.

وتتقابل هذه العناصر الثلاثة مع أبعاد العلامة السابقة، متفرعة إلى فروع كثيرة، بحسب العلاقة بين كل علامة فرعية بصيغ الوجود السابقة، وفق التالي[٦]:

أ. العلامة بحد ذاتها (الممثل)، وتتفرع إلى ثلاث علامات فرعية:

١. العلامة النوعية، وذلك بالنظر إليها بوصفها إمكانا كيفيا.

٢. العلامة المفردة، وذلك بالنظر إليها بوصفها موجودا متجسدا.

٣. العلامة القانونية، وذلك بالنظر إليها بوصفها قانونا عاما.

ب. العلامة في علاقتها بالموضوع:

١. العلامة الإيقونية، وذلك إذا اشتملت العلامة على خصائص من الموضوع بحد ذاته.

(١) السابق، الصفحة ذاتها
(٢) السابق ٢. ٢٤٢.
(٣) السابق، ٥. ٤٨٤
(4) Collected Papers.. 2. 229.
(٥) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٣٦.
(٦) السابق. الصفحة ذاتها

٢. العلامة المؤشرية، حين تكون علاقتها بالموضوع علاقة وجود.

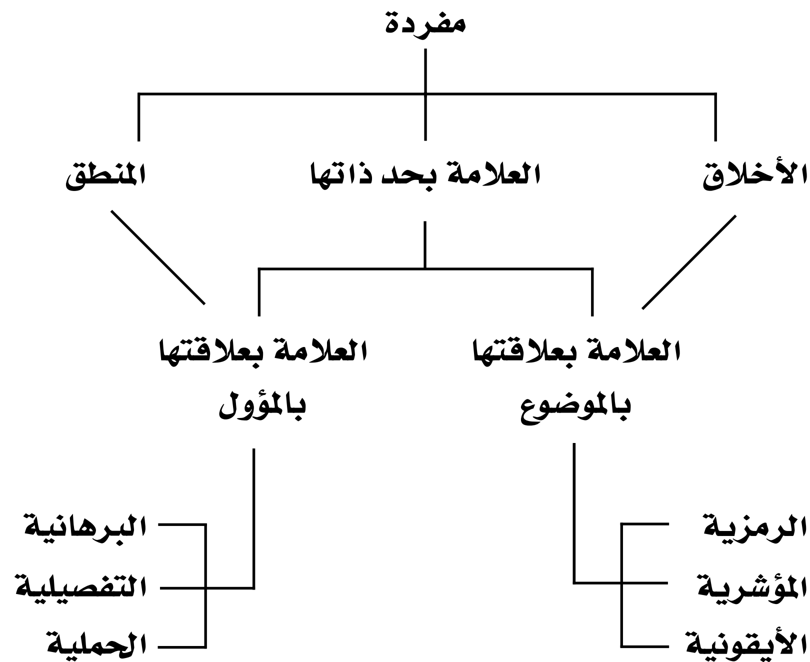
٣. العلامة الرمزية، حين ترتبط بعلاقة مع مؤول.

ج. العلامة في علاقتها بالمؤول:

١. العلامة الخبرية، وذلك باعتبار العلامة ممكنة.

٢. العلامة التفصيلية، وذلك عندما تشير إلى الواقع.

٣. العلامة البرهانية، وذلك عندما تصبح سببا[١].



ومع أن العلامات، وفق المنطق الرياضي، تصل إلى ٢٧ علامة، إلا أن بورس يقصرها على عشر علامات فقط؛ لأنه يرى أن هذه العشرة قادرة على وصف أي نظام سميولوجي مهما كان[٢]:

(1) Contributions to the doctrine of signs. p. 282

(٢) السابق. الصفحة ذاتها

	اسم العلامة	مثالها
١-١-١-	النوعية	الإحساس باللون الأحمر
٢-١-١-	الأيقونة المفردة	جهاز تخطيط الحرارة
٢-٢-١-	الخبرية المؤشرية المفردة	الصراخ الفجائي
٢-٢-٢-	التفصيلية المفردة	مؤشر اتجاه الريح
٣-١-١-	الأيقونة القانونية	الرسم البياني
٣-٢-١-	الخبرية المؤشرية المفردة	أسماء الإشارة
٣-٢-٢-	التفصيلية المؤشرية المفردة	إشارة المرور
٣-٣-١-	الرمزية الخبرية	الأسماء العامة
٣-٣-٢-	التفصيلية المفردة	المسلمات
٣-٣-٣-	البرهانية	القياسات البرهانية

وعلى الرغم من أن بورس لم يُقرأ إلا متأخرا، إلا أنه كان على الدوام حاضرا في الاتجاهات السميولوجية، إما صراحة أو ضمنا، لذا أفاد منه سميولوجيو الدلالة، حينما وجدوا سوسير -وفق داسكال- يقصي الدلالة، فوفق نظريته يستحيل وجود علم للدلالة، وبالتالي فإن المزاوجة بين سوسير وبورس كانت هي الحل للمأزق الدلالي عند هؤلاء.

وكما أن بورس حاضر في سميولوجيا الدلالة، فهو حاضر كذلك بقوة في السميولوجيا التأويلية، وربما يمثل المنطلق إليها، وسنرى لاحقا عند حديثنا عن العلاقة بين السميولوجيا والتأويل[١] كيف اعتمد كثير من السميولوجيين التأويليين على مفاهيمه، ولا سيما أنه منح المؤول مكانة بارزة في تقسيمه للعلامة.

وكون سميولوجيا بورس تدرس العلامة بشكل عام، اللسانية وغير اللسانية، فإن فضله على هذه الأخيرة لا يمكن إنكاره، بحيث استدعي في

(١) يرى إيكو أن «شيئا ما لا يكون علامة إلا لأنه يؤول بوصفه علامة لشيء ما بواسطة مؤول ما»(القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص ٢٨٦).

كثير من المقاربات غير اللسانية كالصورة، والسينما، والموسيقا، وغيرها.

أما في مرحلة التلقي، فيبدو توجيهه واضحا فيها، فهو تناول المنجز الفردي في السيرورة التأويلية، خلافا لسميولوجيا سوسير التي انبنت على النص، بوصفه محورها، وليس القارئ، مما جعل نظريته مصدرا ذا قيمة في النظريات ما بعد البنيوية، التي تدور حول القارئ أو المتلقي.

لكن ينبغي التنبيه على نقطة مهمة، فيما يتصل بأثر سوسير وبورس، وهي أنه إذا كان بالإمكان التمييز بين نظريتي سوسير وبورس في منطلقهما أو بنائهما الرئيس، فإن الأمر يتعذر في تمييز تأثيرهما في السميولوجيات اللاحقة، حتى إن التمييز يبدو في العصر الراهن مستحيلا؛ لتداخل هاتين النظرريتين، وللمزج غير المحدود للنظريات السميولوجية.

٣-٢-٣- التحليل النفسي:

قد تبدو الصلة واهية بين السميولوجيا والتحليل النفسي، لكن القراءة الفاحصة للمنجز السميولوجي عامة، ولمنجز جوليا كريستيفا خاصة، تُظهر خلاف ذلك، وأن السميولوجيا في توجه مهم منها، ونعني به السميولوجيا التحليلية، ما كان لها أن توجد، لولا استثمارها للتحليل النفسي.

ومع أن التحليل النفسي نشأ حصرا في حقله الخاص، وهو حقل الأمراض الذهنية، إلا أن نظرية فرويد عن الأحلام، وتوظيفه للأدب، فتحا التحليل النفسي على المنتج الثقافي، ولا سيما أن جوهر تحليل فرويد -كما يقول مارسيل ماريني[١] (Marcelle Marini) - "اختبار مبتكر للكلام والخطاب".

وفيما يتصل بتناول هذه النظرية، بوصفها جذرا من جذور السميولوجيا، فإن ما يبدو منطلقا حقيقيا هو منجز فرويد، الذي اعتمد عليه فيما بعد،

(١) النقد التحليلي – النفسي. م. س. ص. ٥٩.

كلٌّ من جاك لاكان وجوليا كريستيفا، حيث استثمر الأول التحليل النفسي في بنائه لبنيويته، بينما استثمرته الثانية في بنائها لسميولوجيتها التحليلية.

إن نظرية فرويد، وإن كانت تمثل ثورة في عالم التحليل النفسي، لم تقتصر على هذا الحقل بل تعدته إلى حقول عدة[١]، فامتد أثرها إلى أعلام بارزين خارج الحقل التحليلي، وخاصة في السميولوجيا.

إذن، لا يمكن الحديث عن أثر التحليل النفسي في بناء السميولوجيا، وكونها تمثّل جذرا مهما في الدراسات الحديثة، دون الانطلاق من فرويد، ونظريته في التحليل النفسي.

وهنا تجدر الإشارة إلى أننا لا نتوخى دراسة نظرية فرويد، وهي نظرية طرأ عليها كثير من التحولات التي لا يمكن تتبعها جميعها هنا، وذلك لأنها من جهة انفتحت وتشعبت بشكل كبير، يجعل من المحال إعطاء لمحة كاملة عنها، فضلا عن تحليلها، كما أنها من جهة أخرى قد تكون محدودة الصلة بموضوع دراستنا.

وإذا ما رمنا الحديث انطلاقا من فرويد، فيمكننا إجماله في مسارين، الأول تحليله للحلم بوصفه لغة، والثاني استعانته بالأدب منذ بداياته النظرية الأولى.

٣-٢-٣-١- الحلم بوصفه لغة:

تناول فرويد[٢] الحلم بوصفه لغة في كتابه تفسير الأحلام، حيث انطلق

(١) لم يقتصر أثر التحليل النفسي في المحللين النفسيين البارزين مثل لاكان وكريستيفا، بل تعداهم إلى كثير من الأعلام والنظريات، مثل أبي البنيوية كلود ليفي شتراوس الذي فسر «مزجه بين التجربة الشخصية والتفسير الفكري بنظرته المتميزة إلى الجيولوجيا والتحليل النفسي والماركسية، بوصفهن (عشيقات ثلاث) له» (انظر: عصر البنيوية. م. س. ص. ٣٧). وبرائد التأويلية بول ريكور الذي أفاد من فرويد من خلال تركيزه على «علم النفس الشارح (Metapsychology) » من جهة، وتركيزه على المشابهات التي تصل بين رموز الأحلام والرموز الدينية من جهة أخرى (عصر البنيوية. ص. ١٤٧).

(٢) انظر: فرويد، سيجموند: تفسير الأحلام، تبسيط وتلخيص: نظمي لوقا، دار الهلال، ١٩٦٢.

من تقسيم الحلم إلى مستويين: المستوى السطحي، وأطلق عليه «الشكل الظاهري»، والمستوى العميق، وأطلق عليه «المضمون المستتر»[١]، فالأول عبارة عن تعبير بطريقة «مشفرة» عن الثاني.

تتسم هذه اللغة بسمتين: الأولى الغموض، والثانية الاختزال، ويطلق على هذه اللغة الغامضة «اللغة الهيروغليفية» التي يعبر فيها المضمون عن أغراضه، وهي لغة تختلف عن اللغة اللسانية في كونها «كتابة بالصور»لا بالكلمات، وصورها عبارة عن رموز غير مباشرة[٢]، وهذا مرد غموضها وتناقضها وتفككها، إلا أن هذه السمات الظاهرية، تتضمن في المستوى العميق وضوحا واتساقا وارتباطا، على خلاف ظاهرها[٣]، ومهمة المحلل الوصول إلى هذه البنية.

أما السمة الثانية، وهي الاختزال، فمردها إلى المضمون المستتر الذي يخفي ذكريات كثيرة وممتدة عبر حياة الإنسان، ويشبِّه فرويد عملية الترميز في الحلم بعملية التقطير أوالتكثيف[٤].

وتحت عنوان (الرمزية في الأحلام)[٥]، تناول فرويد الرمز بوصفه "لغة رمزية"، وأداة للتعبير عن الموضوعات في اللاشعور، وخصوصا المخجلة والممنوعة منها؛ لذا يغدو انتظام هذه "اللغة الرمزية" في باطن الحلم للدلالة على الموضوعات المكبوتة، جاريًا على "حسب شفرة خاصة شبيهة بلغة الاختزال"[٦]، وهي عملية يلجأ إليها الحلم، موظفًا الرموز لتأدية التعبير عن المعاني " تعبيرا مستترا"، بهدف الاحتيال على"الرقيب الشعوري"،

(١) أشار فرويد إلى أنه أول من اكتشف هذين المستويين، بعد أن كان اهتمام السابقين بالأحلام منصرفا إلى تأويل الشكل الظاهري فقط، انظر: تفسير الأحلام. ص. ٧٦

(٢) السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) السابق. ص. ٧٧

(٤) السابق. ص. ٧٨.

(٥) السابق. ص. ٨٩.

(٦) السابق، الصفحة ذاتها

وإذا ما نجح الحلم في ذلك، فإنه يستخدم هذا الرمز دائما.

بيد أنَّ هذا الاستخدام المتكرر والناجح، لا يعني احتكار الرمز للمعنى، ولا احتكار المعنى للرمز، فمن الممكن استخدام رمز آخر للتعبير عن المعنى ذاته[١]، ومن الممكن أيضا استخدام الرمز الواحد للدلالة على أكثر من معنى[٢]، وهذا يستدل عليه من خلال السياق.

مما سبق تتضح علاقة الحلم باللغة عند فرويد، وهذا هو منطلق جاك لاكان- Jack Lakan في قراءته فرويد من جديد، بوصفه "عالم لغة"، وإصراره على هذا المبدأ الذي يبني عليه نظريته فيما بعد.

٣-٢-٣-٢- توظيف الأدب:

وظّف فرويد في بنائه لنظريته في التحليل النفسي قراءته لعدد من الأعمال الأدبية، مثل "أوديب ملكا" لسوفوكل- Sophocle، و"هاملت"- لشكسبير- William Shakespeare، ثم "الإخوة كرامازوف" لدستويفسكي- Fyodor Dostoevsky لاحقا، وذلك سعيا إلى تأسيس مفهومه الجوهري "عقدة أوديب".

هذا التوظيف الأدبي شكّل نقلة في تاريخ التحليل النفسي، ما دعا بعض الدارسين إلى التأكيد على أن "تاريخ نظرية التحليل النفسي لا يمكن فصله عن هذه اللقاءات أوالعلاقات الطويلة الأمد مع أساطير وحكايات وأعمال أدبية"[٣]، وسنرى أثر هذا المنهج في بناء السميولوجيا، وخاصة السميولوجيا التحليلية.

---

(١) السابق، الصفحة ذاتها.
(٢) السابق. ص. ٩٠.
(٣) النقد التحليلي – النفسي. م. س. ص. ٥٩.

وكما أن دراسة النصوص الأدبية منَحت التحليل النفسي فرصة الانعتاق من الحقل العلاجي الخاص، فإنها أسهمت كذلك في إثراء حقول أخرى، كالنقد الأدبي واللسانيات والبنيوية والسميولوجيا، وعلى الرغم من اعتراضات كثير من علماء النفس على هذا المنهج إلا أنه كان ذا أثر بالغ في الحقول الأخرى.

بنى فرويد مفهومه حول الطفولة وانتظام الشخصية والرغبة الإنسانية بحيث قلب المسلمات رأسا على عقب، وكان بناؤه مغتمدا على الربط بين أربعة عناصر: تداعياته الذاتية، وتداعيات مرضاه، و"أوديب ملكا"، و"هاملت"، وليس خافيا انتماء هذه العناصر الأربعة إلى اللغة، وإلى الأدب في الوقت نفسه، وقد استثمر لاكان هذا التوظيف في مقاربته للرسالة المسروقة، وكان ذا أثر في نظرية كريستيفا التي استثمرت مفاهيم فرويد، وإن كانت من خلال لاكان.

وسنتناول هذا الأثر في بناء السميولوجيا التحليلية عند حديثنا عن علاقة السميولوجيا بالتحليل النفسي في مبحث لاحق.

الفصل الرابع

علاقة السميولوجيا بالعلوم الأخرى

لم تنشأ السميولوجيا من العدم، وإنما هي، كغيرها من النظريات، نتيجة تفاعل مع منجز سابق، إما امتدادًا أو ارتدادًا، بحيث تبني على ما سبق من نظريات وفق السنة المعرفية وتطور الفكر، كما أنها في مسيرتها لم تنعزل عن محيطها، حيث كانت ومازالت تتفاعل مع النظريات المجاورة، فتتأثر بها وتؤثر فيها.

وتتوازى السميولوجيا مع بعض المفاهيم والنظريات، وتتقاطع مع بعضها الآخر، إلا أنَّ أبرز النظريات التي أثَّرت في السميولوجيا، تلك النظريات التي كانت حاضرة قبل وأثناء ولادتها ونشوئها، وخصوصا اللسانيات، والبنيوية، والتحليل النفسي، والنظريات الفلسفية، وغيرها.

وتأتي اللسانيات، وما تفرع منها، باعتبارها أكثر النظريات تأثيرا في السميولوجيا؛ وذلك أن اللسانيات مثّلت ثورة معرفية، طالت كل العلوم الإنسانية، وشكَّلت قطيعة معرفية، حولت البحوث الإنسانية إلى مسارات رحبة، ما كانت معهودة من قبل.

ومثلما أدَّت اللسانيات دورًا بارزًا في نشوء كثير من النظريات والمناهج الحداثية وما بعد الحداثية، فقد كان دورها في تأسيس السميولوجيا واضحا بقوة، وربما أظهر من غيره، فثمَّة ما يشبه الإجماع عند السميولوجيين على وجود صلة وثيقة بين السميولوجيا واللسانيات، وأنّ السميولوجيا ما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه من اتساع وتنوع، لولا التحول الكبير الذي أحدثته اللسانيات السوسيرية، فالعلاقة بين الاثنتين علاقة توالد وتوازٍ في الآن نفسه.

وعلى الرغم من التقدم الذي أحدثته السميولوجيا، إلا أنها لم تستطع أن تنفلت من الروابط اللسانية، وظلَّت وثيقة الصلة بها، حتى في أحدث

ما وصلت إليه، بل إن هناك من رأى أن السميولوجيا اللسانية "لم تعمل على أن تبني نفسها إبستيمولوجيا (معرفيا)، وإنما اعتمدت في تأسيسها لنفسها على البناء الإبستسمولوجي للسانيات، ذلك أن أدواتها المعرفية، ومفاهيمها، ووحداتها، وطبيعة هذه الوحدات "لا تعدو أن تكون غير ما أمدتنا به اللسانيات"(١).

ويعود هذا التأثير والارتباط إلى عوامل عدة، منها وحدة المنطلق، ونعني به سوسير، من جهة، والانضباط العلمي الذي تتميز به اللسانيات من جهة أخرى؛ ما أغرى كثيرا من الحداثيين باستثماره في مقارباتهم كما مر، حتى غدا نموذجا مهيمنا في معظم الحقول.

٤-١- هيمنة النموذج اللساني:

شكّل النموذج اللساني فتنة في الحداثة الغربية، وهيمن على كثير من علومها، ومرد ذلك ما احتلّه هذا النموذج من مكانة وتأثير في الفكر الغربي، يوازي ما كانت تحتله الفلسفة من تأثير في توجيه العلوم الجديدة وتجديد المعارف الإنسانية، ويعود ذلك إلى جهود رواد اللسانيات البنيوية الذين سعوا إلى التحديث الذهني، انطلاقا من الثورة على القاعدة الفكرية العامة المسيطرة على الفكر الأوروبي سابقا التي منحت الفلسفة هذا الدور، وسعوا إلى ذلك من خلال "إخضاع الفكر التأملي لتاثير علم خاص هو اللسانيات"(٢).

يشير جورج مونان(٣) إلى أن شتراوس "خلق جوًا من الاهتمام العلمي، ووضع اللسانيات في الصف الأول للعلوم الرائدة، من خلال مقاله المهم الذي

(١) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٥.
(٢) السيميائيات الأدبية. م.س. ص. ١٤٨.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

نشره عام ١٩٤٥م تحت عنوان: "التحليل البنيوي في اللسانيات والأناسة"، كما أن موريس ميرلو بونتي أكثر "من الإحالات إلى سوسير مكتشفا تدريجيا وكاشفا للجمهور الواسع مؤلف دروس في اللسانيات العامة"، كما يشير مونان إلى بقية الفاعلين في هذا الحقل كبارت، وفوكو، ولاكان.

وما ساعد في انتشار النموذج اللساني والافتتان به، أن رواده من الفلاسفة الشباب خلعوا عليه "ثوبا حداثيا جذابا"(١)، فانتشر انتشار النار في الهشيم، وتجاوز الحدود، حتى غدا الحقل الأحدث والأنجع في مقاربة النصوص.

هذا الانتشار لم يقتصر على الحقل اللساني، وإنما كان شاملا؛ لذا وجدنا دارسين في حقول كثيرة يتوسلون بهذا النموذج أداة إجرائية لمقارباتهم، وكأنه النموذج العلمي الوحيد، أو المظلة العلمية في عصر العلم.

وفكرة استثمار اللسانيات لدراسة ظواهر اجتماعية وثقافية أخرى، مردها إلى مبدأين رئيسين: الأول أن الظواهر ليست موضوعات أوأحداثًا مادية مجردة، بل هي ذات دلالة، وبالتالي فهي علامات، والمبدأ الثاني يعود إلى أن هذه الظواهر ليست مكتفية بذاتها، ولكنها تتحدد من خلال علاقاتها الداخلية والخارجية"(٢).

كانت البداية مع البنيوية التي تأسست على النموذج اللساني، وهناك من عرَّف البنيوية في معناها الأخص، أنها"محاولة نقل النموذج اللغوي إلى حقول ثقافية أخرى"(٣)، كما أن هناك من رأى أن اللسانيات يمكن أن تؤدي " لعلوم الإنسان ما أدته الرياضيات للفيزياء الحديثة"(٤).

(١) السابق. ص. ١٤٩.
(2) Culler، Jonathan: Structuralist Poetics، Routledge & Kegan Paul، 1977. p 4.
(٣) إبراهيم، عبد الله وآخرون: معرفة الآخر– مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٦. ص. ٤١.
(٤) السابق. الصفحة ذاتها.

ومع أن شتراوس يرى أن لغة الأسطورة تظهر بعض الخصائص النوعية، التي تتسم بطبيعة أعقد من تلك التي تصادف في عبارة لغوية من طراز معين، إلا أنه يربطها بالنظام اللساني ارتباط الجزء بالكل، فمنطلق نموذجه النظري الذي بدأ به مشروعه البنيوي في الإنثروبولوجيا قوانين العالمين سوسير وجاكبسون في مجال اللغة باعتبارها نموذجا نظريا[١]: "إن الإنثروبولوجي عند دراسته لمشكلات القرابة (وكذلك أيضا وبدون شك عند دراسته لأي مشكلات أخرى) يجد نفسه في مواقف مشابهة لمواقف عالم اللغة البنيوي"[٢].

هكذا، كانت اللغة وكيفية عملها بالنسبة إليه، نموذجه النظري الذي ابتدأ به مشروعه الإنثروبولوجي، ثم انطلق إلى استخدامه في مجالات أخرى كالأساطير، والطقوس، والرموز، وغيرها[٣].

كلُّ ما سبق، يجعل الحديث عن العلاقة بين اللسانيات والسميولوجيا مختلفا عن الحديث عن أي علاقة أخرى؛ لذلك فإننا سنتناول هذه العلاقة بتفصيل أكبر من العلاقات الأخرى، ولا سيما أن بعضها تنتسب إلى اللسانيات، كما سنرى لاحقا.

كما تجدر الإشارة إلى أننا سنقتصر الحديث عن علاقات السميولوجيا بالعلوم، على العلوم التي شكلت تقاطعا واضحا ومؤثرا، دون بقية العلوم؛ لأنَّ السميولوجيا تشعبت واتسعت، حتى بدا أن لها علاقة بكل العلوم، و"وصلنا إلى استحالة تامة نستطيع أن نحصر معها موضوع هذا العلم ومناهجه"[٤]؛ لذا أشار ديكرو إلى أنَّه من المستحيل إعطاء لمحة عن العديد

(١) يتيم، عبد الله: كلود ليفي ستروس– قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، إصدارات بيت القرآن، المنامة، ط١ ، مارس، ١٩٩٨. ص. ١١٦.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) للمزيد حول هذه المسألة انظر: المرجع السابق. ص. ١١٦ ، وما يليها.
(٤) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص. ٢٩٥.

من الأبحاث التي تطالب بالعلامة ، أو التي يعدها السميولوجيون جزءا من مشروعهم[١].

٤-٢- علاقة السميولوجيا باللسانيات:

تلتقي السميولوجيا باللسانيات في مسائل كثيرة، فهي تستمد "مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات"[٢]، وسوسير نفسه كان لسانيا، بل هو أبو اللسانيات، كما يطلق عليه، وفي الوقت نفسه المبشر بولادة السميولوجيا، والمرجع الأول في بنائها النظري.

وهذا ما يفسر حضوره وأتباعه اللسانيين، وحضور مفاهيمهم ومصطلحاتهم الطاغي في النظرية السميولوجية الحديثة، فالسميولوجيا تدين للسانيات بالكثير، بل يمكن القول إنها صنيعة اللسانيات، لولاها لما وجدت.

منذ البدء أعلن سوسير أن "اللسانيات قادرة على أن تكون النموذج المحتذى لكل النماذج السميولوجية، على الرغم من كونها واحدة منها"[٣]، وقد بقي هذا المبدأ من بعده عند اللسانيين والسميولوجيين جلهم، إن لم يكونوا كلهم، حتى عند من انطلقوا من حقول غير لسانية.

ويمكننا أن نتحدث عن العلاقة بين اللسانيات والسميولوجيا من جهتين، الأولى تتناول خطوط الالتقاء، والثانية تتناول خطوط الافتراق.

٤-٢-١- خطوط الالتقاء:

إن التقاء السميولوجيا باللسانيات في أوجه شبه، هو من الأمور الحتمية طالما أن السميولوجيا ترتبط باللسانيات ارتباط السبب بالنتيجة، أو ارتباط الجزء بالكل، "فاللسانيات مجرد فرع من فروع السميولوجيا"[١]، من وجهة

(١) السابق، الصفحة ذاتها.
(٢) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٢٠.
(3) Course in general linguistics. P. 68.

سوسير، وسوف تطبق عليها قوانينها عند اكتشافها، ولا سبيل إلى علمنتها إلا بضمِّها إلى السميولوجيا، "فإذا كنا للمرة الأولى نرى للسانيات مكانا بين العلوم، فالسبب ربطنا لها بالسميولوجيا"(٢).

والسميولوجيا "فرع من فروع اللسانيات"(٣)، من وجهة بارت أيضا. وعليه فإن هذا الترابط بلا شك سيجعل من التبادل المفاهيمي والمصطلحي أمرا طبيعيا، بل حتميا.

لقد قلب بارت مفهوم العلاقة بين السميولوجيا واللسانيات رأسا على عقب، ومبرره في ذلك يعود إلى اعتقاده أن النموذج اللغوي، يمكن أن يكون مثالا لجميع الأنظمة السميولوجية الأخرى، استناداً إلى أنه يرتكز على ثلاثة عناصر رئيسة (الدال، والمدلول، والعلاقة)، وهذا يتيح تطبيق هذا النموذج على أي نظام سميولوجي آخر؛ لأن بارت يرى أن التواصل الإنساني هو موضوع السميولوجيا الرئيس "والتواصل المقصود هو من جنس التواصل اللساني لأن هذا التواصل هو التواصل الحق"(٤). وبناء على ذلك فإن السميولوجيا ترتبط باللسانيات في مسائل كثيرة، من أهمها التالي:

٤-٢-١-١-التمحور حول العلامة:

تتمحور السميولوجيا حول العلامة بشتى أنواعها، وتتمحور اللسانيات حول العلامة اللغوية خاصة، وهي شكل من أشكال العلامات السميولوجية، بل الشكل الأبرز، كما أكد ذلك سوسير واللسانيون والسميولوجيون من بعده.

وبما أن موضوع اللسانيات والسميولوجيا هو العلامة، وهي منطلقها

(١) السابق. ص. ١٦.
(٢) السابق. الصفحة ذاتها.
(3) Elements of Semiology, p. 11.
(٤) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٧٣.

وغايتها، فقد ارتبطا في إطار واحد، وهذا ما يفسر إدراج سوسير اللسانيات في السميولوجيا، واشتراط هذا الربط للوصول إلى علمنة اللسانيات، إذ يرى أنه من الممكن " تصور علم يدرس العلامات حية في المجتمع، وسيكون جزءا من علم النفس الاجتماعي، ومن ثم جزءا من علم النفس العام، وسأطلق عليه: السميولوجيا (من اللفظة السميولوجيا سيميون "علامة")(١)، وهذا الاشتغال على العلامة جعل التقاطع بين الحقلين في المفاهيم والمصطلحات أمرا ممكنا، بل حتميا.

٤-٢-١-٢- الأعلام:

من اللافت في الحقل السميولوجي أن أبرز أعلامه، جاؤوا إليه من حقول أخرى، وعلى وجه الخصوص من اللسانيات، بدءا من أبي اللسانية ومرورا بأتباعه أمثال جاكبسون، وهيلمسليف، ورائدي اللسانيات الفرنسية إميل بنفينست، وأندريه مارتينيه؛ لذا لم يعد مستغربا الانطلاق في الحديث عن السميولوجيا من هؤلاء، فهم المؤسسون، وإن اشتهروا بوصفهم لسانيين أو شكليين.

إن دَين السميولوجيا، وخصوصا السميولوجيا اللسانية، لهؤلاء الأعلام يتجسّد في كونهم مثّلوا حلقة الوصل بين اللسانيات والسميولوجيا؛ لذا كانت مصطلحاتهم ومفاهيمهم ذات أثر في بناء النظرية السميولوجية، ما دعا بعض الدارسين(٢) إلى الزعم أن السميولوجيا قامت أساسا على جهود هؤلاء، بقصد تأسيس نقد شكلي ينطلق من تعاليم سوسير، لذا عدوا جميع اللسانيين الشرقيين في العشرينيات والثلاثينيات سميولوجيين بدرجات متفاوتة.

(1) Course in general linguistics, P. 16.
(2) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Languag, p. 88.

ويأتي في مقدمتهم رومان جاكبسون، الذي يمكن أن يعد اللساني الأول المؤثر في تحول الدرس السميولوجي، بشكل لا مثيل له بين اللسانيين و"يمكن العبور من حقل اللسانيات إلى السميولوجيا من خلال ملاحظات جاكبسون التي تنفتح على الخطابات الواقعة ضمن سيطرة الاستعارة والمجاز"[١].

ويشكِّل نموذج جاكبسون لوظائف العلامة منطلقا صلبا للسميولوجيا فيما بعد، بحيث فتح المجال لتحليل الأنساق غير اللغوية، وهو نموذج أفاد منه غريماس، كما مر، في بناء مربعه السميولوجي.

بيد أن دور اللسانيين لا يقتصر على نقل نظرية سوسير إلى من تلاهم، ولكنهم دفعوا باللسانيات إلى الأمام بحيث اقتربت من السميولوجيا.

لخص جاكبسون[٢]، ستة عوامل في الحدث التواصلي، يمكن من خلال التركيز على أحدها، تحديد الوظيفة الاتصالية، فالاتصال يفترض وجود رسالة ترسل من مرسل إلى مرسل إليه من خلال سياق، ويتطلب وجود شفرة معروفة من الطرفين، ووسيلة لنقل هذه الرسالة، وقدم نموذجا من خلال خطاطته الشهيرة:

سياق

مرسل .... **رسالة** .... **مرسل إليه**

اتصال

سنن

وبناء على هذه العناصر، استخرج وظائف العلامة وفق التالي:

(1) Elements of Semiology، p. 61.

(٢) ياكبسون، رومان: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨م. ص ص ٢٧ –٣٣

١. الوظيفة المرجعية: وهي قاعدة كل اتصال، إنها تحدد العلاقة بين الرسالة والموضوع الذي تحيل إليه.

٢. الوظيفة الانفعالية، وهي تحدد العلاقات بين الرسالة والمرسل... وذلك عندما نعبر عن مواقفنا إزاء الموضوع.

٣. الوظيفة الإفهامية: وهي تحدد العلاقات بين الرسالة والمستقبل، فرد الفعل غاية كل اتصال، ويستطيع الإفهام أن يتجه إلى ذكاء المستقبل أو عاطفته.

٤. الوظيفة الشعرية: وهي تحدد العلاقات بين الرسالة ونفسها... وهذه الرسالة تكف عن كونها أداة للإيصال لتصبح موضوعا.

٥. الوظيفة الانتباهية: وهي تهدف إلى تأكيد أوإبقاء أوإيقاف الاتصال، مثل "ألو هل تسمعني"، وهنا يكون مضمون الإيصال أقل أهمية من موضوع الوجود، وتأكيد تلاحمه مع المجموعة.

٦. الوظيفة الانعكاسية: وهدفها تحديد معنى الإشارات؛ وذلك لأن المتلقي ربما لا يفهمها، مثل أن تضع كلمة بين قوسين، مثل: سيميولوجي (بالمعنى الطبي للمصطلح)

وتمثل الخطاطة التالية مقابلة للوظائف بالنموذج السابق، بحيث تحدد استنادا إلى توجه الرسالة إلى أحد العوامل السابقة:

مرجعية

انفعالية .... **شعرية** .... **إفهامية**

انتباهية

ميتالسانية

ومن الأعلام اللسانيين المؤثرين في مسيرة السميولوجيا، أندريه مارتينيه، أحد تلاميذ جاكبسون، ويبرز في هذا المقام مفهومه الشهير (التمفصل المزدوج)[١]، الذي يمثِّل خصيصة للسان، تميزه مما سواه من النماذج السميولوجية.

ويتم التمفصل على مستويين: المستوى الأول تُجزَّأ فيه الرسالة إلى وحدات، لكل منها صيغة صوتية ومعنى، فحينما يعبر الإنسان عن الألم، فإنه يأخذ صورا عدة، منها الصراخ إراديا وغير إرادي، وهذا لا يدخله في الاتصال اللساني، ولو كان إراديا، لافتقاده للتمفصل الذي يتوفر لجملة مثل: "عندي ألم في رأسي"[٢]، فهذه الجملة تتكون من ست وحدات، هي: عند / ي / ألم / في/ رأس / ي، وهذا هو التمفصل الأول، الذي يسمح بإعادة تركيب هذه الوحدات لتعبر عن فكرة أخرى، فمثلا يمكن أن تأخذ كلمة (رأس)، وتدخلها في عبارة جديدة، مثل (الرأس المدبر) وهكذا.

أما التقطيع الثاني، فهو تجزئة الوحدة إلى وحدات أصغر لا معنى لها، فكلمة (ألم) التي تحمل دلالة معينة، حين نجزئها إلى (أ) (ل) (م) فإن هذه الوحدات منفردة، لا تعبر عن معنى الألم.

وعلى الرغم من فقد هذا التقطيع للمعنى المقصود، إلا أنَّه يمكن إعادة تركيبه من جديد، لإنتاج وحدات لا حصر لها، وهذا ما يميز اللسان عن غيره، فلا يمكن وضع صوت لكل معنى؛ لاستحالة وجود آلاف الكلمات لكل معنى[٣].

وقد اعتُمد على هذا المفهوم لتصنيف الأنساق السميولوجية[٤]:

---

(1) Martnet، Andre: Elements of General Linguistics، p. 22.

اشتهر مارتينيه بهذا المفهوم، وإن كان ينتسب إلى سوسير، ولكن مارتينيه عمقه وربطه بالأنساق غير اللسانية.

(2) Elements of General Linguistics، p. 23.

(٣) السابق. ص.٢٤.

(٤) فاخوري، عادل: تيارات في السيمياء، دار الطليعة، بيروت، ط١ ، ١٩٩٠م. ص. ص. ٤١ – ٤٣

الصنف الأول: يحتوي على وحدات دلالية يستحيل تقطيعها ككل إلى عدة علامات، ويستحيل كذلك تقطيع دالها إلى عدة مركبات بسيطة، أي إلى ما يسمى بالأشكال، مثال ذلك نسق أضواء السير عند تقاطع الطرق، فهو يتركب عادة من ثلاث وحدات دلالية، لا تجتمع أبدا، ولا يمكن تقسيم كل دال منها إلى أشكال أكثر بساطة، فالضوء الأحمر يشير إلى منع المرور، والضوء الأخضر إلى السماح به، بينما يدل الضوء الأصفر إلى المرحلة الانتقالية، كذلك يعود إلى هذا الصنف الاتصال الحيواني عامة وبعض أنساق الحركات.

الصنف الثاني: يتكون من وحدات دلالية، قابلة للانقسام إلى علامات بسيطة، كل علامة منها، يمكن أن تدخل في تركيب وحدات دلالية مختلفة، ويمكن اعتبار ترقيم الغرف في الفنادق من هذا الصنف، فالرقم (٣٥) مثلا يشير بوصفه وحدة دلالية إلى غرفة معينة من الفندق، كما أنَّ كلَّ جزء منها يشكل علامة كاملة، فالرقم (٣) يعين الطابق، والرقم (٥) إلى مرتبة الغرفة.

ومن الواضح أنه يمكن أن تدخل كل علامة من العلامتين في وحدات دلالية أخرى، مثلما هي الحال في أرقام الغرفة (٢٥) و(٣٢) حسب عدد الطوابق[١].

الصنف الثالث: فيه يستحيل تقطيع الوحدة الدلالية إلى عدة علامات، بل يقتصر تركيبها على علامة بسيطة فقط، لكن بالإمكان تحليل دال كل وحدة دلالية إلى مركبات مختلفة، ليست ذات دلالة أي إلى أشكال.

يندرج تحت هذا الصنف مثلا: دقات استهلالات البث الإذاعي، ودقات

---

(١) السابق. ص. ص. ٤٢– ٤٣.

الأوامر العسكرية، وتراقيم السجل. ففي هذه الحالات يتألف الدال من عدة نوطات، أو عدة أرقام، يمكن أن تدخل كل نوطة، أو أن يدخل كل رقم منها في دالات مختلفة، لكن دون أن يكون للنوظة الواحدة، أو للرقم المنفرد مدلول ما[١].

الصنف الرابع: هو ما يشكل أنساق اللغات الطبيعية... أي أن النسق الذي تلتئم فيه الوحدات الدلالية من عدة علامات، كل دال علامة يمكن تقسيمه إلى عدة أشكال، مع جواز دخول العلامات ذاتها في وحدات دلالية مختلفة ودخول الأشكال ذاتها في علامات متنوعة.

وإذا كان مارتينيه قد أسس لمفهوم جوهري في السميولوجيا، وصنف الأنساق السميولوجية، كما مر، فإن بنفينست اللساني أعاد الأهمية للسان، كونه أكثر تمثلا للعملية السميولوجية، إضافة إلى كونه أكثر تعقيدا وانتشارا، مؤكدا على ربط ذلك باعتباطية العلامة، وفي ذلك يتبع سوسير، معتمدا هذا المبدأ الفيصل في إدراج الأنظمة غير اللغوية في السميولوجيا من عدمه، وبهذا يغدو اللسان نموذجا عاما لكل الأنظمة الأخرى.

وتكمن الإضافة السميولوجية الرئيسة لبنفينست، في توسيعه موضوع السميولوجيا، ليشمل العلاقات بين هذه الأنظمة، فضلا عن علاقاتها الداخلية، مصنفا هذه العلاقات إلى ثلاث[٢]:

الأولى: علاقة التوليد، وهي التي يتم فيها توليد نظام من نظام آخر، مما يبقي طبيعة مشتركة بينهما، ومثالها توليد كتابة برايل من الكتابة المعروفة، ويميِّز بين هذه العلاقة التوليدية والعلاقة الاشتقاقية، فهذه الأخيرة نتاج التطور التاريخي، لا العلاقة التوليدية.

(١) السابق الصفحة ذاتها.

(٢) بنفينست، إميل: سيميولوجيا اللغة، ترجمة: سيزا قاسم، ضمن كتاب: مدخل إلى السيميوطيقا جـ٢، إشراف: سيزا قاسم، ونصر حامد أبو زيد، القاهرة، الدار البيضاء، ط٢. ص. ص. ٢٣-٢٤.

الثانية: علاقة التماثل، وهي التي يؤسس فيها بين أجزاء لنظامين سميولوجيين، ولها صور عدة، فقد تكون حدسية، أو استدلالية، أو ذهنية، أو شعرية، ومن أمثلتها التماثل بين الكتابة والحركات الشعائرية الصينية.

الثالثة علاقة التفسير، وهي التي تكون بين نظامين: مفسِّر ومفسَّر، ويبرز اللسان في هذه العلاقة، إذ هو المفسر الوحيد لجميع الأنظمة، لكن يبقى السؤال الأهم في هذا السياق، هل يمكن تطبيق التمفصل المزدوج على جميع أنواع العلامات؟

يَعد بعض الدارسين[١] مجهودات لويس برييتو- Louis J. Prieto لاختبار هذه الفرضية من أهم ما أنجز في هذا المجال، فلو أخذنا نسقا إبلاغيا بسيطا، كترقيم غرف الفندق، فإن الرقم (٧٧) يحدد غرفة بعينها، وله مدلول ومرجع، أي أنه يمكن أن يحدد بـ(علامة)، فمدلول (٧٧)، ضمن هذا السنن، الغرفة الثامنة في الطابق السابع، ف (٧) الأولى تشير إلى الطابق، بينما تشير (٧) الثانية إلى الغرفة السابعة.

وبالتالي فنحن أمام سنن ذي تمفصلات[٢]، وإن كان برييتو لا ينفي العلامات غير المتمفصلة، لذا يصنف العلامات إلى أربعة أصناف[٣]:

أ. سنن بلا تمفصل، مثل العصا البيضاء للأعمى، والضوء الثلاثي للسير.

ب. سنن تتمتع بالتمفصل الثاني فقط، مثل لوحة منع دخول الدراجات،

ج. سنن تتمتع بالتمفصل الأول فقط، مثل ترقيم غرف الفنادق.

د. سنن بتمفصلين، مثل اللغة اللفظية.

(١) العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، م. س. ص. ١٨٥.

(٢) السابق. ص. ص. ١٨٥-١٨٦.

(٣) السابق. ص.ص. ١٨٧-١٨٨.

٤-٢-١-٣- المصطلحات والمفاهيم:

إن المتتبع لتطور المفاهيم والمصطلحات اللسانية، يجد صعوبة بالغة في الفصل بين مرحلة اللسانيات ومرحلة السميولوجيا[١]، ولولا الإعلان الصريح والعناوين المباشرة لأعمال بعض المنظرين السميولوجيين التي تحدد مولد السميولوجيا، لأصبح من الصعب تحديد ولادتها.

إذن، تبدو السميولوجيا في جانب كبير منها امتدادا للسانيات، استثمرت مفاهيمها، واستعارت مصطلحاتها؛ لذا نجد مفاهيم ومصطلحات سوسير وأتباعه حاضرة بقوة في الحقل السميولوجي.

في البدء انطلق السميولوجيون من نبوءة سوسير، معتمدين مصطلحه للعلم الجديد: السميولوجيا Semiology، الذي مازال المصطلحَ المفضل عند السميولوجيين الأوروبيين، ثم استثمروا مفاهيم سوسير السميولوجية، وأضافوا إليها بعض المفاهيم اللسانية التي ظهرت فيما بعد سوسير، وخصوصا عند هيلمسليف ومارتيني، كاللغة والكلام، والدال والمدلول، وهي من مفاهيم سوسير، ومفهومي التعيين والتضمين من مفاهيم هيلمسليف، ومفهوم التمفصل المزدوج من مارتينيه[٢].

هذه المفاهيم أضحت، فيما بعد، هيكل السميولوجيا، بكل فروعها وتوجهاتها، وعليه فإن السميولوجيا "مبنية على اللسان" بتعبير سوسير، فليس خافيا الآن أن فهم العلامة اللسانية هي السبيل إلى فهم العلامة السميولوجية، وهذا ما أشار إليه بارت فيما بعد من أن السميولوجيا "استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات"[٣].

(١) يشير بارت في كتابه مبادئ السميولوجيا (Barthes p.105) إلى أنه من الصعب تقديم قائمة بالمراجع الخاصة بالسميولوجيا، مؤكدا على ضرورة توجيه القراءة إلى منجز اللسانيين والإنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع، فمؤلفاتهم تمثل منطلقا صلبا للمفاهيم والمناهج وطرق التحليل السميولوجية.

(2) Martnet، Andre: Elements of General Linguistics، p. 22

(٣) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٢٠.

ويعد عمل رولان بارت السميولوجي ذروة العلاقة بين اللسانيات والسميولوجيا، وخير مثال على استثمار المفاهيم اللسانية وتقديمها عناصر للسميولوجيا، وذلك أن بارت، يعد في نظر كثير من الدارسين[١]، المؤسس الحقيقي للسميولوجيا غير اللسانية، وأبرز من قارب الأنظمة غير اللسانية بهذا المنهج، وإليه يرجع معظم السميولوجيين في التطبيقات المختلفة.

كانت انطلاقة السميولوجيا البارتية مع كتابه أساطير[٢]، في عام ١٩٥٧ الذي تناولناه سابقا[٣]، حيث تناول فيه بالتصنيف الدقيق مفاهيم سوسير (اللغة والكلام، والدال والمدلول)، ومفاهيم هيلمسليف (التقرير والإيحاء)، ومفهوم مارتينيه (التمفصل اللغوي)[٤]، ومع سعيه في كتاب (مبادئ السميولوجيا)، إلى تأسيس سميولوجيا مستقلة عن اللسانيات، إلا أنَّه أيضا استند إلى المفاهيم السابقة، منطلقا منها إلى آفاق أرحب[٥]، وهذا الكتاب، كما هو معلوم من الكتب التي أعلنت ميلاد السميولوجيا اللسانية.

إن هذا الاعتماد، يستند إلى أسباب مبدئية عند بارت، فالمعرفة السميولوجية، كما، "مجرد نسخة من المعرفة اللسانية"[٦]، وإذا كان سوسير يجعل الأولوية في السميولوجيا للغة على حساب الأنظمة الأخرى، فإن بارت يذهب أبعد من ذلك، فهو من جهة يجعل اللسانيات أعم وأشمل من السميولوجيا[٧]، ومن جهة أخرى فهي حاضرة بالضرورة في أي نظام سميولوجي آخر، فبمجرد "التحول إلى أنظمة اجتماعية أخرى سنلتقي لا

(١) أشار توسان أن مبادئ السميولوجيا لرولان بارت الذي صدر سنة ١٩٦٤ يعد بمثابة الإعلان عن المولد الفعلي للسيميائية غير اللسانية. انظر ص. ٤٤.

(2) Barthes، Roland: Mythologie، selected & translated، Annette Lavers، Cape، London، 1972.

(٣) انظر ص.٨٤.

(٤) يرى توسان أن بارت يعد أحد أقطاب النقد السميولوجي منذ نشر كتابه (أساطير) الذي عمل على شهرته بصوت لم يسبق له مثيل. وقد أفاد من بورس وهيلمسليف وسوسير، «فهو أول من أنجز تركيبا رائعا للمنظرين الثلاثة، ووضع نظرية سيميولوجية تتجاوز اللسانيات النسقية». (ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٤٤).

(٥) رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص. م. س. ص. ١٥.

(6) Elements of Semiology، p. 11.

(٧) السابق، الصفحة ذاتها.

محالة باللغة"؛ لأن "كل نظام سيميائي ذو بعد لساني"[١]. وعليه لا يمكن أن ندرج مجموعات الأشياء، كالملابس والطعام في الأنظمة السميولوجية، إلا من خلال مرورها في عالم اللسان الذي يستحيل أن توجد الموضوعات السميولوجية خارجه.

ومرد هذا الإصرار على دمج الأشياء في اللسان إلى نقطة جوهرية، "فالمعنى لا يوجد إلا مسمى وعالم المدلولات ليس سوى اللسان"[٢]، أما بعض الأنظمة التي تعمل على مادة غير لسانية، فإن بارت يراها مجرد بداية، "وستستدعي اللغة عاجلا أو آجلا"، وهذا الاستدعاء "ليس بوصفها نموذجا بل بوصفها مكونا"[٣].

وبعد هذه المكانة التي يمنحها بارت للسان، لا يغدو مستغربا توظيفه المصطلحات والمفاهيم اللسانية لبناء سميولوجيته، لذا شكلت مفاهيم سوسير وهيلمسليف عناصر السميولوجيا لديه، حيث يأخذ عن سوسير "النظرية المتعلقة بالدال والمدلول والمرجع برمتها، إضافة إلى المفهوم المزدوج للغة"، كما يأخذ مفهومي التقرير والإيحاء عن هيلميسليف، وقد عمل على بلورتهما[٤]، فجاءت على النحو التالي: (اللسان والكلام، والمدلول والدال، والمركب والنظام، والتقرير والإيحاء)[٥].

ومن الجدير بالذكر، الإشارة إلى هذه الثنائية التي طغت على تقسيم بارت للعناصر السميولوجية، ما يشير إلى الأثر الواضح للسانيات فيه، وهو تقسيم شاع في هذا الفكر[٦].

(١) السابق. ص. ١٠.

(٢) السابق. الصفحة ذاتها.

(٣) السابق. ص. ١١.

(٤) ما هي السيميولوجيا. م. س. ص. ٤٥.

(5) Elements of Semiology، p. 10.

(٦) أشار بارت نفسه إلى أثر الفكر اللساني في تقسيمه العناصر إلى ثنائيات، مؤكدا فائدة هذا االتصنيف الثنائي في دراسة سيطرته على العلوم الإنسانية عموما في العصر الحديث (Barthes. P.12).

وقد يبدو من خلال التقسيم الظاهري للعناصر، أنها لا تعدو أن تكون استنساخا للسانيات، إلا أن بارت يذهب أبعد من ذلك بكثير، فهو لا يعيد نسخها، إنما يعيد صياغتها من جديد، برؤية سميولوجية شاملة، ولا يغفل عن المقارنة بين هذه المفاهيم في الحقلين اللساني والسميولوجي، حتى أضحت اللسانيات بوابة وحيدة للعبور إلى السميولوجيا.

٤-٢-١-٣-١- اللسان والكلام:

إذا كان تمييز سوسير بين اللسان والكلام ذا أثر كبير في اللسانيات، فإنه لم يقتصر عليها، وإنما تعداها إلى كثير من العلوم، وخصوصا السميولوجيا التي أسهم في انطلاقها في البدايات، إضافة إلى اعتمادها هذا التمييز- وخصوصا عند بارت وأتباعه- عنصرا رئيسا في السميولوجيا، ووفق رولان بارت، فقد أسدى هذا التمييز عند بداية ظهوره كثيرا من الخدمات، ومكَّن السميولوجيا من الانطلاق[١].

يقارن بارت بين اللسان والكلام في اللسانيات، واللسان والكلام في الأنظمة الأخرى[٢]، في اللباس والطعام والسيارة والأثاث والسينما والإشهار، ليصل إلى أن العلامة في جميع الأنظمة اعتباطية[٣]، وهذا يُعيدنا إلى مفهوم الاعتباطية عند سوسير، الذي اشترطه للدخول في السميولوجيا.

٤-٢-١-٣-٢-الدال والمدلول:

يستلهم بارت الدال والمدلول من سوسير، محتذيا مفهوميه بحذافيرهما، وإن كان يبني عليهما لبناء مفهومي الدال والمدلول السميولوجيين اللذين نلمح تفريق بارت بينهما بمسألة الالتحام، فالعلاقة بين اللسانيين علاقة

(١) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٢١.

(2) Elements of Semiology، p. p. 25-30.

(٣) السابق. ص٣١.

تلازم، مثل تلازم وجهي الورقة، بينما العلاقة في العلامة السميولوجيةرهينة الاستخدام، فمتى ما استخدمت، اتحد الدال والمدلول.

ومن جهة أخرى، فإن الدال السميولوجي، بطبيعته دون مجاز، ذو دلالات متعددة، ومع ذلك فإن التعرف على العلامة اللسانية، يقود إلى التعرف على العلامة السميولوجية، وكذلك العكس.

وجدير بالملاحظة أن بارت -في معظم الأحوال وخصوصا في مبادئ السميولوجيا- يسعى إلى إثبات وجه الشبه بين العناصر السميولوجية واللسانية في الخطوة الأولى، وكأنه يسعى إلى إيجاد مشروعية لإدراج السميولوجيا في اللسانيات، ثم يضيف لمفاهيم السميولوجيا ما يميزها عن اللسانية، لكي تشمل العلامة اللسانية وغيرها، ليصل إلى نقل المفاهيم إلى الأنظمة غير اللسانية، كاللباس والمعمار والأثاث وغيرها.

٤-٢-١-٣-٣- المركَّب والنظام:

ليس مفهوما المركَّب والنظام في الطرح السميولوجي بعيدين عن الطرح اللساني، فقد أعيد التنظيم اللساني الذي قدمه سوسير ومن تبعه، وخصوصا هيلمسليف، وجاكبسون، ومارتينيه.

وحين تناول بارت هذين العنصرين انطلق من سوسير[١]، وإن أطلق عليهما تسميتين جديدتين، وعرَّج على أتباعه؛ لتحديد المصطلحات المتنوعة، فهذان المصطلحان من المصطلحات الرئيسة التي اطرد ورودها عند اللسانيين، ولا سيما الرواد، على الرغم من اختلاف التسميات[٢].

(١) السابق. ص. ٥٨.
(٢) السابق. ص. ٥٩.

سوسير	الروابط المركبية	العلاقات التجميعية
هيلمسليف	العلاقات	الترابطات
جاكبسون	التجاور	التجانسات
مارتينيه	التصادر	التعارضات
بارت	الصعيد الجدولي	الصعيد النظامي

أما ما أضافه بارت، فضلا عن التسمية، فإنه يتجاوز التصنيف إلى تطبيق هذين المفهومين على الأنظمة السميولوجيةغير اللسانية، كاللباس والطعام والأثاث والمعمار، حيث أفاد من رومان جاكبسون[١] في هذا الاتجاه.

٤-٢-١-٣-٤- التقرير والإيحاء:

التقرير والإيحاء من المفاهيم اللسانية التي استقتها السميولوجيا من هيلمسليف، فقد أضافت على مفهومي سوسير الدال والمدلول ما يعد ذا أهمية خاصة في دراسة العلامة السميولوجية[٢]، فضلا عن العلامة اللسانية، إذ أوجد تقابلا بين الدال والمدلول والتعبير والمحتوى، وفرّع كلًا منهما إلى عنصرين: الشكل والمادة، ما ينتج عنه أربعة عناصر: شكل التعبير وشكل المحتوى، ومادة التعبير ومادة المحتوى.

ويقصر موضوع اللسانيات على العنصرين الأولين، وبذلك يلتقي مع سوسير في النظرة الشكلية، في حين يقصي مادة الشكل ومادة المحتوى من الحقل اللساني المباشر، فيُلحق الأولى بعلم الأصوات (الفونيمات)، لا علم الصوتيات (الفونولوجيا)، ويلحق الثانية بعلم الدلالة (السيمانتيك).

(١) السابق. ص. ٦١.
(٢) السابق. ص. ٤٠.

ويرتبط بهذين المفهومين مفهومان آخران، كان لهما أثر كبير في تطور السميولوجيا وبنائها، خاصة في بداياتها مع رولان بارت، وهما مفهوما (التقرير والإيحاء)[1]، ويتحدد الثاني انطلاقا من الأول، فإذا كان التقرير يتحدد من خلال ربط (ر) العبارة (ع) بالمحتوى (م)، مما يوجد ثلاثة عناصر (ع/ م/ ر) فإن الإيحاء يتحدد من خلال تحول هذه العناصر الثلاثة إلى عبارة (ع٢) ترتبط بمحتوى ثان (م٢) من خلال رابط ثان (ر٢)، ما ينتج عناصر ثلاثة على المستوى الثاني (ع٢ م٢ ر٢)، يمكن توضيحه وفق الشكل التالي:

	التقرير	
	رابط ١	
	عبارة ١	**محتوى ١**
عبارة ١		**محتوى ١**
رابط ١		
الإيحاء		

(١) السابق. ص. ٨٩.

٤-٢-٢- خطوط الافتراق:

على الرغم من اعتماد السميولوجيا في بنائها وانطلاقها على اللسانيات، فاستثمرت مفاهيمها ووظفت مصطلحاتها، لتبدو في ظاهرها إعادة صياغة فقط إلا أن العمق يكشف عن اختلافات جوهرية بين النظريتين، يجعل من السميولوجيا نظرية جديدة مختلفة عن اللسانيات، وإن كانت امتدادا لها.

كانت المرحلة الحاسمة حين آمن السميولوجيون الرواد أن اللسانيات وصلت، في منتصف القرن الماضي، إلى مرحلة من النضوج والاتساع، لم يسبق لها مثيل، فتشعبت في حقول عدة، ونشأ عنها مدارس لسانية، امتدت لتشمل العلوم الإنسانية، وانتشرت لتغطي المعمورة قاطبة، مما أوصلها إلى غايتها، وفق بعض الدارسين الذين رأوا أن "صرح اللسانيات أصبح يتفكك اليوم من شدة الشبع أو من شدة الجوع مداً أو جزراً"، ودعوا هذا التقويض للسانيات "سميولوجيا"[1].

إذن، جاءت السميولوجيا لتردم الفجوات، وتعوّض النقص اللساني، فظهرت بوصفها عملا "يصفّي اللسان، ويطهّر اللسانيات وينقّي الخطاب مما يعلق به، أي من الرغبات والمخاوف والإغراءات والعواطف والاعتذارات والاعتداءات والنغمات، وكل ما تنطوي عليه اللغة الحية"[2]، وبالتالي فإنها تقوم بدور التطوير لا الإلغاء، وهذا يفسّر لنا موقف بارت والسميولوجيين من اللسانيات.

هذا الدور الذي يراه السميولوجيون للسميولوجيا يحتّم تقديم شيء جديد محتلف عن اللسانيات، يبرر مشروعية هذه النظرية الجديدة؛ لذا

(١) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٢١.
(٢) السابق. ص ص. ٢١-٢٢.

قدَّمت السميولوجيا مقترحات تسدُّ عجز اللسانيات، وخصوصا ما يتصل بمقاربة النصوص الأدبية.

بناء على هذا الموقف من كثير من المفاهيم اللسانية، ظهرت بدائل للتحليل، منطلقة من النص الأدبي، لكنّها ما لبث أن اتسعت لتشمل فنونا عدة، فظهرت اختلافات جوهرية عن النظرية اللسانية، يمكن أن نجملها بالتالي:

أولا: تستقي السميولوجيا مفاهيمها ومصطلحاتها من ميادين عدة، كالفلسفة واللسانيات وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها، في حين تنحصر موارد اللسانيات في ميادين محدودة؛ لذا أشار بارت إلى إيمانه بأن السميولوجيا هي السبيل لإنعاش النقد الاجتماعي، "وأنه يمكن الجمع بين أعمال سارتر Sartre وبريخت Brecht وسوسير Saussure من أجل هذا المشروع"[(١)].

ثانيا: تختلف السميولوجيا عن اللسانيات في موضوعها، فموضوع اللسانيات العلامة اللسانية فقط، أما موضوع السميولوجيا فهو جميع العلامات اللسانية وغير اللسانية، وبتعريف جوليا كريستيفا هي "دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل داخل تركيب الاختلافات"[(٢)].

وهذا فرق جوهري، فإذا كان بالإمكان حصر موضوع اللسانيات فإنه يستحيل حصر موضوع السميولوجيا، لقد "وصلنا إلى استحالة تامة نستطيع أن نحصر معها موضوع هذا العلم ومفاهيمه"[(٣)].

(١) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٢٢.
(٢) علم النص. م. س. ص ١٣.
(٣) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص. ٢٩٥.

ولم تتوقف السميولوجيا عند هذا الحد، فوجدنا بعض[(١)] السميولوجيين، والمتأخرين منهم خاصة، يدرجون التواصل الحيواني والآلي ضمن موضوع السميولوجيا.

ثالثا: تكتفي اللسانيات بدراسة الجملة، ولا تتجاوزها، يقول تودوروف: "تحدد اللسانيات موضوع بحثها في الجملة"[(٢)]، ويقول سشايفر: " لقد توقف التحليل اللساني بنفسه خلال زمن طويل عند الجملة"[(٣)]؛ بحجة أن هذا يضمن لها علميتها، في حين تتجاوز السميولوجيا الجملة إلى النص، وتتجاوز النص إلى ما وراءه، "فأن نقرأ: لا يعني ذلك أننا نقرأ كلمات (كما لا نزال نردد من وقت لآخر)، ولا يعني أن نقرأ جملا، ولكن يعني أن نقرأ في الحال باتجاه النص كله" .

رابعا: قامت اللسانيات على مبدأ جوهري منذ سوسير، هو مبدأ المحايثة؛ فأقصت كل ما هو خارج العلامة، وهذا ما ترفضه السميولوجيا التي تنفتح على ماوراء العلامة، فهي جاءت ككثير من نظريات ما بعد الحداثة، بوصفها ردة فعل على هذا الانغلاق، كما يرى كثير من الدارسين، فالسميولوجيا، انطلاقا من كونها دراسة الشفرات والأوساط، لا بد لها من أن تهتم بالأيديولوجيا، والبنى الاجتماعية، والاقتصادية، والتحليل النفسي، والشعرية، ونظرية الخطاب[(٤)].

خامسا: تنطلق اللسانيات من دراسة اللسان دون الخطاب، وفق مفاهيم سوسير، أما السميولوجيا فترى أن "بين اللسان والخطاب مدًا وجزرًا، حينئذ لا يبدو التمييز بين اللسان والخطاب إلا عملية انتقالية، وشيئا ينبغي التنكر له"[(٥)].

(1) A Theory of Semiotics، P. 8.
(٢) تودوروف، تزيفيتان: النص. ضمن العلاماتية وعلم النص. م. س. ص. ١٠٩.
(٣) السابق. ص. ١٢٠. ويقول ريكور: " مبدئيا كان هذا النموذج [البنيوي] مهتما بالوحدات دون الجملة". (P. 4. Interpretation Theory)
(٤) السيمياء والتاويل. م. س. ص ١٥
(٥) درس السيميولوجيا. م. س. ص٢١

٤-٣- علاقتها بالبنيوية:

ثمة إجماع بين الدارسين على أن البنيوية وليدة اللسانيات، فهي قد تأسست على مفهوم العلامة عند سوسير، لذا أطلق على قسم كبير منها البنيوية اللسانية. وحينما تناولنا علاقة السميولوجيا باللسانيات عنّ لنا أن ندرج البنيوية ضمنها، كونها امتدادًا لها، تستقي منها جل مفاهيمها ومبادئها ومصطلحاتها، غير أننا عدلنا عن ذلك، لسببين:

الأول: يرتبط بموقف السميولوجيين[١] أنفسهم من النظريتين، فلهم موقف مختلف تجاه كل واحدة، إذ رأوا أن البنيوية قراءة منحرفة للسانيات، وعلى الرغم من استثمارهم لكثير من مفاهيمها، خاصة اللسانية منها، إلا أنهم ثاروا عليها، وأعادوا قراءة اللسانيات السوسيرية، على أساس أنها أقرب إلى السميولوجيا منها إلى البنيوية.

الثاني: وهو مرتبط بالأول، يعود إلى انفتاح السميولوجيا، بخلاف البنيوية التي تحدُّ من هذا الانفتاح، وبذلك تلتقي السميولوجيا مع اللسانيات بالكثير من المفاهيم، لكن هذا لا يعني أن السميولوجيا لا تلتقي بالبنيوية، فهناك نقاط اتفاق كثيرة بينهما، تكاد تصل حد التطابق.

بناء على ذلك، سنتناول العلاقة بين السميولوجيا والبنيوية من زاويتين، الأولى من خلال علاقة الامتداد، والثانية من خلال علاقة الارتداد والثورة على البنيوية.

(١) هذا واضح في مشاريع أبرز السميولوجيين مثل رولان بارت وأمبرتو إيكو وجوليا كريستيفا وغريماس وغيرهم. وقد سبق أن تناولنا مواقف هؤلاء وغيرهم بالتفصيل من قبل (انظر: ص ٨٢ وما يليها).

٤-٣-١- علاقة الامتداد:

ليس خافيا أن السميولوجيا استقت من البنيوية كثيرا من مصطلحاتها ومفاهيمها، وليس خافيا أن معظم السميولوجيين جاؤوا إلى السميولوجيا من حقل البنيوية؛ لذا وُصف اللسانيون البنيويون الأوائل بالانتماء إلى السميولوجيا بدرجات متفاوتة، فتودوروف يؤكد اعتماد "كتابات كل المنظِّرين الرئيسيين للسانيات البنيوية (سابير، تروبتسكوي، ياكبسون، هيلمسليف، بنفينست) وجهة النظر السميولوجية، وسعيها إلى إدراج اللسان ضمن أنساق العلامات الأخرى"[١]، وفي المقابل هناك من أدرج السميولوجيا، خصوصا في فرنسا، إلى حدود سنة ١٩٦٠، في البنيوية الفرنسية، تلك التي تأثرت بألسنية هيلمسليف وجاكوبسون تلميذي سوسير، بل إن إيكو نفسه كان بنيويا، لذا وصف وليم راي- William Ray جذوره بأنها متغلغلة "في العرف البنيوي"[٢].

وهذا ما يفسر تأكيد إيكو أن "التيار البنيوي هو الذي وفَّر، في القرن العشرين، الشروط الأساسية لدراسة العلامات"[٣]، ولولاها باتفاقها أواختلافها مع السميولوجيا لما تبلورت نظرية.

هذا التداخل بين النظريتين ليس بمستغرب، طالما أنهما تنتسبان إلى مصدر واحد، هو اللسانيات، فكما أن البنيوية وليدة اللسانيات، فإن السميولوجيا، وخصوصا الفرنسية، استندت إلى تعاليم سوسير النظرية، فاحتذت "نموذج اللسانيات بشكل واضح"[٤].

التقت السميولوجيا بالبنيوية في موضوعها، حيث استطاعت العلامة ودراستها أن توجد ترابطًا بينهما، فإذا كانت السميولوجيا تتمحور حول

(1) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Languag، p، 88.

(٢) راي، وليام: المعنى من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد، ط١، ١٩٨٧. ص. ١٥٢.

(٣) العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه. م.س.. ص. ١١٥.

(4) Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Languag، p. 87.

العلامات، ومن ضمنها العلامة اللسانية، فإن البنيوية تأسست على مفهوم العلامة اللسانية على وجه الخصوص، وهذا، إضافة إلى وحدة المصدر (لسانيات سوسير)، أوجد تقاطعا بين الحقلين.

لقد تبنّى البنيويون اللغة في مقارباتهم، وسبب هذا التبني يعود إلى مبدأ جوهري في نظريتهم، ذلك أنهم رأوا في اللسان نموذجا مثاليا، لما يتسم به من انضباط علمي، قادر على حمل النظرية، ونظامها أي أنه قادر على أن يترجم الأنظمة كلها لغوية وغير لغوية.

ومن هذا المبدأ انطلق البنيويون لتوظيف اللغة في مقارباتهم، فوظّفها شتراوس لمقاربة الأسطورة، ولاكان في التحليل النفسي، وبارت وغريماس في نقد القصة، وكريستيفا في التحليل السميولوجي.

بيد أنه من المهم بدءًا، التفريق بين النموذج البنيوي الأول، والنموذج البنيوي المتطور عبر تاريخه، حيث طرأ عليه تعديل وتوسع، و لم يبق في حدود إطاره الأول، ويمكن تحديد أبرز صور هذا التوسع عبر مسارين[١]:

الأول: تطبيق النموذج البنيوي على مكونات اللسان ما وراء الجملة، وتمثّل أعمال الشكليين الروس، كعمل بروب، ومقاربة شتراوس للأسطورة، المفصل لهذا التحول والتوسيع.

الثاني: تطبيق النموذج البنيوي على الأنساق غير اللسانية، وخصوصا التي تشبه نصوص الاتصال اللساني، ويرى ريكور أن هذا المسار أقل إثارة، غير أن هذا المسار التوسيعي، هو الذي استطاع أن يدرج المسلمات السميولوجية ضمن النموذج البنيوي.

(1) Interpretation Theory, p. 4

وبالتالي فإن البنيوية بدأت تتناسل موجدة أشكالا جديدة، قد تعارض بعض المبادئ المؤسِّسة، وهذا ما حدا بشتراوس[١] إلى رفض كل الأشكال الجديدة من البنيوية، كما رفض كلَّ "البنيويين الصغار" الذين اتهمهم في خاتمة كتابه (الإنسان عاريا ١٩٧١) بأنهم يستخدمون تقنيات البنيويةّ، لكن دون أبنية "حقيقية"[٢].

كلُّ ما سبق يفسر لنا ظهور ما يسمى السميولوجيا البنيوية، حيث إن المنطلق البنيوي الذي طرأ عليه كثير من التطوير لدراسة العلامة، قد أزاح البنيوية تجاه السميولوجيا؛ لذا لاحظ تودوروف على اللسانيين وجهة النظر السميولوجية في دراساتهم.

وقد أكّد ذلك كثير من الدارسين أمثال شولز[٣]، الذي يرى أن السميولوجيا "تأثر تطورها من الناحية التاريخية بقوة بالبنيوية الفرنسية وبما بعد البنيوية، أي بالإنثروبولوجيا البنيوية وبحفريات ميشيل فوكو وبالفرويدية الجديدة عند جاك لاكان، وبعلم الكتابة عند جاك ديريدا"، وليس خافيا أن الرابط المشترك بين هؤلاء هو البنيوية، وإن تنوعت الحقول.

ويتفق ديكرو وسشايفر[٤] مع شولز، في أن السميولوجيا الفرنسية "استوحت بشكل وثيق من النموذج اللساني البنيوي، (وبشكل جوهري من نظريات جاكبسون وهيلمسليف)".

(١) عصر البنيوية، م. س. ص. ٣٥٧.
(٢) السابق. ص. ٣٦٠.
(٣) السيمياء والتأويل. م. س. ص. ١٥.
(٤) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص. ٢٩٨.

وبالفعل، فإن الدور الذي أدّاه جاكبسون[1] في تاريخ السميولوجيا لا يخفى، إذ يمكن أن نعدَّه المفصلَ بين البنيوية والسميولوجيا؛ لذا وصف فكتور إيرليخ نظريته بالمبشِّرة بالسميولوجيا الأدبية التي بلغت مرحلة من النضج والمرونة [2].

وإذا كان إيرليخ يرى عمل جاكبسون مبشرا بالسميولوجيا، فإن كثيرا من الدارسين رأوا في نظريته الأساس السميولوجي، وخصوصا للسميولوجا الأدبية، من هؤلاء روبرت شولز[3] الذي لاحظ أن سميولوجيا الأدب المعاصرة تأسست على أساس عمل جاكبسون، وأن مخططه السداسي في الفعل الاتصالي الأساسي خصب ضمنا، لا لأن السمات الست هي كل ما يمكن تمييزه في الاتصال الإنساني؛ بل لأنها كل ما يمكن التعامل معه تحليليا.

إن هذا المخطط أو النموذج، شكّل منطلقا صلبا للسميولوجيا، إذ أسهم في توسيع التموذج البنيوي، من خلال فتح المجال لتحليل الأنساق غير اللغوية؛ لذا أفاد منه بارت في مقاربته للقصص، و غريماس -كما مر- في بناء مربعه السميولوجي، كما وسع من جهة أحرى مفهوم العلامة ليتجاوز المفردة السوسيرية والجملة إلى الرسالة، وهذا فتح الآفاق للبنيوية على السميولوجيا.

وقد كان أثر جاكبسون كبيرا فيمن زاملوه أو تتلمذوا عليه، إذ عمل مع تروبتسكوي- Nikolay Trubetskoy وموكاروفسكي-Jan Mukarovsky،

(١) لساني ولد بموسكو ١٨٩٦ أظهر اهتماما بالآداب العالمية في سن مبكرة، وعاصر مدارس شعرية في روسيا، منها الرمزية والمستقبلية، وكان يكتب الشعر ضمن هذه الأخيرة. اكتشف سوسير في أثناء دراسته الجامعية وتأثر به كثيرا، حتى إنه احتذى في بداياته لسانيات سوسير بحذافيرها. أسهم في تأسيس عدد من الحلقات اللسانية منها حلقة موسكو، (١٩١٥-١٩٢٠) ومدرسة الشكلانيين الروس، وحلقة براغ اللسانية (١٩٢٦) التي كان نائبا لرئيسها قبل أن يتحول إلى البنيوية. اشتهر جاكبسون بالتنقل من مدرسة إلى أخرى، كما اشتهر بالتنقل من بلد إلى آخر حتى إنه عاش" يغير بلدا ببلد أكثر مما يبدل حذاء بحذاء"، فبعد أن أمضى ما يقارب عشرين عاما في تشيكوسلوفاكيا، أخذ يتردد بين الدانمارك والنرويج والسويد إلى أن حل به المطاف أخيرا في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٤١، وإن استمر في التطواف مدرسا ومشاركا في الندوات والمؤتمرات في أنحاء العالم. عمل في التدريس في عدد من الجامعات الأمريكية بوصفه أستاذا للسانيات واللغة. وأسهم إسهامًا رئيسًا في أعمال حلقة نيويورك اللسانية وإدارة مجلتها (Word). وفي آخر حياته تفرغ لدراسة الشعر حتى وافته المنية ١٩٨٢.

(٢) الشكلانية الروسية، ترجمة الولي محمد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠. ص. ١٣٧.

(٣) السيمياء والتأويل. م.س. ص. ١٧.

وهذا الأخير يُعزى إليه المقاربة السميولوجية للنصوص الفنية، كما أن جاكبسون أستاذ مؤسسي اللسانيات الفرنسية أندريه مارتينيه وإميل بنفينست[1]، ناهيك عن أنه "لعب دورا حاسما في تشكيل ذهنية ليفي شتراوس الذي اعتمد في بنيويته على كشوفات جاكبسون"[2].

وإذا ما أضفنا أثره في بارت وإيكو، وغريماس في بناء سميولوجيته السردية، وخصوصا مربعه السميولوجي الشهير، وغيرهم من السميولوجيين- فإننا ندرك أسباب قول تودوروف[3]، عند حديثه عن تاريخ السميولوجيا: "كل ما قبل جاكبسون يدخل في سياق ما قبل تاريخ هذا العلم"، في إشارة إلى أنه المؤسس الحقيقي.

وإذا كان مشروع بارت السميولوجي يعتمد اللسانيات منطلقا، فإن مشروع غريماس يُعد ذروة تزاوج البنيوية والسميولوجيا، أو ما يمكن أن ندرجه تحت السميولوجيا البنيوية، فقد استثمر لبناء نظريته المفاهيم الأساسية للبنيوية، بل إن أدق التفاصيل ترتبط ارتباطا وثيقا بالحقل البنيوي، وهذا ينسجم مع ما ذهب إليه تودوروف، الذي رأى الاتجاه السميولوجي اللساني مهيمنا في فرنسا، "وإنه ليتطابق إلى حد ما مع البنيوية"[4].

أكد شتراوس أن البنية يجب أن يتوافر فيها شرطان[5]:

الشرط الأول: أن تشكل نسقا خاضعا لمبدأ التماسك الداخلي.

الشرط الثاني: أن يظل هذا التماسك غير مرئي عند ذاك الذي يتأمل نسقا معزولا؛ لكي لا يظهر إلا لحظة حدوث التحولات التي تمكن بعض الخصائص المتماثلة من الانتماء إلى أنساق مختلفة ظاهريا.

(١) ما هي السيميولوجيا. م. س.ص. ٤٠.

(٢) في المقاربة السيميائية. م. س. ص ص. ١٥٣-١٥٤.

(٣) السابق. ص. ١٥٤.

(٤) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص. ٢٩٨.

(٥) العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه. م.س.. ص. ١٣٠.

وإذا ما دققنا النظر في هذين الشرطين، ومدى توافرهما في سميولوجيا غريماس، فإننا لن نجد صعوبة أبدا في تحديدهما ضمن شروط نموذجه.

ومن زاوية أخرى انطلق غريماس في بناء نموذجه من الثنائية التي تَعد، من وجهة النظر البنيوية، من أبرز مميزات الفكر البشري[١]، فصنف التقابلات في أزواج ثنائية متقابلة: محورية (زوج - زوجة)، ومراتبية (كبير - صغير) ومتناقضة (متزوج - عزب) ومتضادة (صعد - نزل) وتبادلية (اشترى - باع).

واستنادا إلى هذه الثنائية، راح يبني مشروعه في التحليل السميولوجي للمحتوى، في مقابل التحليل اللساني للتعبير، وهذا مثّل، في نظر بعض الدارسين المنحنى "الذي أرَّخ للانعطاف من المسار البنيوي إلى المسار السيميائي، وكان بمثابة وضع لبنات لسيميائيات محايثة"[٢]، بل لعله المنعطف لمزاوجة السميولوجيا بالبنيوية.

ومع هذا المنعطف، إلا أننا نجد الأثر البنيوي واضحا في نظريته، وبارزًا في مربعه العاملي، الذي حدد فيه الشخصيات من منظور العوامل، لا من منظور الكائنات النفسية، وذلك اعتمادا على وجهة النظر البنيوية التي تنظر إلى الشخصية بوصفها وظيفة داخل القصة، لا بوصفها شخصا، كما في المنظور التقليدي، ما يعني أن مفهوم العوامل نتاج بنيوي في الأساس؛ لأنها تشكل وحدات بنيوية، يمكن من خلالها استيعاب الخطابات السردية، اتباعا لبروب في مقاربته البنيوية.

---

(١) قام مشروع البنيوية على الثنائية انطلاقا من أفكار سوسير، وهي أفكار استندت إلى رؤية فكرية غربية، ترى فيها فائدة منهجية. وقد أشار بارت نفسه إلى أثر الفكر اللساني في تقسيمه العناصر إلى ثنائيات، مؤكدا فائدة هذا االتصنيف الثنائي في دراسة سيطرته على العلوم الإنسانية عموما في العصر الحديث Elements of Semiology، p. 12.

(٢) الدلالات المفتوحة. م. س. ص. ١٠.

لذلك ميز بين العامل والممثل في الشخصية، فإذا كان الممثل شخصا يقوم بدور ما، فإن العامل أوسع من ذلك بكثير، فقد يكون العامل عدة ممثلين؛ لأنَّ العبرة بالفعل الثابت في كل حكاية، وإن تعدد ممثلوه.

وعليه ليس شرطا أن يكون العامل ممثلًا أيّ شخصًا، وإنما يكون فكرة، أو مكانا، أو زمانا، أو غيرها، دون اهتمام بالذات، وبما أن الممثلين لا حدود لعددهم. فإن بنية العوامل محددة بستة.

وقد أثبت هذا المفهوم قابليته للتطبيق في كل مجالات الحياة، إذ يُشكل البنية الأساسية لعالم المعنى، مهما تنوّعت هذه البنية من مجتمع إلى آخر.

كل هذه المفاهيم والنماذج تبين تغلغل البنيوية في السميولوجيا السردية عند غريماس، الذي استطاع أن يؤلف بين مشاريع عدد من البنيويين، من أبرزهم جاكبسون وبروب وشتراوس، إضافة إلى سوسير وهلمسليف وبارت، وليس المقام مقام تفصيل، وإلا لتتبعنا النظرية مقارنين بين البنيوية والسميولوجيا السردية، فلعل ما ذكر هنا، إضافة إلى حديثنا السابق عن سميولوجيا غريماس، كاف لتوضيح استثماره للمفاهيم البنيوية.

٤-٣-٢- علاقة الارتداد:

برزت البنيوية في القرن الماضي، واحتلت مكان الصدارة في العلوم الإنسانية، وانتشرت وتشعبت تشعبا كبيرا، وخصوصا في فرنسا، "لدرجة أن بعض المتدينين يستخدمونها من أجل الكشف عن مشكلة الإيمان والفهم العلمي للكشف الإلهي"[١].

---

(١) ساخاروفا، أت، أ: من فلسفة الوجود إلى البنيوية، دراسة نقدية للاتجاهات الرئيسية، ترجمة وتقديم: أحمد برقاوي، دار دمشق، دمشق– بيروت، ١٩٨٣. ص. ١٦٦.

غير أنها بعد هذا الامتداد وصلت إلى مرحلة الانحسار، مما جعل سهام النقد تصوب إليها بشدة، فظهرت مواقف مناهضة لها، واتهمت بالقصور وعدم الكفاية المنهجية.

والملاحظ أن الثورة في وجه البنيوية بدأت من البنيويين أنفسهم، الذين رأوا أن البنيوية ليست النموذج الأنجع في المقاربة، واتهمها السميولوجيون -ومعظمهم بنيويون- بأن صرحها أصبح يتفكك "من شدة الشبع أو من شدة الجوع مداً أو جزراً"، وأن هذا التفكك هو "السميولوجيا"[١].

وبعد أن كانت كلمة البنيوية من أكثر الكلمات إغراء، أصبحت بلا جدوى؛ لذا رأى كولر الذي تحول منها إلى التفكيكية، أن كلمة "البنيوية" فقدت جدواها بعدما أصبحت تضم كثيرا من العلوم[٢].

وأكثر من ذلك ظهرت جماعات كانت تنتمي إلى البنيوية، فتحولت إلى مهاجمتها، مثل حلقة مجلة "تل كل"[٣]، التي انتهى أعضاؤها إلى أنه لايمكن للبنيوية أن تتعامل تعاملا ناجحا بذاتها مع المشكلات اللغوية الجديدة، وتحولوا تدريجيا إلى نظريات أصغر[٤].

من هنا ظهرت بعض الأصوات التي تؤكد الاختلاف بين البنيوية والسميولوجيا، وأنه على الرغم من أن التيار البنيوي وفَّر، في القرن العشرين الشروط الأساسية لدراسة العلامات[٥]، إلا أنه "من الخطأ خلق تطابق بين السيميائيات والبنيوية كما حدث ذلك من قبل. فبيرس وموريس يصنفان باعتبارهما من أهم السيميائيين، ولكنهما ليسا بنيويين على الإطلاق، وعلى

(١) درس السيميولوجيا. م. س. ص. ٢١

(2) Structuralist Poetics. p. 3.

(٣) راجع: ص. ٩٦.

(٤) عصر البنيوية. م. س. ص. ٣٥٩.

(٥) العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه. م.س.. ص. ١١٥.

العكس من ذلك، هناك الكثير من اللسانيين البنيويين الذين لم يهتموا أبدا بالسيميائيات باعتبارها علما"[١].

وهذا جعل السميولوجيا تنفصل شيئا فشيئا عن البنيوية، وخصوصا السميولوجيا المندرجة تحت التأويل، معلنة ثورتها على البنيوية، وكونها ردة فعل معارضة للبنيوية من خلال مبدأين أساسين: الأول مبدأ المغالاة في منح اللسان الفرادة في التحليل، والثاني مبدأ الانغلاق على النص، واستبعاد السياق خارجه.

تمحورت الانتقادات الموجهة إلى البنيوية، حول بعض القضايا التي تكررت عند كثير ممن هاجموا البنيوية، مثل الغموض ومسألة المعنى، فبالنسبة للأولى تساءلت إديث كريزويل[٢] إن كانت "حركة فكرية بعينها يمكن أن تشيع دون أن تكون مفهومة تماما"، في تلميح إلى الغموض الذي تتسم به البنيوية.

هذا الغموض الذي تفترضه الباحثة، ليس حصرا على غير الفرنسيين، ممن لا ينتمون إلى الثقافة التي نشأت فيها، بل يشمل أيضا الفرنسيين أنفسهم، فهاجم بعض النقاد مقاربات البنيويين، ووصفوها بأنها تزيد النص غموضا لا جلاء، وأنها لا تعدو "توصيف قوانين بنيوية يستعصي فهمها، لا على القارئ العادي، بل على القارئ المثقف العارف"[٣].

أما مسألة المعنى فقد أخذت الحيز الأكبر من الهجوم، حيث أُخذ على البنيوية أن نموذجها لا يحقق المعنى، فباستطاعتها "تقديم نقطة ارتكاز عامة للنص الأدبي، لكنها لا تقدم منهجا لتفسيره"[٤]، ويرى عبد العزيز[٥]

(١) السابق، الصفحة ذاتها.

(٢) عصر البنيوية. م. س. ص. ١٣.

(٣) حمودة، عبد العزيز: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، ٢٣٢، إبريل، ١٩٩٨م. ص. ٢٨١

(٤) السابق. ص. ٢٨٢.

(٥) السابق. ص. ٢٨٧

حمودة أن "أزمة البنيوية التي وأدتها في أقل من عقد * تقريبا تتمثل في فشلها في تحقيق المعنى"[١].

وقد اعترف بعض البنيويين بذلك، فتودوروف يرى أن "ما يمكن وصفه موضوعيا –عدد الكلمات أو عدد المقاطع أوالأصوات– لا يمكننا من استخراج المعنى"، وهذا يفسر إصرار مناهج ما بعد البنيوية على المعنى، حتى المنتسبة إلى البنيوية، مثل السميولوجيا السردية التي جعلت اكتشاف المعنى هدفا رئيسا[٢] من أهدافها، ومشكل "المعنى الذي تريد السميولوجيا الاهتمام به يتجاوز كثيرا مشكل الاتصال الذي تتضمنه ولكنه ليس إلا شكلا خاصا منها"[٣].

ثورة الأدب:

يبدو أن الثورة ارتبطت بظهور البنيوية الأدبية، التي سعت إلى علمية النقد، مستعينة بالبنيوية اللسانية، وخصوصا في بداية ظهورها، فقد بدأ بعض البنيويين بالتشكيك بقدرة اللسانيات البنيوية على مقاربة النصوص.

من هؤلاء ريفاتير، الذي أكد عدم فائدة ما تقدمه القراءة البنيوية، وذلك في معرض نقده اللاذع لتحليل جاكبسون وشتراوس لقصيدة بودلير "القطط"، فقد تساءل "عما إذا كانت اللسانيات البنيوية مناسبة للتحليل الشعري"[٤]، مشيرا إلى أن البنيوي وهو يدخل "مناهج دقيقة وصارمة" في الشعرية، يفتقر إلى "شيء دقيق ومجهول غير محدد يتشكل منه الشعر"[٥].

* الحقيقة أن حمودة بالغ في التقليل من عمر البنيوية، فالواقع أنها تمتد لعقود طويلة، يرجعها بعضهم إلى سوسير، بداية القرن العشرين، أما إن كان يقصد لفظ البنيوية، فقد ظهر مع تينيانوف في العشرينيات، ويربط كثير من الدارسين البنيوية بجاكبسون الذي استخدم كلمة البنيوية سنة ١٩٢٩. وقد أشار حمودة نفسه إلى هذه المعلومات: انظر كتابه سابق الذكر. ص ١٨٧. والكتاب كله يتناول هذه النظرية بناء على هذا الامتداد.

(١) السابق. ص ص. ٢٨٣–٢٨٤.

(٢) مدخل إلى السميائيات السردية والخطابية. م. س. ص. ٥٥.

(٣) السابق. ص. ٥٦.

(٤) مفاهيم الشعرية. م. س. ص. ٦٧.

(٥) قضايا الشعرية. م. س. ص. ٨٠.

ورأى أن ما قام به الناقدان مجرد "إعادة بناء السونيتا[١] إلى قصيدة عليا... على أيدي الناقدين، قصيدة لا يستطيع القارئ العادي الوصول إليها، ومع ذلك فإن البنى التي يصفانها لا تشرح ما الذي يقيم العلاقة بين الشعر والقارئ".

ويخلص إلى أنه " ليس بمقدور التحليل النحوي لقصيدة ما أن يعطينا أكثر من نحو القصيدة"[٢]، واصفا ما وصلت إليه دراستهما أنه "توصيف قوانين بنيوية يستعصي فهمها، لا على القارئ العادي، بل على القارئ المثقف العارف"[٣].

ويسم كولر[٤] البنيوية بأنها "نظرية عن العمليات التي تستطيع بها الأشكال النحوية إغراء القراء... "، ويرى أن ما تقدمه البنيوية من "توازيات كثيرة وتكرار كثير في النصوص الأدبية ليست له قيمة كبيرة في حد ذاته وليس له قيمة في الشرح".

ويذهب شولز[٥] أبعد من ذلك، حيث يرى أن البنيوية تمثل خطرا حقيقيا على الأدب، وذلك بدعوى إنطاق النص الأدبي بأشياء في بعض الأحيان ليست فيه، بل إن ما يحدث في الواقع ليس مجرد إنطاق، بل هو تعذيب، ففكرة "وضع اللغة للشعر فوق جهاز الشد Rack وإرغامه على الإفضاء بأسراره، أو ما هو أسوأ، على الاعتراف الكاذب، كانت مثار رعب كبير في العالم الأدبي، وقد كانت النتائج الفعلية للنقد الأدبي الذي قام به البنيويون فظيعة بما فيه الكفاية"[٦].

(١) أي قصيدة القطط، والسونيتا– Sonnet قصيدة من أربعة عشر بيتا، ثمانية منها تتألف من قسمين، كل قسم في أربعة أبيات لها قافيتان، يليهما ثلاثيتان، والمفروض في الرباعيتين أن تشتمل كل منهما على معنى مكتمل وأن البيت الأخير في السونيتا هو بيت القصيدة ويسمى بالسقطة.

(٢) المرايا المحدبة. م. س. ص. ٢٨٣.

(٣) السابق. ص.٢٨١.

(٤) السابق. ص. ٢٨٣.

(٥) السابق. ص ص. ٢٨٤.

(٦) السابق. ص. ٢٨٥

ويستخلص حمودة -بعد مناقشة واسعة للبنيوية- عدة عوامل تسببت في إفشال البنيوية وإعاقتها عن تحقيق هدفها المبدئي والأساسي، وهو مقاربة النص الأدبي وإنارته من داخله، هذه العوامل هي[١]:

أولا: مبالغة البنيويين في ترجمة ذاتية النسق الأدبي واستقلال نظامه، على الرغم من أن النص ليس أنساقا لغوية وتركيبات بنائية ذاتية الدلالة فقط.

ثانيا: استبدل البنيويون الناقد بالمؤلف، ومنحوه مسوح الإبداع الذي تجاوز إبداع النص، مما أدى إلى نشوء لغة مقاربة نقدية مستفزة، ارتبطت بغموض المصطلح النقدي، وهو غموض متعمد، و"صلف وغطرسة بنيوية تتمثل في تجهيل الآخرين ورفض التبسيط"[٢].

ثالثا: اعتمد البنيويون شعار"علمية النقد"، وهذا أوجد معادلة صعبة تتمثل في مقاربة "هي الوصول إلى موضوعية علمية لتحليل مادة -هي مادة الشعر- غير علمية أساسا"[٣].

رابعا: ارتباط البنيوية بالنموذج اللغوي سعيا إلى العلمية، فكان هذا المسعى هو سبب قتل البنيوية، فقد أثبتت التجارب أن النموذج اللغوي لا يتفق بالضرورة مع النسق الأدبي، وإذا كان ملائما لبعض الأنواع الأدبية، فإنه غير ملائم لبعضها الآخر، ونجاحه في التطبيق على الأساطير والقصص الشعبية، كما هو الحال مع بروب وشتراوس، وهي أقرب للسرد، يتعذر في أنواع أخرى كالشعر.

ومن هنا جاءت السيميولوجيا، كغيرها من نظريات ما بعد الحداثة،

(١) السابق. ص ص. ٢٨٧-٢٩٠.
(٢) السابق. ص ص. ٢٨٨.
(٣) السابق. ص ص. ٢٨٩.

بوصفها ردة فعل على البنيوية التي انتهى عصرها، ليس في فرنسا، كما تقول كريزيويل فحسب، بل في العالم كله، لكنها مع انتهاء عصرها، لا زالت تتخلل الفكر وتسهم في صياغة ما بعد البنيوية[١].

٤-٤- علاقتها بالتحليل النفسي:

قد تبدو الصلة واهية بين السميولوجيا والتحليل النفسي، لكنَّ القراءة الفاحصة للمنجز السميولوجي عامة، ولمنجز جوليا كريستيفا على وجه الخصوص، تظهر خلاف ذلك، وأنَّ السميولوجيا في توجه مهم منها، ونعني به السميولوجيا التحليلية، ما كان لها أن توجد لولا استثمارها للتحليل النفسي.

ومع أن التحليل النفسي نشأ حصرا في حقله الخاص، وهو حقل الأمراض الذهنية، إلا أنَّ نظرية فرويد عن الأحلام، وتوظيفه للأدب، فتح التحليل النفسي على المنتج الثقافي، ولا سيما أن جوهر تحليل فرويد -كما يقول مارسيل ماريني[٢] -Marcelle Marini- "اختبار مبتكر للكلام والخطاب".

وتبدو علاقة السميولوجيا بالتحليل النفسي أظهر فيما أنجزه كلٌّ من جاك لاكان وجوليا كريستيفا، الأول فيما يتصل بقراءته الجديدة لفرويد، وهي قراءة انحرفت انحرافا بيّنا إلى الحقل اللساني، وربطت بين التحليل النفسي والبنيوية اللسانية التي استطاع من خلالها نقل التحليل النفسي إلى الحقل اللساني، والبنيوي منه خاصة.

(١) عصر البنيوية. م. س. ص. ١٨.
(٢) النقد التحليلي – النفسي. م. س. ص. ٥٩.

أما كريستيفا فمن حيث التأليف بين السميولوجيا والتحليل النفسي، أو نقل التحليل النفسي إلى الحقل السميولوجي، وذلك من خلال نظريتها الشهيرة السميولوجيا التحليلية (السيماناليز).

وعليه فإن التحليل النفسي، ليس موضوع دراستنا، بل إن ما يهمنا منه، في هذا المبحث، ما يتصل ببناء السميولوجيا التحليلية عند كريستيفا على وجه الخصوص، فالسميولوجيا التحليلية، كما تبدّت عندها، تمتح من أصلين رئيسين، هما البنيوية اللسانية، والتحليل النفسي، وليس الشق البنيوي اللساني بحاجة إلى تأكيد، وخصوصا أن كريستيفا ظهرت في بداياتها بنيوية، ثم انضمت مع البنيويين الثائرين إلى حلقة تارتو –كما أسلفنا– وأدت دورا بارزا فيها.

أما الشق الثاني، وهو موضوعنا هنا، فقد استندت فيه إلى ميراث تحليلي كبير، يبرز فيه بشكل واضح سيجموند فرويد وجاك لاكان، إذ مثَّل الأول منطلقا، ومثَّل الثاني حلقة الوصل بين فرويد وكريستيفا، بحيث يمكننا من خلال تتبع عكسي لنظرية كريستيفا أن نربطه، بما لا يدع مجالاً للشك، بنظرية فرويد، وخصوصا من خلال عيني لاكان، وما أحدثه من مفاهيم مرتبطة بالبنيوية خاصة.

إذن، لا يمكن الحديث عن أثر التحليل النفسي في بناء السميولوجيا، وكونها تمثّل جذرا مهما في الدراسات الحديثة، دون الانطلاق من فرويد، ونظريته في التحليل النفسي.

وحيث سبق أن تناولنا بالتحليل، الصلة بين فرويد والسميولوجيا، عند حديثنا عن الجذور السميولوجية، فإننا سننطلق هنا من لاكان، وسنستدعي فرويد من خلال القراءة اللاكانية.

٤-٤-١- التحليل النفسي والبنيوية:

انطلق لاكان من فرويد، معتمدًا على مفاهيمه في التحليل النفسي، ومستثمرا إياها في تأسيس نظريته، بل إنَّ لاكان في (العودة إلى فرويد)، ليس سوى مكتشف لفرويد من جديد، بوصفه عالما لغويا.

وقد أشار لاكان[١] نفسه، وهو ما يوحي به شعار "العودة إلى فرويد"، إلى أنه لا يقترح تفسيرا جديدا للتحليل النفسي، وإنما يسعى للكشف عن أهمية دراسة اللاشعور عند فرويد بوصفه لغة ذات بنية خاصة.

والواقع أن ذلك مقبول فيما يتصل بالتحليل النفسي، لكنَّ لاكان في استثماره لهذا التحليل أنجز الكثير، ولم يقتصر على تفسير فرويد فقط، فمن خلاله عرفت اللسانيات البنيوية طريقها إلى التحليل النفسي، وعرف التحليل النفسي طريقه إلى اللسانيات البنيوية، لقد أعطى حق الصدارة في حقل التحليل النفسي للسانيات البنيوية.

وتَمثَّل هذا الدور، من خلال عمله في ربط التحليل النفسي بالبنيوية، وخصوصا تحليل "الرسالة المسروقة" الذي أجراه في عمله المجموع "كتابات" (Ecrits)، وكان يهدف إلى تأسيس نظرية للَّاوعي، مستندة إلى نظرية فرويد من جهة، وإلى اللسانيات البنيوية، من جهة أخرى، وهذا أسهم في بناء نظرية متجاوزة للحقل الواحد، فحضّرت مفاهيم متنوعة، ومنتمية إلى حقول مختلفة في حقل خاص.

٤-٤-١-١- لاكان قارئا لفرويد:

قُرئ فرويد، فيما يتصل بحقل التحليل النفسي، قراءات متعددة

---

(١) مشكلة البنية. م. س. ص. ١٥٨.

ومتباينة، وخصوصا من تلاميذه الذين هاجمهم لاكان[١] هجوما عنيفا، ووصفهم بالجمود، و"أنَّهم ينطلقون من نظرة آلية، تحوّل الإنسان إلى آلة"، ووصف نزعتهم العلمية بـ"الزائفة"، التي قادتهم إلى "التشخيص الخاطئ" لحالات مرضاهم.

وانطلاقا من هذا الاعتراض قدم قراءة جديدة، تسعى إلى قراءة فرويد من منطلق لساني، فنادى من البدء بـ"العودة إلى فرويد"[٢]، مشيرا إلى أن هناك انقطاعا بين فرويد ومن يزعمون أنهم تلاميذه، لذا رأى لزاما العودة إلى فرويد، وقراءته قراءة جديدة، بحيث تلتزم القراءة الجديدة وضع "مشكلة اللغة" في جوهر النظرية التحليلية ومحور اللاشعور الفرويدي.

لقد أنجز فرويد ما يعد بحق بذرة السميولوجيا التحليلية، دون أن يسعى إلى ذلك، لكن ما قدمه -ككثير من الإرهاصات- ترك أثرًا بارزاً في تشكيل ذهنية لاكان، الذي دفع بهذه الإنجازات إلى الأمام، وذلك من خلال إعادة قراءته فرويد من جديد، على أساس لغوي، ما جعله يمثل حلقة مهمة في تاريخ التحليل النفسي عامة، والتحليل السميولوجي خاصة، وهذا أدَّى ربط فرويد بكريستيفا ربطا ماكان له أن يتم بدونه.

٤-٤-١-٢- فرويد عالماً لغوياً:

إن الحقل الأهم عند لاكان هو "القول"، وهو ما لم يلق العناية من تلاميذ فرويد، على الرغم من أنه -وفق لاكان- "عالم لغوي"، وهو القائل بأن "الأمراض تتكلم"، وأنه قادر على إسماعنا ما تقول، واللاشعور ليس مجرد مخزن للغرائز، بل مقرٌ يميِّزه" الكلام"[٣].

(١) عصر البنيوية. م. س. ص. ٢١٠.
(٢) مشكلة البنية. م. س. ص ١٥٧.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

ومما يعزِّز وصف فرويد بالعالم اللغوي، تفسيره الأحلام بالألعاب اللغوية الرمزية، والمرض النفسي بالعرض"الدال" لا المدلول، والجنون بالقول الذي لا قائل له[١].

وبما أن قراءة فرويد من جديد، إعادة اكتشاف لتأثيره الحقيقي في دراسة لغة اللاشعور، فإن لاكان يُصر على الدور الرمزي الكبير الذي أداه فرويد، ويقرِّر أن كتاب فرويد "تفسير الأحلام" ما هو إلا كشف عن "الوظيفة الرمزية" عند الإنسان، تماما مثلما وجدها متجلية في "عقدة أوديب"[٢]، ويخلص لاكان إلى أن "حجر الزاوية" في منجز فرويد العلمي هو "الدال" وسيادته، و"الكلام" وصدارته.

من جانب آخر، يؤكد لاكان قوة الرمز في حياة الإنسان، وأنه "يتكلم لأن الرمز قد خلق منه إنسانا"[٣]، ومصدر قوة الرمز تكمن في أن "اللاشعور بنية تشبه بنية اللغة"[٤]، واللغة أو الكلام هي روح التحليل النفسي الذي لا يمكن أن يقود النفس إلا بواسطة "حل شفرات"، أو "فض ألغاز"[٥]، تُنبئ عن منطق خاص للَّاشعور.

ويبلغ إسهام لاكان ذروته، فيما يتصل بدراستنا، عندما يستعين بنظرية سوسير اللسانية لتأسيس مفهومه عن الدال، ولكنه لا يعيد نسخها، بل يقدم حلا للدال والمدلول النفسي من أهم الحلول التي ستقود، فيما بعد، إلى تطور هائل في مقاربة النصوص الأدبية.

يرتبط مفهوم الدال والمدلول -هنا- بطبيعتهما القريبة من الدال

(١) السابق. ص. ١٥٩.
(٢) السابق. ص ١٦٠.
(٣) السابق. ص ١٦١.
(٤) السابق، الصفحة ذاتها.
(٥) السابق. ص ١٧٠.

والمدلول اللغوي من جهة، والمخالفة لهما من جهة أخرى، فالدال في لغة اللاشعور لا يحيل ضرورة إلى مدلول واضح، وهذا يوضح أن لهذه اللغة بيانها الخاص، الذي ينحصر بقاعدتين أساسيتين[١]: الاستعارة والكناية، فالاستعارة تُحِلّ لفظاً مكان لفظ، بينما تُشير الكناية إلى جزء يمثل كلا.

ويقابل لاكان -رابطا بين اللسانيات ونظرية فرويد- بين الاستعارة والكبت والكناية والتحويل[٢]، مقرراً أن فهم عمل الحلم بدون هذه المقابلة محال.

وهنا يبرز الدور الذي أدَّاه لاكان، فهو، وإن كان يعيد قراءة فرويد، إلا أنه يختلف معه في نقطة جوهرية، هي أن فرويد يتحدث عن "بنية نحوية" للاشعور، بينما يتحدث لاكان عن "بلاغة"، أو "بيان" للاشعور، مما يوضح توظيفه للمفاهيم اللسانية في نظريته.

٤-٤-١-٣- الرسالة المسروقة[٣]:

حوّل لاكان منهج فرويد من ربط القصة بأحلام وتداعيات مرضاه، أو ذاته بوصفه محللا، إلى ربط جديد، قادته إليه اللسانيات، إضافة إلى نظرية فرويد، حيث ربط النصوص بعضها ببعض: "نص فرويد" (نظرية التحليل النفسي) ونص بودلير (التخييل القصصي)، وذلك سعيا إلى إنتاج نص جديد هو "نصه" (نظرية لاكان)[٤]. وبذلك أحدث نقلة في التحليل النفسي الفرويدي.

وجد لاكان في قصة الرسالة المسروقة لإدجار ألان بو ما يعزز فكرة

(١) السابق. ص ١٧٢.

(٢) السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) استهل لاكان كتابه الضخم (كتابات) بفصل عنونه (سيمينارعن الرسالة المسروقة)، وسيمينار وفق – شوشانا فيلمن – تعليق مكتوب عن فصل دراسي استغرق عاما كاملا وقد تم تكريسه لاستكشاف نص أدبي قصير (انظر: فيلمن، شوشانا: الرسالة المسروقة وحالة بو ضمن: (جاك لاكان إغواء التحليل النفسي) إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم، ضمن المشرع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩ص ٢٣٠).

(٤) مدخل إلى مناهج النقد الأدبي. م. س. ص. ٧٩

فرويد المقررة أن "النظام الرمزي هو العامل المكون -إن لم نقل المؤسس- للذات"[١].

وقصة الرسالة المسروقة تدور حول مشهدين رئيسين[٢]، الأول يقع في صالون الملكة الصغير، إذ تتلقى رسالة، وفي أثناء قراءتها يدخل الملك، فتضعها مقلوبة على الطاولة، ويرى الوزير الرسالة، ويلاحظ اضطراب الملكة، فيستبدل بالرسالة رسالة أخرى، وتقف الملكة عاجزة عن عمل أي شيء، على الرغم من اكتشافها لعمل الوزير، ويقع المشهد الثاني في مكتب الوزير حيث ينجح المحقق (دوبين) باستعادة الرسالة، بعد أن يفتعل حادث طريق؛ للفت انتباه الوزير.

تناول لاكان هذين المشهدين، مهملا الدراسة النفسية للشخصيات، ومعتمدا القراءة البنيوية للقصة، فالمشهد الأول "بلا أدنى تردد، المشهد الأساسي "بينما يعد المشهد الثاني تكرارا له"[٣]، وما يشكِّل التكرار، ليس مجرد التشابه في الموضوع، وإنما في الموقف البنيوي بشموليته، وذلك استنادا إلى النظام الثلاثي للشخصيات والحدث والرسالة[٤].

وسعيا إلى التنظيم المنطقي البنيوي للمشهدين، يحدد لاكان مواقع الذات في مواجهة الحقيقة، بأن هناك "ثلاث لحظات تنظم ثلاث نظرات يحملها ذوات ثلاث، ويمثلها في كل مرة أشخاص مختلفون"[٥]، وبالتالي فإن ما يتكرر ليس أفعالا سلوكية، وإنما وظائف بنيوية، تحدِّد ثلاث وجهات نظر مختلفة، وتجسِّد ثلاث علاقات لعملية الرؤية[٦]:

(١) مشكلة البنية. م. س. ص ١٦١، ويشير زكريا إبراهيم إلى أن القصة القصيرة لبودلير، والصحيح أنها لإدجار ألان بو.

(٢) للنص بالعربية، انظر: جاك لاكان إغواء التحليل النفسي، مرجع سابق. ص. ٣٧١.

(٣) الرسالة المسروقة وحالة بو. ص. ٢٣٨.

(٤) مدخل إلى مناهج النقد الأدبي. م. س. ص. ٨١.

(٥) السابق، الصفحة ذاتها.

(٦) الرسالة المسروقة وحالة بو. م. س. ص. ٢٣٩.

الأولى، نظرة لا ترى شيئًا: الملك والشرطة.

الثانية، نظرة ترى أن الأولى لم تر شيئا، وتتوهم أنها تتكتم على ما تخفيه: الملكة ثم الوزير.

الثالثة، ترى أن النظرتين الأولى والثانية تركتا ما يجب إخفاؤه في متناول يد من يريد الاستيلاء عليه: الوزير ودوبين في النهاية.

ويرى لاكان أن ما يهمنا هنا، هو "الطريقة التي تحل بها الذوات إحداها مكان الأخرى في إزاحتها أثناء التكرار الموضوعي"[١]، بحيث تصبح الرسالة المسروقة "دال اللاشعوري أو رمزه"[٢] التي يمكنها "أن تدل على إلغاء ما تدل عليه"[٣]، وكما يعود المكبوت في العرَض، تعود الرسالة المسروقة في الحكاية -بوصفها دال المكبوت- عبر الإزاحة والإحلال المتكررين، وهذا "نفس ما يحدث في التكرار القهري"[٤]، كما يقول لاكان.

٤-٤-٢- السميولوجيا التحليلية:

احتلت دراسات كريستيفا من منظور التحليل النفسي، مكانة بارزة في الدراسات ما بعد البنيوية، وشكَّلت تياراً في السميولوجيا التحليلية، له حضوره المؤثر في البناء السميولوجي.

وقد استقت كريستيفا كثيراً من المبادئ والمفاهيم من الفرويدية، ناهجة منهج التأليف؛ لرفد نظريتها، كما ألمعنا من قبل[٥]، فإذا كان لاكان ألف بين اللسانية السوسيرية والتحليل النفسي؛ لبناء بنيوية تحليلية، فإن كريستيفا سعت إلى التأليف بين السميولوجيا السوسيرية والتحليل النفسي،

(١) السابق. ص. ٢٤٠.
(٢) السابق. الصفحة ذاتها.
(٣) السابق. الصفحة ذاتها.
(٤) السابق. الصفحة ذاتها.
(٥) انظر: ص. ١٠٤

للوصول إلى بناء سميولوجيا جديدة، أطلقت عليها السميولوجيا التحليلية (semanalyse)، وهي مركبة من لفظتين: sema بمعنى علامة، وanalyse بمعنى تحليل، بحيث يعني المصطلح التحليل السميولوجي.

والتحليل السميولوجي يختلف عن السميولوجيا الأدبية، وهو اختلاف- كما يقول بارت- "يتركز على المرجع التحليل النفسي"[١]، الحاضر في السميولوجيا التحليلية، دون سميولوجيا الأدب.

٤-٤-٢-١-السميولوجي والرمزي:

"السميولوجي" و"الرمزي" وفقا لكريستيفا، "شكلان للعملية الدالة نفسها، واللغة تتشكل من خلال عملية دالة، ويتحدد نمط الخطاب قيد الدرس، بالشكلية التي تكون فاعلة في وقت معين"[٢].

وتشير كريستيفا إلى أن العلاقة القائمة بين السميولوجي والرمزي "علاقة جدلية"، فهما مترابطان، بحيث ينتفي وجود أحدهما دون الآخر، أي أنهما "لا يعملان منفصلين"[٣]، كما تؤكد في أكثر من موضع.

الرمزي عند كريستيفا يشير إلى علاقة الدال بالمدلول، وإن كانت هذه العلاقة في ظاهرها تشير إلى السميولوجي، استنادا إلى رؤية سوسير، إلا أن كريستيفا تنسبها إلى الرمزي، وعليه يقابل الرمزي عند كريستيفا السميولوجي عند سوسير.

والرمزي نتاج للكيفية التي يرتبط فيها الناس بعضهم ببعض، وهو "المسؤول عما ينبثق ضمن الأطر الاجتماعية واللسانية"، وبناء عليه فهو محدود بصياغته وحوافزه.

(١) نظرية النص، ضمن آفاق التناصية، المفهوم والمنظور م. س. ص. ٥١.
(٢) نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية. م. س. ص. ٢٥٦.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

ولاستجلاء السميولوجي والرمزي بوضوح، ينبغي أن نعود إلى منطلق هذين المفهومين، لأن "هذا التعارض أساسي في نظرية كريستيفا"[١]، إذ يرتبط ما هو سميولوجي (من جهة تكوّن النص أي ولادته) بالناحية النزوية والبدائية، وبالممارسات اللغوية التي تنتمي إلى الطفولة الأولى، أو إلى الفصام، ويطلق عليه (أمومي-أنثوي)، في حين يتعلق الرمزي بقانون اللغة (تنظيم الأدلة، النحو، علم الدلالة الخطي، الخطاب المشكل للظاهرة-النص) ويتحد كما بالأبوي- الذكري وهذا يتفق مع رأي لاكان[٢]، الذي يمكن أن نقابل مفهومي الرمزي والخيالي عنده بالرمزي والسميولوجي عند كريستيفا.

لكن الذي نضيفه، ويحتل أهمية خاصة في سميولوجيا الدلالة، هو قراءة النصوص الشعرية، بوصفها عملية جدلية، تشكل نظامين منبثقين من النظامين السابقين، وهي بإعطائها الأهمية للنشاط السميولوجي، تعيد للشعر قدرته النزوية (الموسيقية، تشظيات المعنى، عمل الإدلال، المضادات)[٣].

٤-٤-٢-٢- التدليل والذات:

بما أن السميولوجي والرمزي شكلان للعملية الدالة، فإن كريستيفا[٤] تحدِّد هذه العملية بثلاثة عناصر: السميولوجي والرمزي والتدليل، أما وحدة هذه العناصر فهي الذات، فالعنصر الرمزي يفرض الذات في غيابها،

(١) النقد التحليلي – النفسي. م. س. ص. ٩٠.

(٢) الخيالي والرمزي عند لاكان مصطلحان يصف بهما تطور الطفل، وهما وثيقا الصلة بنظريته الأساسية عن مرحلة المرآة، أما مصطلح «الخيالي» فيرتبط بالمرحلة السابقة على المرحلة الأديبية ويتصل بالوضع الذي يبدأ به الطفل تعرف نفسه بتعرف جسد أمه. وتغدو علاقته بالعالم علاقة ثنائية قوامها الاتحاد، ولذلك يغدوالبعد الخيالي (بوجه عام) بعدا يفتقد فيه أي مركز محدد للذات، وتتبادل فيه «الذات» الموضع مع «الموضوعات « تبادلا منغلقا على نفسه لا يكف عن الحركة في مجال من الصور التي لا تنفصل فيها الأطراف الانفصال الحاد. لكن هذه البنية الثنائية سرعان ما تنفصل، وتغدو بنية ثلاثية العناصر (أطرافها المثلث الأوديبي: الطفل /الأم / الأب). ويدخل الطفل نتيجة ذلك البعد الرمزي، فيغدو طرفا في نظام لغوي (عصر البنيوية. م. س. ص ٢٩٠)

(٣) النقد التحليلي – النفسي. م. س. ص. ٩١.

(٤) نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية. م. س. ص. ٢٦٢.

والعنصر السميولوجي يقدم الدوافع، في حين تمثل الذات "عتبة اللغة"، وعليه فإن "الذات ليست كيانا مفروضا ولا ذاتاً مركزية"[١].

وهذه الذات "منتشرة سلفا في عالم من الذوات"[٢]، وبالتالي فهي تفهم "بموجب تناصية يَنقش فيها نص الذات نفسه نقشا دالاً سيميائياً ورمزياً"[٣]. وبالتالي فإن ظهور مفهوم التناصية نتاج هذا الأس في نظريتها.

وبما أننا تناولنا مفاهيم كريستيفا بالتفصيل من قبل، فإننا نكتفي بهذا القدر، هنا منعا للتكرار، ويمكن العودة إلى ما سبق.

٤-٥- علاقتها بالتأويل:

ارتبط مصطلح التأويل[٤] (Hermeneutics) في نشأته بعلم تفسير وتأويل النصوص الدينية[٥]، ثم اتسع مدلوله مع فلسفة الظواهر، وأصبح -الآن- مجالا معرفيا يصل بين علوم متعددة، تتلاقى فيما بينها حول مشكلات التفسير، من منظور العلاقة التأويلية التي تصل بين النص المفسَّر والمفسِّر، والأنظمة التي تقوم عليها عملية التفسير والتأويل"[٦].

ويتجاوز التأويل عند بعض السميولوجيين[٧] حدود المجال المعرفي الواحد إلى أن يغدو هدفا من الأهداف الكبيرة، التي تسعى إلى تحقيقها الدراسات الإنسانية كلها، دون استثناء.

(١) السابق. ص. ٢٦٣.

(٢) السابق. ص. ٢٦٤.

(٣) السابق، الصفحة ذاتها.

(٤) «مصطلح يوناني الأصل يشير إلى عملية التفسير (ويبدو أن ذلك هو سبب الأسطورة التعليلي التي كانت تصل مسمى العلم بالإله هرمس الذي اكتشف اللغة والكتابة فزود البشر بالوسيلة التي أعانتهم على فهم المعنى وتوصيله).

(٥) ما زال هناك من ينطلق منطلقا دينيا، من هؤلاء وأبرزهم بول ريكور، وقد أشارت إديث كريزويل إلى أن ريكور كان «يقسّم وقته ما بين اللاهوت في جامعة شيكاغو وجامعة باريس ويواصل العمل في مجالاته الأساسية الأربعة؛ فهواستاذ جامعي، ودارس لتاريخ الفلسفة، وعضو في هيئة تحرير الروح (Esprit) مجلة اليسار الكاثوليكي، وحامل رسالة مسيحية «وقد درس» اللاهوت على يدي جابرييل مارسيل «. (عصر البنيوية ١٣٧). كما « ربط ريكور بين قصدية الوعي ورمزية الكتاب المقدس ليصل بهذا الربط إلى أعمق معنى للأشياء على نحو ماهي عليه بالفعل» (السابق ١٣٨).

(٦) عصر البنيوية. م. س. ص. ٣٨٨.

(٧) السيمياء والتأويل. م.س. ص ١٧

ومع أن هناك من أقصى التأويل من حظيرة السميولوجيا[١]، إلا أن ارتباطهما في الوقت الراهن لا يُناقَش، فثمة روابط عميقة بينهما؛ لأن "شيئا ما لا يكون علامة، إلا لأنه يؤول بوصفه علامة لشيء ما بواسطة مؤول ما"[٢]، وهذا ما يؤكده شولز من أن التأويل قرين النصوص، فحيث "توجد نصوص توجد بالطبع قواعد تتحكم بإنتاج النصوص وتأويلها"[٣].

وتأتي السميولوجيا ضمن هذه العلوم الرئيسة، التي استثمرت التأويل واستثمرها، للحد من الإفراط بالموضوعية أو الذاتية، فالسميولوجيا التأويلية -وفق سلفرمان- تأتي لحل إشكال كل واحدة منهما، فقد أخذ على التأويلية إفراطها في التوجه إلى الذات، في حين انتقدت السميولوجيا "لموضوعيتها المفرطة"[٤]، وإذا مارمنا الالتقاء بالنص، فإنَّا سنجده متموضعا عند نقطة التقاء السميولوجيا بالتأويلية، لأن النص "ليس شيئا مركزيا على وجه الضبط، ولا شيئا هامشيا صريحا"، وإنما يكتسب تفاعله في مكان "تواشج" السميولوجيا والتأويلية[٥].

وعلى الرغم من أن التأويل قديم قدم النص، إلا أن الانطلاق في الحديث عن علاقته بالسميولوجيا خاصة، يستلزم استدعاء بورس، باعتباره نقطة تزاوج العلمين، والمؤثر بظهور التأويل في عدد من المدارس السميولوجية، حتى تلك التي تنتسب إلى اللسانيات السوسيرية.

لقد أولى بورس المؤوِّل (Interpretant) أهمية قصوى بين أركان العلامة، وأعطاها حرية لا نهائية من المتواليات، فعلامة بورس كما هو معلوم ترتكز

(١) السرغيني، محمد، محاضرات في السيميولوجيا. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء. ط١. ١٩٨٧. ص ١٣.
(٢) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص ٢٨٦.
(٣) السيمياء والتأويل. م. س. ص ٢٠.
(٤) نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية. م. س. ص. ٤٨.
(٥) السابق. ص. ٥٤.

على ثلاثة عناصر: الممثل والموضوع والمؤول[١]، وهذه العناصر لا تكون معزولة، إضافة إلى ضرورة تفاعلها لتندرج في العلامة، وهذا هو دور التأويل الذي بدونه تخرج هذه العناصر من حدود العلامة، وأطلق على هذا التفاعل السيرورة التأويلية (semiosis)[٢]، مما يعني أن هذا التفاعل مستمر لا يتوقف.

وقد لقي هذا المفهوم اهتماما خاصا في تيار سميولوجي عريض، من أبرز ممثليه تشارلز موريس الذي يعد الامتداد لبورس، فهو الذي عمق البحث في السيرورة التأويلية. وهي تتكون لديه -كما عند سلفه- من أربعة عناصر: الدال، والمدلول، والتعبير، والمؤول. وعليه فالعلامة هي "الشيء الذي يعمل كدليل وبين ما يحيل عليه الدليل، وبين مفعول الدليل على أي شخص شارح كيفما كان نوعه وبمقتضى ذلك المفعول يصبح الشيء المقصود دليلا بالنسبة لهذا الشخص الشارح"[٣]، وهكذا يحتفظ موريس للسيرورة التأويلية بعناصرها الأربعة، ويضيف إليها عنصرا خامسا، هو (السياق).

ويتبع موريس بورس في أن هذه العناصر ليست وحدات بذاتها، فهي لا تشكل السيرورة منفردة، وإنما من خلال علاقاتها وتفاعلها مع العناصر الأخرى. مما يبرز البعد السلوكي في بناء هذا المفهوم، وهو لا يعني انقلابا على المفهوم البورسي، إنما إعادة قراءة -وفق داسكال[٤]- ولا سيما أن بورس يؤكد الخاصية الفردية للسيرورة، لا الخاصية الاجتماعية، ويرى إيكو أن سلوكية موريس نشأت على رأي بورس في مرحلة ما، عندما أكَّد "إمكان وجود مؤولات

(1) Collected Papers.2. 228.
(٢) السابق: ٥. ٤٨٤.
(٣) الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. م. س. ص. ٢٠.
(٤) السابق. ص. ٢١.

لا تشتغل كعلامات" وأن "مؤول علامة يمكن أن يكون فعلا أو سلوكا"[١].

هذه المسألة تكاد تكون محورية عند جميع السميولوجيين؛ لذا نجد إيكو[٢]، وهو من السميولوجيين التوفيقيين، يحاول تطوير مفهوم التأويل عند بورس، منطلقا من تحديد الدليل والسيرورة التأويلية عنده[٣]، ومركزا على الفكرة الأبرز التي لفتت انتباهه، ونعني بها السيرورة اللانهائية للدليل[٤].

ولا يقتصر تأثير السيرورة التأويلية على ذلك، وإنما يتعداها إلى البناء العلمي للسميولوجيا؛ لذا فهي -كما يرى إيكو- التي "صيَّرت السميولوجيا علما صارما ودقيقا للظواهر الثقافية، وفصلتها عن النظرية الميتافيزيقية للإحالة"[٥].

وبما أن إيكو من أنصار السميولوجيا التأويلية، فإنه يقرر أن السميولوجيا، وإن كانت بدأت في الستينيات باعتبارها فكرة العلامة، إلا أن الاهتمام تحول "نحو توليد النصوص وتأويلها وانحراف التأويلات ونحو الحوافز الإنتاجية والمتعة نفسها المتأتية من توليد الدلالة"[٦]، حتى فاقت حقوق المؤولين في السنين الأخيرة كل الحقوق[٧].

وهذا ليس بمستغرب على إيكو، فالتأويل عنده العماد الذي تقوم عليه نظريته، وهناك روابط لا انفصام فيها بين السميولوجيا والتأويل، فلا تعد العلامة علامة إلا بوصفها مؤولة بواسطة مؤول[٨]، وهذا يفسر ما طرحه حول اتصال الإنسان بالآلة، فهو يراه عملا دلاليا؛ وذلك لارتباطه بالتأويل.

(١) العلامة : تحليل المفهوم وتاريخه. م.س.. ص. ٢٧٢.
(٢) يشير إيكو إلى أن ما طوره خلال بحثه السميولوجي كله « هو تصور التأويل الذي استلهمته من بيرس». ٣٦١، ويصف بورس بأنه « معلم عظيم في المجال السيميائي نفسه»
(٣) الحداوي، طالع : سيميائيات التأويل– الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١ ، ٢٠٠٦. ص. ٣٦٢.
(٤) السابق. الصفحة ذاتها.
(٥) السابق. ص. ٣٦٣
(٦) السيميائية وفلسفة اللغة. م. س.ص٣٨.
(٧) التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. م. س.ص. ٢١.
(٨) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. م. س. ص. ٢٦٨

ولتوضيح ذلك يمكننا الاستعانة بتقسيم إيكو[١] لعمليات الاتصال، التي تنقسم إلى قسمين: الأول ما يشكل فيه المرسل والمستقبل آلات لا بشرا، فهذا الموقف خارج الحقل السميولوجي، ولو كان هناك نقل معلومة؛ لأن التأويل منتفٍ فيه.

أما القسم الآخر، وهو الذي يكون فيه المستقبل إنسانا، فإنه يندرج في الحقل السميولوجي، ولو كان المصدر آلة، وذلك لوجود التأويل.

إن هذا المبدأ الجوهري، ونقصد به مبدأ التأويل، خلف هذا التقسيم، فالمتلقي في هذه الحالة يناط به فعل تأويلي، ومن ثم يغدو الاتصال سميولوجيا.

ويأتي التأويل عند إيكو مرادفا للسيرورة التأويلية عند بورس، وإن كان إيكو عمَّقه بشكل أكبر، فالعلامات "نتيجة مؤقتة لقوانين الشفرة المنظمة لعلاقات علامات مؤقتة للعناصر، يمكن دخول كل عنصر منها – ضمن أحوال خاصة بالشفرات- في علاقات أخرى لتأليف علامة جديدة"[٢]، وبهذا تنتج عملية التأويل علامات أخرى، والأخرى تنتج أخرى، وهكذا دواليك.

بيد أنَّ إيكو يطرح صنفين من عمليات هذه السيرورة التأولية: الأولى النهائية والثانية اللانهائية، أما "عمليات السيرورة التأويلية اللانهائية للعلامة فهي الضمان الوحيد لإنشاء نظام سيميائي يستطيع الحد من جموحه بوسائله الخاصة"[٣].

وإيكو يستند إلى التأويل اللانهائي، وخصوصا في كتبه الأخيرة، وإن كان

(1) A Theory of Semiotics، P. 8.

(١) السابق، ص. ٤٩.
(١) السابق. ص. ٦٨.

يؤكد أن مقولة اللانهائي لا تعني "غياب قاعدة التأويل"(١)، كما أن القول بلا نهائية التأويل لايعني جودة التأويلات كلها، ولا يعني أن النص "نزهة يقوم فيها المؤلف بوضع الكلمات ليأتي القراء بالمعنى"(٢)، كما يقول تودورف.

إن هذا التوجه إلى التأويل، أسهم في تحويل كثير من النظريات ما بعد البنيوية، وعلى رأسها المتصلة بالقراءة والتلقي، وخصوصا قراءة النصوص الأدبية التي تعد من أفضل المناهج -وربما أفضلها على الإطلاق- لتطوير المهارات التأويلية(٣)، وبالتالي أعاد التأويللقارئ "أكبر المنسيين في نظريات الأدب الكلاسيكية كلها"(٤) -كما يقول تودوروف- دوره المفقود، وإن كان سميولوجيو القراءة لا يفِصلون هذا الدور عن النص؛ لذا يؤكدون على بعض المسائل التي يرونها من المسلمات، من أبرزها نقطتان(٥):

١. أن تأويل أي نص يبدأ عند الشروع في القراءة.

٢. أن التأويل ينصب على المعنى العام للنص الذي نشرع في قراءته، وما تأويل هذه الجمل إلا سعي لإمكانية فهم إجمالي النص".

وإذا ما علمنا أن بارت أفاد من بورس في هذا المجال، فبإمكاننا أن نعد بارت نقطة التحول لبروز السميولوجيا التأويلية، وخصوصا في عمله (درجة الصفر للكتابة)(٦)، وإن كانت البداية الناضجة في مقالته الشهيرة (موت المؤلف)(٧)، حيث ينطلق من أن "الكتابة هدم لكل صوت ولكل أصل"(٨)،

(١) التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. م. س.ص. ٢١.
(٢) السابق. ص. ٢٢.
(٣) السيمياء والتأويل. م.س. ص. ١٨.
(٤) أوتان، ميشال: سيميائية القراءة، ضمن: آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم، محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨ ص. ١٥٧.
(٥) المرجع السابق. ص. ١٥٨.
(6) Barthes، Roland: Writing Degree Zero، trans، Annette Lavers & Colin Smith. Hill & Wang، New York، 1977.
(7) Barthes، Roland: The Death of The Author، in Image / Music/ text. London، 1977.
وقد ترجمها إلى العربية منذر عياشي ضمن: هسهسة اللغة، الصادر عن مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١ ، ١٩٩٩. وسنعتمد هذه الترجمة في الآتي، والإشارة إليها بموت المؤلف.
(٨) موت المؤلف. ص. ٧٥.

والمؤلف ليس أكثر من لحظة كتابته، "كما أن الضمير (أنا) ليس شيئا آخر غير ذلك الذي يقول (أنا)، فاللغة تعرف الفاعل وليس الشخص"(١) الذي ينتهي دوره بنهاية الكتابة.

من هنا يتضاءل المؤلف، حتى يغدو بتعبير بارت "كأنه تمثال صغير وضع في الطرف النائي للمشهد الأدبي"(٢)، ولا يكتفي بارت بالتقليل من دور المؤلف، بل إنه يذهب أبعد من ذلك، مقررا أن النص "يقرأ بطريقة تجعل المؤلف عنه غائبا على كل المستويات"(٣).

وإذا كانت مسألة إقصاء المؤلف بنيوية في الأصل، وإذا كانت "اللسانيات قدمت أداة تحليلية نفسية لتدميره"(٤)، فإن ما أضافه بارت هو منح الدور للقارئ بدلا من النص، فالنص متعدد ومنفتح على النصوص الأخرى، ومكان تجميع هذه التعددية "ليس الكاتب، كما قيل إلى الوقت الحاضر، إنه القارئ"(٥)، الذي يعلن ميلاده في مجال صنع النصوص، لكن إعلان ميلاد القارئ رهين بموت المؤلف.

وبما أن القراءات والتأويلات لا حصر لها، فإن بارت يرى على المستوى النظري أنه "لا يمكن أبدا حصر الدليل عند مدلول أخير"؛ أما الحصر الوحيد الذي يمكن أن يخضع الدليل له فإن "منشأه الممارسة، وليس النظام السيميولوجي نفسه"(٦).

إن منح القارئ دور المؤول الرئيس، لا يعني أن النصوص متشابهة، بل إن هناك نصوصا قابلة للقراءة، ونصوصا قابلة للكتابة، فالأول هو الذي

(١) السابق. ص. ٧٨.
(٢) السابق. ص. ٧٩.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.
(٤) السابق. ص. ٧٨.
(٥) السابق. ص. ٨٣.
(٦) المغامرة السيميولوجية. م.س.ص ٧٥.

"يعاد كتابته وفق شفراته، وأنظمة علاماته، وبناه"[١]، والثاني ما يمكن إعادة كتابته، "وهذا ما يدعو إلى قراءة فعالة ويجعل من القارئ منتجا للنص"[٢].

والحقيقة أن التأويل لا خلالف عليه، وإنما الخلاف على توجه التأويل، هل هو للمؤلف أو للقارئ؟ فهناك "دعاة أشدَّاء للنقد الذي يتوجه إلى المؤلف، والنقد الذي يتوجه إلى القارئ"[٣]، الفريق الأول يؤثر دور المؤلف في النص، ويريد استرجاع نية المؤلف بوصفه مفتاح معنى النص، ومن أبرز دعاته هيرش الذي يرى أن أي "تأويل صحيح يجب أن يكون مبنيا على إدراك القارئ لما يقصده المؤلف"[٤]، أما الفريق الثاني، فإنه يتوجه إلى القارئ، ويؤثر استجابته للنص، إذ يرى أنصار هذه المدرسة أن القراء يصنعون المعاني[٥].

بيد أن روبرت شولز يرى تطرفا في موقفي الفريقين، ويقترح إيجاد "أرض مشتركة بين فوضى توكيد القارئ"، و"النزعة السلطوية" في التوجه إلى المؤلف التي "قد تخنق الابداعية"[٦]، إبداعية القراءة بالطبع.

لكن أين يمكن أن نجد هذه الأرض؟

يرى شولز أن هذه الأرض توجد "في قلب المخطط الجاكبسني"، وهو النقد الذي يؤكد على النص نفسه[٧].

غير أن هذه المسألة في الواقع مرتبطة بمنظور وظيفة العلامة، ومن ثم

(١) نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية. م. س. ص ٥٦.
(٢)مغامرة في مواجهة النص. م. س. ص. ١١٩.
(٣)السيمياء والتأويل. م.س. ص ٣٠.
(٤)الكدية، الجيلالي: تأويل النص الأدبي: نظريات ومناقشة، ضمن: من قضايا التلقي والتأويل، لمجموعة من الكتاب، كلية الآداب، الرباط، ط١، ١٩٩٤. ص. ٣٧.
(٥)السيمياء والتأويل. ص. س. ص. ٣١
(٦)السابق. ص. ٣٢
(٧)السابق. الصفحة ذاتها.

بتقسيم السميولوجيا إلى سميولوجيا التواصل التي يمثِّلها مونان ومارتيني وبرييتو، وسميولوجيا الدلالة التي يمثِّلها بارت وغريماس وكريستيفا، فالفريق الأول يؤكد على وظيفة التواصل للعلامة، وبالتالي فالعلامة تتكون من دال ومدلول وقصد، هذا القصد هو قصد الكاتب.

والفريق الثاني يؤكد على مسألة التأويل، أي من حيث إمكانية العلامة للتأويل المتعدد، وهذا يرتبط بتأويل القارئ لا الكاتب، مما يجعل العلامة تتكون من دال ومدلول ومؤول، وكلما اختلف المؤول اختلف التأويل، بل كلما اختلفت القراءة اختلف التأويل، ولو كان القارئ واحدا.

ويقسم بعض الدارسين تأويل العلامة من حيث التوجه إلى المراحل التالية[١]:

١. التأويل سعيا إلى قصدية الكاتب، ماذا يقصد من وراء ما كتب؟ ما هو المعنى الأخير للنص؟ ماذا يجب أن يفهم من خلال القراءة؟

٢. التأويل سعيا لمعرفة قصدية النص، مع طرح أولوية الزاوية البنيوية وإشكالية الشرح وتبيين المنظومة الدلالية والانسجام النصي.

٣. التأويل سعيا لمعرفة قصدية القارئ، ماذا يقرأ القارئ؟ ما هي خلفيات القراءة؟هل توجد قراءة واحدة أم قراءات متعددة للنص الواحد، حسب دائرة معارف كل قارئ ودرايته ومهارته على القراءة والتأويل؟

وهكذا يتحول التأويل من المرسل وقصديته إلى المتلقي وتأويله وطريقة فهمه، فيصبح المدلول مختلفا من متلق إلى آخر وفق تأويله له، بل يمكن أن نجد مدلولات مختلفة عند المتلقي الواحد نتيجة تكرار التلقي، وهذا باب واسع في الدراسات الحديثة، وخصوصا في تلقي الأدب.

(١) الكدية، الجلالي، بين التأويل والتلقي، ضمن الترجمة والتأويل، كلية الآداب، الرباط، ط١، ١٩٩٥. ص. ٣٠.

ويُعد هذا التحول المحور الذي تدور حوله نظرية التلقي، بل إنه أصبح مركز اهتمام النقد الأدبي في القرن العشرين، من حيث التنظير والتطبيق، ورغم الاختلافات العديدة بين منظري التأويل حول طرق وكيفية تأويل النص، فإنهم يجمعون على أهميته واستمراره[١].

٤-٦-علاقتها بالطب:

ليست علاقة السميولوجيا بالطب حديثة، ولكنها من أقدم العلاقات، وذلك منذ العهد اليوناني الذي ربط بين الأعراض والسميولوجيا، بل إن المصطلح نفسه يعود إلى الحقل الطبي في نظر كثير من مؤرخي السميولوجيا، كما مر معنا في حديثنا عن تاريخ المصطلح.

وعند النظر إلى القواميس الطبية نجد كما هائلا من المصطلحات السميولوجية، التي تشير إلى بقاء هذه المصطلحات في الحقل الطبي على امتداد تاريخه حتى عصرنا هذا، ومع ذلك نجد أن العلاقة بين الدرسين كانت منفصلة انفصالا شبه تام.

ومع اتساع السميولوجيا ونهمها في الدخول في المجالات كلها، ظهر من السميولوجيين المحدثين من حاول إعادة ربط المصطلح بالطب من جديد، ولكن بإدماج الطب في علم السميولوجيا، من خلال البحث عن الروابط المشتركة بين مفاهيم عدة في الحقلين.

ولما كان مصطلح سميولوجيا قد ولد في الحقل الطبي بداية، وبما أننا سبق أن تناولنا علاقة المصطلح بالحقل الطبي تاريخيا، فإننا سنقصر حديثنا -هنا- على الدراسات التي حاولت الربط بين السميولوجيتين من وجهة نظر سميولوجية، ونعني بذلك الدراسات التي حاولت إعادة ربط النظرية

(١) السابق ص ٤٨

السميولوجية بالطب من جديد، ولكن بإدماج الطب في السميولوجيا، من خلال البحث عن الروابط المشتركة بين مفاهيم عدة في الحقلين.

وجماع ما وقفنا عليه من الدراسات التي حللت هذه العلاقة دراستان، الأولى دراسة ميشيل فوكو في كتابه (مولد العيادة)، والثانية دراسة رولان بارت (المغامرة السيميولوجية)، التي خصص فيها فصلا بعنوان السميولوجيا والطب.

وهذا يعني أن فوكو سبق بارت، وأن هذا الأخير أفاد من الأول، كما صرح بذلك في دراسته السابقة، في أكثر من موضع، خلافا لأديث كريزويل[١] التي أشارت إلى أن فوكو أفاد من بارت في تحليله.

٤-٦-١- البنيوية والأعراض:

تختلف هاتان الدراساتان في المنطلق والمنهج، وإن اتفقتا في الغاية، وهي إثبات سميولوجيا الأعراض الطبية، فدراسة فوكو تأتي ضمن المنهج البنيوي، إذ درس هذه المعرفة من خلال التعارضات البنيوية، مقابلاً بين بنية اللغة وبنية المرض، ومع ذلك فإن دراسته تأتي ضمن سياق المقارنة بالسميولوجيا؛ لما لهذا المنهج البنيوي من ارتباط وثيق بالسميولوجيا من جهة، ولما أدته هذه الدراسة من رفد لدراسة رولان بارت فيما بعد، الذي أفاد كثيرا من فوكو، وأحال إليه كثيرا في دراسته التي سنتناولها بالتحليل في هذا المبحث، على الرغم من إعلانه المنطلق السميولوجي منذ البداية.

تناول فوكو في كتابه هذا مولد العيادة مركزا على المرض وقوة الدواء، ومحللاً مناهج الملاحظة الطبية خلال الفترة ما بين ١٧٩٤-١٨٢٠، والكتاب دراسة عن "المكان واللغة وفعل الرؤية"[١]، تناول فيه نشأة قوة الأطباء، من

(١) عصر البنيوية. م. س. ص. ٣٠٥

(٢) السابق. ص. ٣٠٢

خلال مناهج عدة ظهرت في تلك الفترة.

وقد سعى إلى تحليل نشأة قوة الأطباء، من خلال العلاقة بين الدال والمدلول في نصوص الجنون والمرض، "وعلى نحو تغدو معه السلامة العقلية والخلل العقلي والصحة والمرض، أطرافا ثنائية لا يمكن فهم واحد من طرفيها إلا بفهم علاقته بالآخر"[١]، كما حلَّل "أشكال الدواء في القرن الثامن عشر، على أساس من الصلة التي ربطت بين هذه الأشكال و"أنواع" المرض التي كانت تنتاب المريض"[٢].

درس هذه المعرفة من خلال التعارضات البنيوية، واضعا ديالكتيك[٣] المرض في موازاة ديالكتيك اللغة، وناظرا إلى العلاقة بين المرض وتقدمه من ناحية، وتشخيص الطبيب وعلاجه من ناحية ثانية، مدخلا في الاعتبار للمنهاج العلاجي الذي "يميز بين العلامات والأعراض"[٤].

يشكل الدال عند فوكو ركنين (علامة المرض وعرضه)، وهذا الدال "يشف عن المدلول الذي تتجلى حقيقته -لب المرض- في التركيب الواقع للدال، ويتحدث عن عرض المرض الذي يتخلى عن سلبيته ليصبح دالا على المرض[٥]"، وهو في كل ذلك يقرر أن مدخله الذي يعتمد على علم اللغة البنيوي، إنما هو "مدخل يتحرر من الإيديولوجيا الرياضية، وأن تحديقته الإكلينيكية يمكنها أن "تسمع لغة" بمجرد أن "تدرك مشهدا"[٦].

ويوحّد فوكو "بين اللغة والإدراك في العيادة، ليميز العناصر المنظورة

(١) السابق. ص. ٢٩١.
(٢) السابق. ص. ٣٠٢.
(٣) يشير المعنى العام للمصطلح إلى عملية صراع يتبادل طرفاها المتضادان التأثر والتأثير، على نحو يغير من كليهما على السواء، ويفضي إلى مركب ثالث يصبح – بدوره طرفا في عملية صراع جديدة مع طرف يقابله، على المستوى الفكري أوالاجتماعي... الخ، ومن منظور يغدو معه التناقض بمثابة المبدأ الرئيسي للجدل.انظر: عصر البنيوية. م. س. ص. ص.٣٧٨–٣٧٩.
(٤) السابق. ص. ٣٠٥.
(٥) السابق، الصفحة ذاتها.
(٦) عصر البنيوية. م. س. ص ص. ٣٠٥–٣٠٦

وغير المنظورة للمرض في لغة هي من حيث وجودها ومعناها ومن حيث التحديقة التي تفض شفرتها لغة قارئة ومقروءة في آن"[١].

٤-٦-١-١- العرض والعلامة:

يربط فوكو بين الأعراض والعلامات في سعي إلى إيجاد أوجه شبه بينهما، منطلقا من تحديد مفهوم العرض عند بعض الأطباء في المرحلة المدروسة، بأن "الصورة التي يظهر عليها المرض، هي صورة ثابتة لا تتغير"[٢]،وهذه الظاهرة تتسم بسمات جوهرية يركز عليها فوكو، هي الحضور والاختباء والشفافية.

ولزيادة توضيح مفهوم العرض يلجأ فوكو إلى بروسونيه Broussonnet في كتابه (الصورة الأولية لنظرية الرموز): "إن أي تغيير ملموس في الجسم السليم أو المريض يسمى ظاهرة، من هنا كان لدينا ظواهر صحية وظواهر مرضية، والظواهر المرضية هي الأعراض، والعرض ليس ظاهرة طبيعية تتصف بالسلبية لأنه دال على المرض"[٣].

وبهذا التصور يقترب العرض من الدال، وإن كان فوكو يراه أشمل من ذلك؛ لأنه يشمل المدلول إضافة إلى الدال. لكن هذا المدلول لا يشتمل على معنى إلا بفعل حدث سابق، يؤدي إلى عزله وتحويله إلى علامة[٤].

والعلامة لا توجد بدون عرض، يلعب دور "لغة العمل أو اللغة الإجرائية"، مع ضرورة ملاحظة أن ما يقصده فوكو باللغة الإجرائية يختلف عن اللغة الطبيعية، وأهم اختلاف هو أنها "غريزية"، أي أنها "تظهر من تلقاء ذاتها بالطبيعة"[٥]، كما أنها تمثل" الصورة الأولى للغة" وبذلك تتطابق هذه اللغة

(١) السابق. ص. ٣٠٥.
(٢) جعفر، عبد الوهاب: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩. ٢٣٠.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.
(٤) السابق، الصفحة ذاتها.
(٥) السابق. ص. ٢٣١.

مع العرض الذي يمثل الطبيعة الوحيدة للمرض، والصورة الأولى التي يظهر عليها[1].

٤-٦-١-٢- العلامة العرضية والزمان:

ليست العلامة معرفة في رأي فوكو، ولكنها تنبئ بمعرفة مختبئة، وهي السمة التي أشرنا إلى جوهريتها عنده، ومن ثم فإن العلامة، من زاوية علاقتها بالزمان، تؤدي وظيفة الكشف في ثلاث صور[2]:

الأولى، تدل فيها العلامة على الحالة الحاضرة، مثل النبض الذي يدل على القوة غير المرئية للدورة الدموية، والثانية، تدل فيها العلامات على حدث ماض، فلون الأظافر الأزرق يدل على الموت، والثالثة تدل فيها العلامة على حدث مستقبل، فاضطرابات اليوم الرابع في حالة الحمى المعوية، تدل على اقتراب الشفاء.

ومن هذا نستشف مقارنة بالعلامة اللغوية التي تمثل في شق منها علاقة بالزمان، وفق هذا الترتيب الزمني.

٤-٦-١-٣- العرض الدال وغير الدال:

ليس كل عرض دالاً، هذا ما أكده فوكو، فهناك أعراض دالة وأعراض غير دالة، كما أن العرض الدال لم يكن دالا مبدئيا، ولكنه يتحول إلى دال من خلال العمليات التالية[3]:

الأولى عملية التجميع، وذلك من خلال المقارنة بين الأعضاء، والمقارنة بين الأفراد، وذلك مثل الحرارة والنبض والاحمرار، فهذه الأعراض لا يمكن أن تصبح دالة، إلا من خلال مقارنتها عند أفراد كثر.

(١) السابق. ص. ٢٣٢.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) السابق. ص. ٢٣٠.

والعملية الثانية هي تذكُّر الوظائف الاعتيادية، مثل الزفير البارد لدى المريض، فهو علامة على انعدام الحرارة المميزة للحيوان، مما ينبئ بقرب وفاته.

أما العملية الثالثة فهي تسجيل التزامن والتتابع، مثل ظاهرتي تقلص اللسان وارتعاش الشفة السفلى، فمن خلال الملاحظة استطاع الأطباء إدراك أن هاتين الظاهرتين علامتان على حدوث التقيؤ، وهنا تحول العرض إلى علامة بفضل نظرة تشفّر بالتمايز أوالتزامن أوالتتابع.

٤-٦-١-٤- الأعراض بوصفها نصا مقروءا:

يقول بينيل Pinel: "ينبغي أن ينظر إلى المرض على أنه كلٌ غير منقسم (منذ بدايته حتى نهايته)، وهو ينتظم في أعراض معبرة تتابع على فترات"، ويعلق فوكو على هذا القول، رابطا بين تحليل الأعراض واللغة، فيصف بينيل بأنه "يقرأ كينونة المرض على مستوى الكلمات"[1]، والحافز البنيوي ليس خافيا في اختيار فوكو لهذا النص خاصة.

إن قراءة المرض بصورة أعراض، يسهل الالتقاء بقواعد التركيب للغةٍ وصفيةٍ، وهذا يقضي بأن هناك" تشابها أساسيا بين بناء المرض وبين الصورةٍ اللغوية التي تحدده"، وعليه فإن كينونة المرض لا تقرأ في صورة أعراض، "دون أن تتقدم نحو لغة ليست سوى كلام الأشياء بذاته"[2].

٤-٦-١-٥- الأساطير المعرفية:

تناول فوكو الأساطير المعرفية (الإبستمولوجية)، بوصفها مرحلة تالية لطب الأعراض، طرح فيها عدة أساطير، سنعرض منها بإيجاز ما يتصل بدراستنا، وهي التركيب الهجائي، وإطلاق الصفة الاسمية على المرض.

(١) السابق. ص. ٢٣٤.
(١) السابق، الصفحة ذاتها.

يُرجع الأولى إلى نحويي القرن الثامن عشر الذين تبنّوا حروف الهجاء باعتبارها "النظام المثالي للتحليل"، وهي الخطوة الأولى لتعلم لغة جديدة، ويشير فوكو إلى أن هذه الصورة "تحولت دون تغيير يذكر إلى النظرة الطبية"، فأول الأعراض، أو أول التأثيرات يقابل الحرف الهجائي، وهذه الوحدة الصغيرة، لا تعني شيئا ما لم تدخل في تركيب منسق مع وحدات أخرى[١] .. تماما كمقابلتها في اللغة (حرف الهجاء).

أما الأسطورة الثانية، وهي إطلاق الصفة الاسمية على كينونة المرض، فقد كانت التساؤلات "عن حقيقة المرض هي تماما كالسؤال عن حقيقة كلمة"، في حين أن الكينونة عملية تجريد، وبالتالي "فإن المرض كالاسم لا كينونة له"[٣].

٤-٦-٢- السميولوجيا والأعراض:

على الرغم من أسبقية فوكو في مقارنة العلامات الطبية بالعلامات اللسانية، إلا أن بارت خطا خطوات متقدمة في هذا المجال، سعيا إلى تأسيس سميولوجيا طبية حديثة، وهذا المسعى يأتي في سياق مشروع بارت لفتح آفاق السميولوجيا على الحقول كافة.

خصَّص بارت فصلا في كتابه (المغامرة السيميولوجية)[٣] بعنوان (السيميولوجيا والطب)، ناقش فيه هذه المسألة، وسلك مسلكا أكبر من مجرد إيجاد روابط تاريخية بين المصطلحين، حيث افترض تأسيس علم جديد هو السميولوجيا الطبية، من خلال مقارنته بين العلامات الطبية والسميولوجيا.

(١) السابق. ص. ٢٤٠.
(٢) السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) المغامرة السيميولوجية. م. س. ص ص. ٦٥–٧٨.

ينطلق بارت في محاولته إيجاد روابط بين المصطلحين، من ربط الدليل الطبي بالدليل اللغوي[١]، ويتناول بدءا مسألة التوافقات المنظمة بين السيميولوجيتين، ويرى أن "هذه المسألة مفيدة جدا"، وإن كانت التوافقات بينهما "بسيطة"[٢].

ثم يميز بارت بين العرَض والدليل، فيحدد العرض -استنادا إلى فوكو- بأنه "الشكل الذي يتخذه المرض"، أو "ظاهرة خاصة تستتبع في الجسم حالة مرضية"[٣]، وهذا لا صلة له بالسميولوجيا، إلا أن "العرَض" عند النظر إليه مجازيا، يحتوي في عمقه "صبغة دلالية"[٤]، كما أنه - وفق بارت- ليس دائما خارج السميولوجيا، إنه يندرج في السميولوجيا الطبية حينما يضاف إليه ويتمم بـ "الوعي التنظيمي للطبيب"[٥]، أي بعبارة فوكو -الذي يحيل إليه كثيرًا- "الدليل هو العرَض ما دام يشغل حيزا داخل الوصف"[٦].

أما المفهوم الآخر الذي يراه بارت مشتركا بين السميولوجيتين، فهو النظام، حيث يركز على تعارض الجدلي والمركبي، ويفترض جدلية للدال الطبي على غرار الدال السميولوجي، بحيث تتعارض الأدلة الطبية بعضها ببعض؛ "لكون هذا التعارض سببا في تغير المرض"[٧].

٤-٦-٢-١- بين الربط والافتراض:

يستمر بارت في المقارنة بين السميولوجيتين من خلال افتراضات يراها ممكنة الوجود، دون أن يخفي عجزه، في كثير من الأحيان، عن تأكيد وجودها

(١) السابق ص. ٦٦.
(٢) السابق. ص. ٦٧.
(٣) السابق، الصفحة ذاتها.
(٤) السابق. ص. ٦٨.
(٥) السابق، الصفحة ذاتها.
(٦) السابق، الصفحة ذاتها.
(٧) السابق. ص. ٧٠.

في الحقل الطبي، وليس عجزا في السميولوجيا نفسها، وإنما لقصور اطلاعه على الحقل الطبي.

تأخذ مقارنة بارت بين السميولوجيتين مسلكين، الأول الربط بين المفاهيم التي يراها تؤدي الوظائف نفسها في الحقلين، كـ"المجال في الطب والفضاء الجسدي"[١]، و"الصوت الفونيمي" و"التناذر" الذي يعني "تسمية المظهر الخارجي الثابت والمتكرر لنفس الأدلة الطبية"، وهو معادل –وفق بارت– "للمركب الجامد" على المستوى اللغوي[٢]، والإحالة في الأدلة الطبية، والإحالة في الأدلة الملفوظة، إضافة إلى الأعراض المرضية والأدلة اللغوية[٣].

أما المسلك الثاني الذي يسلكه في سعيه لإيجاد العلاقة بين السميولوجيتين، فهو مسلك افتراضي، يتكرر كثيرا في هذه المقاربة، حيث يمضي مفترضا مفاهيم سميولوجية في الحقل الطبي لا يستطيع تحديدها في ظل "غياب المعارف الطبية"، من هذه المفاهيم: "الدليل الخالص" و"الدليل النموذجي"[٤]، وهو الدليل الذي يفترض وجوده، وإذا ما وجد "فسيكون معادلا للكلمات، الجمل في اللغة، ولحروف التعجب إلخ"[٥]، وإذا كان النظام المتداول يقوم "على تضافر الأدلة"، فقد قدم كاباني (١٧٥٧-١٨٠٨) صياغة جيدة لهذه الطبيعة "التأليفية للأدلة الطبية"[٦].

٤-٦-٢-٢- التمفصل المزدوج:

يولي بارت اهتماما خاصا لمفهوم "التمفصل المزدوج"، مقررًا وجوده في اللغة الطبية، وذلك من خلال تجميع بعض الأدلة، بعد فصلها عن المركب

---

(١) السابق. ص. ٧١.
(٢) السابق. ص. ص ٧٢-٧٣.
(٣) السابق. ص. ٧٤.
(٤) السابق. ص. ٧٢.
(٥) السابق، الصفحة ذاتها.
(٦) السابق، الصفحة ذاتها.

الذي يشملها، ومن ثمة سيظهر مرض آخر، كما هو الحال في "الحَفَر"[١].

هذه المحاولة التي سعى فيها بارت لإبراز سميولوجيا طبية، تأتي ضمن مشروعه الذي سعى فيه إلى توسيع هذه النظرية لتشمل أكبر قدر من العلوم، إلا أن هذه التجربة لم تلق ما لقيته تجاربه الأخرى، كسميولوجيا الأزياء والصورة والقصة من نجاح وانتشار.

---

(١) السابق. ص. ٧٧، والحفر هو مرض تدل عليه أعراض عدة مجتمعة، هي الأدلة الأربعة الموالية، الضعف العضلي، وكباوة السحنة، والبقع فوق الجلد، وانتفاخ اللثة، بينما تدل هذه الأعراض منفردة على أمراض أخرى بعينها

الخاتمة

تُنسب السميولوجيا إلى مرحلة ما بعد الحداثة، وإن كانت بدأت قبل ذلك بعقود، على يدي اللساني فرديناند دو سوسير والفيلسوف تشارلز س بورس اللذين اختلفا في المنطلقات واشتركا في الموضوع.

وإذا كانت السميولوجيا قد ورثت هيمنة النموذج اللساني، فإنها تعود في أصل رئيس منها إلى اللسانيات، بدءا من نبوءة سوسير، مرورا باللسانيين من بعده.

وإذا كان بورس أصلا من أصول السميولوجيا القريبة، فإن نظريته ليست مبتورة عن تاريخ الفكر الغربي، بل الإنساني برمته، ولا سيما أن مسألة العلامة كانت مركزية في اشتغال الفلسفة طوال تاريخها، وأن كل الفلاسفة الكبار في الماضي والحاضر، قاموا بصياغة سميولوجية معينة كما يقول إيكو.

ولفهم منجزي سوسير وبورس ومن تبعهما، ينبغي العودة في بعض الأحيان إلى المدونة، فيما وراء النظرية، لذا جاء الفصل الأول موجزا تاريخ السميولوجيا، مرتدا إلى أقدم ما وصلنا من اشتغالات، ومتتبعا أبرز التحولات للاشتغالات السميولوجية، وخاصة في الفكر اليوناني، والعربي، والقرون الوسطى.

ولمزيد من تعميق البحث في المفاهيم وتحولاتها، فقد ركز العمل على المنجز السميولوجي من خلال أعلامه، وتتبع آثارهم وتحولاتهم، فانطلق

من أبوي السميولوجيا سوسير وبورس، وتناول رولان بارت، وأمبرتو إيكو، وجوليا كريستيفا، وألجرداس غريماس، مركزا على منجزهم السميولوجي، ومبرزا أهم إسهاماتهم.

ولكون السميولوجيا متعددة المصادر المعرفية، ومنفتحة على العلوم منذ إرهاصاتها، فقد ناقش الفصل الثالث الجذور المعرفية، وأثرها في بناء النظرية السميولوجية.

أما الفصل الرابع فتناول علاقة السميولوجيا بالعلوم الأخرى، وامتداداتها في الحقول المجاورة، وأثر ذلك في انفجارها وهيمنة نموذجها.

وفي الختام، آمل أن يسهم هذا العمل في سد النقص الذي تعانيه المكتبة السميولوجية العربية، وإن لم يقدم ما يطمح إليه، وهو ما لا يدعي قدرته عليه؛ لما تتسم به السميولوجيا من اتساع وتشعب في الأصول والامتدادات؛ جعلتها تتجاوز حدود الحقلين اللساني والفلسفي، حتى كادت تداخل الحقول العلمية كلها.

المراجع

المراجع العربية

- إبراهيم، زكريا: مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م.
- إبراهيم، عبد الله وآخرون: معرفة الآخر-مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط، ٢، ١٩٩٦م.
- بن مالك، رشيد: السيميائية أصولها وقواعدها، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٢م.
- بن مالك، رشيد: مقدّمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠م.
- جعفر، عبد الوهاب: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م.
- الحداوي، طالع: سيميائيات التأويل-الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م.
- حمودة، عبد العزيز: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.
- الرويلي، ميجان: قضايا نقدية ما بعد بنيوية، النادي الأدبي، الرياض، ١٩٩٦م.
- السرغيني، محمد: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١. ١٩٨٧م.
- فاخوري، عادل: تيارات في السيمياء، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- فاخوري، عادل:علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٥م.
- فضل، صلاح: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢م.
- فيدوح، عبد القادر: دلائلية النص الأدبي، دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، ط١، ١٩٩٣م.
- قاسم، سيزا: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، ج١، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م.

- الكدية، الجلالي، بين التأويل والتلقي، ضمن الترجمة والتأويل، كلية الآداب، الرباط، ط١، ١٩٩٥م.
- الكدية، الجيلالي: تأويل النص الأدبي- نظريات ومناقشة، ضمن: من قضايا التلقي والتأويل، لمجموعة من الكتاب، كلية الآداب، الرباط، ط١، ١٩٩٤م.
- الماكري، محمد: الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١م.
- محسب، محي الدين: انفتاح النسق اللساني، دار فرحة للنشر والتوزيع، المنيا، ط١، ٢٠٠٣م.
- المرتجي، أنور: سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، ١٩٨٧م.
- المسدي، عبد السلام: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، ط٢، ١٩٨٦م.
- مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري- استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٢م.
- ناظم، حسن: مفاهيم الشعرية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- يتيم، عبد الله: كلود ليفي ستروس- قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، إصدارات بيت القرآن، المنامة، ط١، مارس، ١٩٩٨م.
- يوسف، أحمد: الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٥م.
- يوسف، أحمد: السيميائيات الواصفة، المنطق السيميائي وجبر العلامات، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الجزائر، ط١، ٢٠٠٥م.

المراجع المترجمة

- أرسطو: الخطابة، تحقيق وتعليق، عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار القلم، ١٩٧٩م.
- أريفيه، ميشال وآخرون: السيميائية أصولها وقواعدها، ترجمة: رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم عز الدين المناصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٢م.
- أنجينو، مارك: "التناصية، بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره، ضمن آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم، محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- أوتان، ميشيل: سيميائية القراءة، ضمن: بحوث في القراءة والتلقي، ترجمة: محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٨.

- ايرليخ، فكتور: الشكلانية الروسية، ترجمة الولي محمد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م.
- إيفرار، فرانك، وإريك تينه: رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص، ترجمة، وائل بركات، دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.
- إيكو، أمبرتو: اسم الوردة(رواية)، ترجمة، أحمد الصمعي، دار التركي للنشر، تونس، ١٩٩١م.
- إيكو، أمبرتو: الأثر المفتوح، ترجمة عبد الرحمن بو علي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط٢، ٢٠٠١م.
- إيكو، أمبرتو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م.
- إيكو، أمبرتو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- إيكو، أمبرتو: العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة، سعيد بنكراد، مشروع الترجمة "كلمة" بالتعاون مع المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
- إيكو، أمبرتو: القارئ في الحكاية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠م.
- إيكو، أمبرتو: باودولينو(رواية)، ترجمة، نجلاء حمود وبسام حجار، عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م.
- إيكو، أمبرتو: جزيرة اليوم السابق(رواية)، ترجمة، أحمد الصمعي، دار أويا، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٠م.
- إينو، آن: مراهنات دراسة الدلالات اللغوية، ترجمة: أوديت بتيت، وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٠م.
- بارت، رولان: مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم محمد البكري، دار لحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط٢، ١٩٨٧م.
- بارت، رولان: المغامرة السيميولوجية، ترجمة عبد الرحمن حزل، دار تينمل، مراكش، ط١، ١٩٩٣م.
- بارت، رولان: درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٣م.
- بارت، رولان: نظرية النص، ضمن آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.

- بارت، رولان: هسهسة اللغة، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٩.
- بروب، فلاديمير: مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة وتقديم أبو بكر باقادر وأحمد عبدالرحيم نصر، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ع ٥٦، ط١، ١٩٨٩م.
- بليث، هنريش: البلاغة والأسلوبية- نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق، بيروت، ١٩٩٩م.
- توسان، برنار: ماهي السيميولوجيا، ترجمة محمد نظيف، أفريقيا الشرق، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م.
- جاكبسون، رومان: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٨م
- جوف، فانسان: رولان بارت والأدب، ترجمة محمد سويرتي، أفريقيا الشرق، ط١، ١٩٩٧م.
- جيرو، بيير: علم الإشارة، ترجمة: منذر عياشي، طلاس، دمشق، ١٩٩٢م.
- دولودال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمن بو علي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٤م.
- دولودال، جيرار، بالتعاون مع جوويل ريطوري: التحليل السيميوطيقي للنص الشعري، ترجمة وتقديم عبد الرحمان بو علي، الرباط، ط١، ١٩٩٤م.
- ديكرو، أوزوالد، وجان ماري سشايفر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، جامعة البحرين، ٢٠٠٣م.
- راي، وليام: المعنى من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد، ط١، ١٩٨٧م.
- روبنز، روبرت: موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ترجمه أحمد عوض، عالم المعرفة، ٢٢٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٧م.
- ريكور. بول: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٣م.
- زويست، آآرت: التأويل والعلاماتية، ضمن: العلاماتية وعلم النص، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٤م.
- ساخاروفا، ت، أ: من فلسفة الوجود إلى البنيوية، دراسة نقدية للاتجاهات الرئيسية، ترجمة وتقديم أحمد برقاوي، دار دمشق، دمشق- بيروت، ١٩٨٣م.

- ستروك، جون: البنيوية وما بعدها، من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، ٢٠٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٦م.
- سشايفر، جان: العلاماتية، ضمن العلاماتية وعلم النص، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٤م.
- سلفرمان ج. هيو: نصيات- بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢م.
- سمفيل، ليون: التناصية، ترجمة وتقديم محمد خير البقاعي، ضمن آفاق التناصية، المفهوم والمنظور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- شولز، روبرت: السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١و ١٩٩٤م.
- فرويد، سيجموند: تفسير الأحلام، تبسيط وتلخيص: نظمي لوقا، دار الهلال، ١٩٦٢م.
- فوكو، ميشال: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠٠٥م
- فوكو، ميشيل: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي وآخرين، مركز الإنماء القومي، رأس بيروت، ١٩٩٠م.
- فيكو، تيسيتا: فلسفة التاريخ عند جامبا، ترجمة: عطيات محمد أبو السعد، دار الفارابي، ط١، ٢٠٠٦.
- فيلمن، شوشانا: الرسالة المسروقة وحالة بو، ضمن: (جاك لاكان، إغواء التحليل النفسي)، إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المشرع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩م.
- كريزويل، أديث: عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط١، ١٩٩٣م.
- كريستيفا، جوليا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٧م.
- كورتيس، جوزيف: مدخل إلى السميائيات السردية والخطابية، ترجمة جمال حضري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م.
- مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة: حميد لحميداني وآخرين، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٧م.
- ماريني، مارسيل: النقد التحليلي – النفسي، ضمن: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمه، رضوان ظاظا، عالم المعرفة، ٢٢١، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٧م.

- مونان، جورج: مفاتيح الألسنية، ترجمة الطيب البكوش، منشورات الجديد، تونس،١٩٨١م.
- هوكز، ترنس: البنيوية وعلم الإشارة، ترجمة مجيد الماشطة، بغداد، ط١، ١٩٩٦م.
- ياكبسون، رومان: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨م.

المراجع الأجنبية

- Barthes. Roland: Elements of Semiology. translated by Annette Lavers & Colin Smith. Hill & Wang. New York. 1977.
- Barthes. Roland: Mythologie. selected & translated. Annette Lavers. Cape. London. 1972.
- Barthes. Roland: The Death of The Author. in Image / Music/ text. London. 1977.
- Barthes. Roland: Writing Degree Zero. trans. Annette Lavers & Colin Smith. Hill & Wang. New York. 1977.
- Brent. Joseph: Charles Sanders Peirce. A life. Indiana University press. 1984.
- Culler. Jonathan: Structuralist Poetics. Rouldge & Kegan Paul. 1977.
- Eco. Umberto: A Theory of Semiotics. Bloomington. Indiana Unive - sity Press. London. Macmillan. 1976.
- Guiraud. Pierr: Semiology. Boston Routledge & Kegan Paul. 1975.
- Hjelmslev. Louis: Prolegomena to a Theory of Language. Madison. University of Wisconsin Press. 1963.
- Kristeva. Julia: Desire in Language. A semiotic A pproach to Liter - ture and Art. Edited by Leon S. Roudiez. Columbia University Press. New York. 1980.
- Locke. John: An essay concerning human understanding. edited with an introduction. critical apparatus and glossary by Peter H. Nidditch. Oxford. Clarendon Press. 1975.

- Magee. John: Boethius on signification and mind. Brill. Leiden. 1989.
- Martinet. Andre: Elements of General Linguistics. translated by Elis - beth Palmer. The University of Chicago Press. 1964.
- Nauman. St. Elmo: Dictionary of American Philosophy. Philosophical Library. New York. 1974.
- Nöth. W: Handbook of Semiotics. Ed. Indiana University Press. Indiana. 1990.
- Ogden. C.K. & Richards I.A:The meaning of Meaning. London.1945.
- Peirce. Charles Sanders: Collected Papers. Ed. Charles Hartshorne. Paul Weiss & Arthur W Burks. Cambridge. MA: Harvard University Press. 1931-1958.
- Peirce. Charles: Letters to Lady welby. New Haven. Whitlock. 1953.
- Plato: The dialogues of Plato. translated by Benjamin Jowett. O - ford1968.
- Ricoeur. paul: Interpretation Theory. Discourse and The surplus of meaning. The Texas Christian University Press. 1976.
- Saussure. Ferdinand de: Course in general linguistics. Translated. with an introduction and notes by Wade Baskin. McGraw-Hill. ed - tion. 1. 1966.
- Sebeok. Thomas: Contributions to the doctrine of signs. Indiana University Press. 1976.
- Todorov. Tzvetan & Oswald Ducrot: Ensyclopedic Dictionary of the Sciences of Language. translated by. Catherine Porter. The johns Hopkins University Press. Baltimore & London. 1979.
- Todorov. Tzvetan: Theories of The symbol. translated by Catherine Porter. cornell university press. New york. 1982.

الدوريات

- التجديتي، نزار: ألجرداس جوليان جريماس، من منهج تحليل الخطاب إلى خطاب المنهج، علامات في الأدب والنقد، مج ٨، العدد ٣٢، مايو، ١٩٩٩م، النادي الأدبي الثقافي، جدة.

- التجديتي، نزار: السيميائيات الأدبية، لألجرداس ج. جريماس، مجلة عالم الفكر، ع ١، مج ٣٤، سبتمبر، ٢٠٠٥م، الكويت.
- جينيناسكا، جاك: السيميائية، ترجمة محمد خير البقاعي، نوافذ، العدد ١٣، ١٤٢١هـ، النادي الأدبي الثقافي، جدة.
- الزهراني، معجب: في المقاربة السيميائية، مجلة علامات، ج ٢، مج ١، م١٩٨٨، النادي الأدبي الثقافي، جدة.
- كيم، سانكدو: حول مشروع تاريخ السيميولوجيا - أسئلة وقضايا أبستيمولوجية، ترجمة: محسن أعمار، مجلة علامات، ع ٢١ – ٢٠٠٤م، مكناس – المغرب.
- مفتاح، محمد: حول مبادئ سيميائية، مجلة علامات، العدد ١٦، ٢٠٠٤م، المغرب.
- نفادي، السيد: السيميوطيقا وعلاقتها بالفلسفة والعلم عند كارناب، عالم الفكر ع١، مج، ٣١، سبتمبر، ٢٠٠٢م، الكويت.